ألفونس دوديه

الشيء الصغير

حكاية طفل

مارايا

النص كاملاً

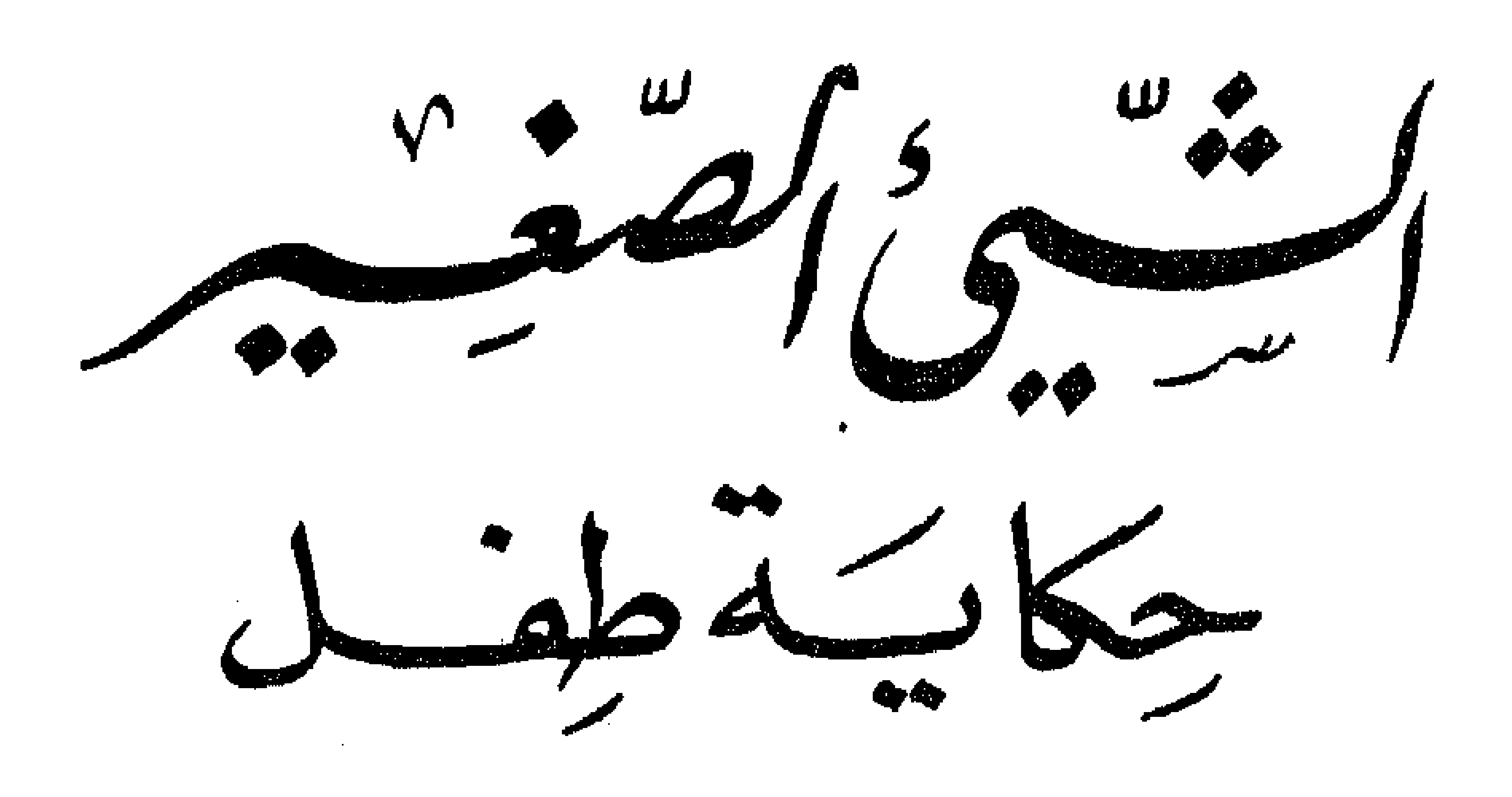


النص كاملاً

مارباو

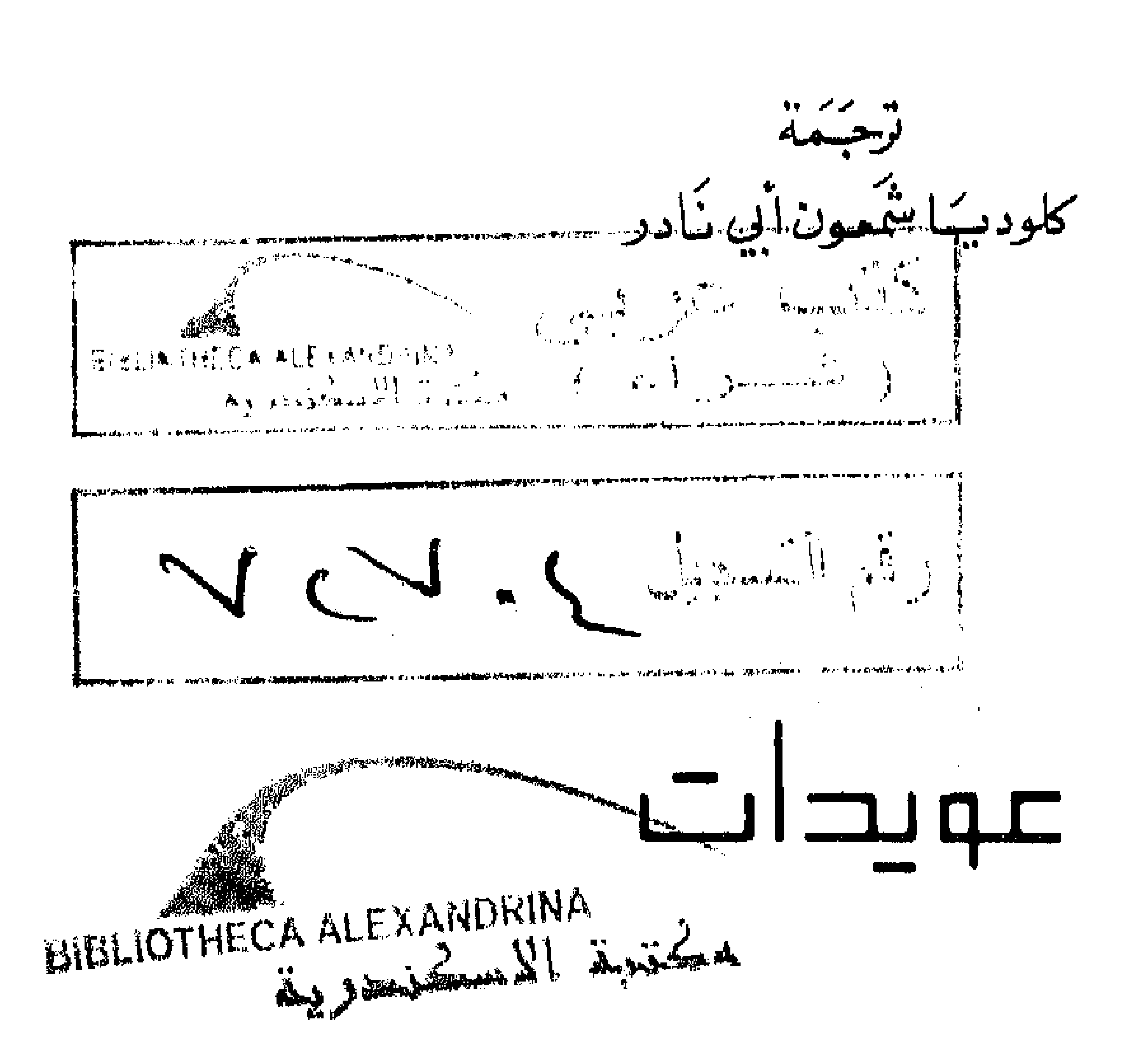
روائع الأدب والفكر منقولة الى العربية

ألفونس دوديه



ترجمة

كلوديا شمعون أبي نادر



عويدات

الطبعة الأولى ١٩٨٤

الشّيء الصّغير

تقديم

جان لوي كورتيس

قِيل أحياناً عن الفونس دوديه أنه «ديكنز الفرنسي» . هو كان يود ، دون شك ، أن يكون كذلك ، ونلمس بقوة تأثير الكاتب الانكليزي الكبير في « الشيء الصغير » ، الذي نُشر عام ١٨٦٨ ، كما نلمسه ، بعد ذلك بثماني سنوات ، في « جاك » الذي هو تقريباً ، في بعض فصوله ، استنساخ لِـ « ديفيد كوبرفيلد » . دوديه ليس ديكنز ، وشتّان ما بين الاثنين . ولكن لماذا هذه المقارنة ، المزعجة ، لأنها لغير مصلحة كاتب « رسائل من طاحونتي» العذب والكلاسيكي؟ . . . حسب الفونس دوديه، مجداً له ومتعة، لنا كقراء، انه الفونس دوديه.

الكتابة الأولى لـ « الشيء الصغير» كانت تحت عنوان « دانيال أيسات » ، وهو إسم بطل القصة . ودوديه الشاب الذي بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ، كان يتوخى في هذا الكتاب ، التحدث عن ذكريات الطفولة والمراهقة ، واذ به يقابل في باريس شابة جميلة تُدعى جوليا ألّار ، ولها من العمر إحدى وعشرون

سنة ، لقائهما كان بمثابة صعقة متبادلة ، عدا جمالها ، فجوليا مُثقفة ، عالمة بالموسيقى وذوّاقة ، في الأدب والشعر . أُقيمت حفلة الزفاف في « سان دوني دو سان ساكريمان » ، شارع « توران » في ٢٧ كانون الثاني ١٨٦٧ .

وبعد عودتهما من رحلة شهر العسل أقام الشابان في شقة في فندق « لاموانيـون » ، شارع « بـافيه » ، حيث سيـولد ابنهـما الأول ، « ليون دوديه » المُجادل العنيد وفالِق السياسيين الكبير في الجمهورية الثالثة . استأنف الفونس « **دانيال ايسات** » الذي أصبح « الشيء الصغير » ـ تلك الرواية التي صدرت عن دار « هتزل » ونُشرت عام ١٨٦٨ . وسبق لدوديه ان نشر مجموعة شعرية لاقت نجـاحاً ، بعنـوان « العاشقـات » . وكتاب « روايـة شابـوروذ روج » ، وهو مجموعة كوميديات شعرية . أما « الشيء الصغير » فهي روايته الأولى . وبعدها بسنة نشر « رسائل من طاحونتي » التي جلبت له المجد .

إن « الشيء الصغير » مثله مثل « ديفيد كوبرفيلد » ، هو سيرة حياة جزئية . طَرَأَ عليها تغيير كبير . جزئية ، لأن القسم الأول هو تقريباً مُطابق لواقع الكاتب ، أما القسم الثاني فهو مُغاير وهو على جانب كبير من الخيال الروائي . في القسم الأول ، من خلال طفولة « دانيال » نستشف طفولة « ألفونس » : عائلة ذات طابع جنوبي ، « نيم » مسقط الرأس ، افلاس الأب ، المنفى في « ليون » حيث البرد والضباب ، الشقة الكئيبة ، والتتلمُذ القاسي

على يدِ الحياة في مدرسة « آلس » . « نعم ، هذا أنا ، هذا الشيء الصغير الذي أضطر إلى كسب معيشته في سنته السادسة عشرة والنصف فعمِل في هذه المهنة الرهيبة : ناظر مدرسة ، وذلك في أقاصي قرية تابعة لمنطقة كثرُت فيها معامل الحديد ، تبعث بأولاد قرويين سفهاء وجُهّل فيشتمونني بلهجتهم الفظّة والجافة . تحمَّلت مذلات الفقير الحقيرة ، ذلك اني كنت هدف تعدِّيات أُولئك الوحوش ، ومحُاطاً بُمرائين وبمتعجرفين يحتقرونني . وبعد خروجي بمدة طويلة من مدرسة آلس التي هي أشبه بحبس ، كنت غالباً ما استيقظ في منتصف الليل مُبلَّلاً بالدموع ، فقد كنت أحلم أني ما زلت ناظراً وشهيداً . ولحسن الحظ فإن بداية تمرسي القاسي في الحياة لم تحولني الى شرير ، وإني لا ألعن كثيراً تلك الحقبة البائسة ، فقد ساعدتني ولو قليلاً ، على تحمل تجارب بدايتي الأدبية وسنوات باريس الأولى » .

وفي المقابل ، في القسم الثاني ، فإن الفصول الأولى فقط تُذكِّر بتجربة دوديه ، الشاب عند وصوله الى باريس واستقبال أخيه البكر له والمصاعب المادية في الآونة الأولى . ثم يتدخل الروائي ويتخلص نهائياً من السيرة الذاتية . لقي « الفونس دوديه نجاحاً كبيراً عند وصوله الى باريس وذلك مع نشر أول ديوان له : « العاشقات » ، مما سمح له بتصدُّر أعمدة الصحف . وخلافاً لدوديه فإن « دانيال أيسات » لم يَبِعْ أي نسخة من « الفراشات الزرقاء » ، فتراكمت عليه الديون وذاق جحيم اليأس والشؤم .

في السابعة والعشرين من عمره عُرضت لدوديه مسرحيات في « الأوديون » و « الكوميدي فرانسيز » ونشر كتباً وتزوج أيضاً من وريثة غنية وفرّت له الطمأنينة . هو شاب سعيد ، محبوب ومُكَرَّم . وسامته تلفت الأنتباه في الطريق . تميُّزه يفرض الإحترام .

أما مارسال بروست فقد وصف دوديه كما يأتي : « مجدُ ذاك الجبين حيث الشعر قد قُسِّم جناحين يتسمان بالقوة والخفّية [. . .] ذاك المجد يليق بإله أو بملك . . . السيد « دوديه » هو ملك عربي ذو وجه نافذ ودقيق كنصل عربي » . فشتان بينه وبين « دانيال أيسات » البائس ، الطفل الأبدي ، الذي نُذِر للضحالة والفشل . لكن المقارنة ، في الحقيقة ، بين القصة ـ السيرة وحقيقة السيرة ، هي مسألة غير ذات شأن إلا شأنها الجامعي . من الواضح أن دوديه قد غيرّ العديد من الأحوال والحوادث ، وأدخل بعض التعديلات ، فهنا يُعظِّم وهناك يسوّد (يسوّد خاصة) ، وذلك لأسباب تارة شخصية (الحياء ، التحفظ) وطوراً أدبية (الاختيار ، الموضوعية) . ومن الواضح ايضاً انه اختلقَ كثيراً وإن القسم الثاني هو تقريباً برُمَّتِهِ مُبتَدَع نسبة الى المعنى الحرفي للحوادث التي تكلّم عنها. ولكن يجب البحث عن حقيقة داخلية وراء الدِّقة الحرفية . القصة صحيحة إذا قُرئت على ضوء تلك الحقيقة : كان في إمكان دوديه أن يرى نفسه مثل « الشيء الصغير » . حتى وهو راشد ، متزوج ، ربّ عائلة ، كاتب

مشهور ، سعيد ومكرَّم ، من المحتمل انه لم يَكُفَّ لحظة ، الى حدٍّ معينٍ ، عن رؤية نفسه طفلاً أبدياً كدانيال أيسات ، ساذجاً وضعيفاً قُذِفَ به دون حماية في عالمٍ قاسٍ .

لماذا هذا التشاؤم الخفي ؟ لماذا هذه الرؤية المُنقصة للذات ، رغم ان وقائع الحياة كانت تكذبه ؟ ذلك ان كل كاتب قصصي حقيقي ، هو شخص مزدوج إلى جانب الإنسان الذي نعرفه والذي بوسعنا أن نحدّثه ومن الممكن ان لا يبدو مغايراً لأي كان ، الى جانبه هناك إنسان آخر خفي لا يعرفه أحد ، حتى ان الكاتب نفسه يجهله بعض الأحيان . ان ذاك المجهول هو الذي يَنُص الكتب . وستتعجَّب إذا ما أُتيحت لنا رؤيته شفافيةً « كما يرى الرب مخلوقاته ، ستتعجَّب عندما نلاحظ أن هذا المجهول مختلف تماماً عن الشخص الذي نُشرت كتبه ،صُوِّر في الجرائد وكُرِّم في الصالونات . فهو بالفعل مرات طفل ، أو عجوز ، مِسخ ، أو قديس ، وفي أغلب الأحيان يجمع كل تلك الصفات معاً .

ومن الواجب الاعتراف بأن الجراح التي أصابت دوديه عهد الطفولة والمراهقة ما كان ليمكنها أن تندمل ودوديه من النوع المرهف الحس الى حد ان رهافة الحس هي بالذات مفتاح فنه . وجراح كهذه قد تظل تنزف طيلة حياة مجيدة ومحظوظة . هذا يُفسِّر ظهور عوارض التواضع الغريبة يُقابلها انتفاضات مِلؤُها الكبرياء ، تلك العوارض نستغرب ملازمتها أحياناً لفنانين لاقوا نجاحاً متواصلاً كان من المفروض أن يزوِّدهم بالصفاء . هذا

يُفسِّر الأهواء الصبيانية عند أبناء ثمانين مشهورين ، ويوضح خجلهم المفاجيء والغامض ، وكذلك الأمر بالنسبة للسعادة التي لا يمكن ادراكُها ، والتي يظهرونها عند التفاتةٍ لا تُذكر وخلال تشريفات دون أي أهمية . وهكذا فإن كاتباً عظيماً حصل على جائزة نوبل بسرور معتدلٍ ، يطير فرحاً عندما يطلب منه رئيس المدرسة حيث تربىّ ترؤُس حفلة توزيع الجوائز القادمة ، فاذا به يتصل هاتفياً بجميع أصحابه ليزُف اليهم الخبر . ذلك ان الطفولة التي لازمته لم تتأثر باختيار الأكاديميين الأسوجيين ، ولكن ترؤُس حفلة توزيع الجوائز في تلك المدرسة حيث ربما كان تلميذاً ، تاعساً ومحتقراً ، ذلك الشرف هو بالنسبة له ثأر يُسكره .

ولهذا فإن دوديه القروي الصغير ، الناظر الأسبق الذي أسيئت معاملته في مدرسة « آلس » ، لم يشف تماماً حتى مع انتصاراته الباريسية . ولذلك تمكن من رؤية نفسه من خلال ملامح « دانيال أيسات » التعيس - « والشيء الصغير » هو الجرح المفتوح أبداً ، وفي الوقت نفسه هو محاولة للتغلُّب على العذاب وذلك بوصفه في أقسى حالاته . محاولة لتَغْريم البؤس .

قريباً يصبح عمر « الشيء الصغير » ، مئة سنة . ومن المستحيل ان تخفي شيخوختها . فقاريء شاب عصري يقرأ هذا الكتاب للمرة الأولى سيتأثر حتمًا بالطابع القديم في القصة وفي الأسلوب . انه التشبُّع بالعصر ، لا يسلم منه إلاَّ العظماء ، أو يتخطَّونه ، فمداخلات الكاتب المستمرة اصبحت

مسبوقة . مثلاً : عندما يتوجّه دوديه مباشرة الى بطله بقوله : « كان يجب ان تبكي سيدي « أيسات » العزيز ، كان يجب ان تبكي مرتين » . أو حين يقول : « والآن إذا شاء القارىء ، بينما « الشيء الصغير » ينظم الشعر ، سنعبر بخطوة واحدة أربع أو خمس سنوات من حياته . أي استعجلُ الوصول الى ذات ربيع من العام ١٨٠٠ .

ذاك الربيع الذي لم تنساه عائلة « أيسات » ، جميع العائلات لديها تواريخ تتعلق بها » . وخمسون صفحة لاحقاً يقول : « والآن أيها القارىء لديَّ إعتراف سأصرّح به لك » . أو يقول ما يصلح لحكواتي في قرية : « هل نجاح روجيه يرجع الى بلاغة رسائلي أو يرجع الى طول شاربيه ؟ إترك سيداتي القرار لكن » . ويقول أيضاً : « إذا أردتم ان تعرفوا القرار الذي لا رجوع عنه والذي اتخذه لتوه « الشيء الصغير » اتبعوه لغاية « سارلاند » [. . .] اتبعوه [. . .] ولاحظوا . . . الخ » . وعلامات التعجّب المفخمة زوراً هي أيضاً غير عصرية ، ذلك انه من المفروض ان تكون تعابير تنمُّ عن سذاجة خبيثة : « إلهي ! رجال في جزيرتي ! » . أو « ماذا كان سيحلُّ بي ، يا إلهي ؟ » . غير عصرية هي تلك التأوهات وذاك الفيض في الإنفعالات الجنوبية . ليست بعصرية تلك المؤالفات على نحو : « يا له من دساس هذا اللوسيفريس ! » أو « كان يحشو رأسه باليونانية واللاتينية ، بما هو كفيل بتفجير دماغه » . بالية هي تلك العاطفية الشاملة المتكلفة

والتي تشرك الطبيعة بالأفراح وبالأحزان الإنسانية : « كلّما ابتعدت القافلة كانت شجرة الرمان تمتد بكل قوتها فوق الحائط لكي تراها مرة أخرى . . . . وأشجار الدُلبْ تلوّح بأغصانها مودِّعة . . . »
كل ذلك هو طريقة معيَّنة في الإخبار ، تفرَّد بها القرن التاسع عشر ونرى معادلات لها عند أفضل الكتَّاب كبلزاك وديكنز ، وكذلك الأمر بالنسبة لدوديه .

مُؤالفة ساذجة وحيوية راوٍ جنوبي وقْعُها كبير في « رسائل من طاحونتي » ، ولكن تلك الخصائص تبدو أحياناً مُتكلِّفة وتقليدية بعض الشيء في « الشيء الصغير » ، ذلك ان الكاتب لم يستفد منها إلا جزئياً واضعاً جانباً كل ما أتاح « للرسائل » أن تغدُو تحفة صغيرة بتلقائيَّتها الملجومة ، والمُسيَّرة حسب مشيئة مؤلفها .
الكُتَّاب في العصر الذهبي للقصة لا يعترض سبيلهم الموانع والعِقد التي تشلُ عدداً كبيراً من المؤلفين المعاصرين . إنهم يستقرون بعظمة في الدور الذي يتّخذونه كإله أو كشاعر ، يوهمون أنفسهم بتصديق ما يتكلمون عنه ، وعلى كل حال فإنهم ينتهون بتصديقه . يعلمون أن فن القصة يفترض وجود بطلين : الراوي والقارىء . هذا القارىء لا يغفلون أبداً عنه ، يتوجهون اليه ويحضّرون له مفاجآت لذيذة ، يتخذونه كشاهد ، يتوسّلون إليه للإشتراك معهم ، يعدونه بأشياء مُبالغ بها . القصة في القرن التاسع عشر هي محاورة شهوانية بين الكاتب والقارىء ، هذا هو تعريف القصة في نظر ديكنز ، بلزاك ، ودوستويفسكي . وكذلك

بالنسبة لدوديه ، الذي تعلّم فن القصة على يد كبار المعلمين الفرنسيين والإنكليز الذين برزوا قبله .

دوديه ليس بديكنز الفرنسي - لا وجود لديكنز فرنسي - ولكن لديه مُلاءمات واضحة مع الانكليزي الكبير ، والطريقة ذاتها بالشعور بالعذاب الإنساني والتعبير عنه بتعاطفٍ سهل المناجاة في الحقيقة حسّ دوديه « المُرهف ، كما هو عليه الحال مع « ديكنز » ، ذلك الحس يتطوّر أحياناً الى رِقّة متصنّعة لا نتحمّلها في يومنا هذا . بما انه يريد ان يحُرّك عواطفنا بأي ثمن ، فإنه غالباً ما يُصبح لجوجاً ، مُستخدماً وسائل كبيرة جداً مما يؤدي حتماً الى نتائج جليّة جداً ينبذُها نوعاً ما الذوق الرفيع .

شخصيات « جاك أيسات » (« الأم جاك ») و « بياروت » ، و « السفيني » الطيّب بائع الأواني الصينية تبدو لنا اليوم اصطناعية . هنا خاصة يظهر الإختلاف مع ديكنز . نرى عند الانكليزي أيضاً أشخاصاً سليمي الطوية ينضحون بالعاطفة الإنسانية ، ولكنهم في الوقت نفسه فريدون من نوعهم ، غريبون ، ذلك ان مُغالاتهم هي التي تنقذهم من التقليد أو من التصنع ، عند هذا الحد لم يعدُ هنالك ذوق صالح أو سيء ، لا وجود إلا لذكاء خلاّق مِعطاء بصورة مُدهشة . مع جاك أو بياروت نحن أمام شخصيات باهتة . الملمح ضعيف ويتكرر على النمط نفسه بصورة مملّة - فبياروت يتميّز فقط بعادة لغوية مرضيّة فيقول دوماً : « هذا ما كنت أود أن أقوله ! » . أما جاك فطيبته

تغدو أحياناً بطولة ، قداسة ، ولكن ليس لدينا معلومات أخرى عنه فهو رمز للإخلاص الأخوي أكثر مما هو شخصية أخ كرَّس نفسه للآخرين . والفصل الأخير من الكتاب أخطأ أيضاً هنا وهناك من فيض التحنُّن : إنفعالات طاهرة ومتذمِّرة ، بسْمات تظهر ما بين الدموع ، كل ذلك يزعجنا قليلاً : فالإنفعالات أصبحت عملية حسابية .

هذه كانت نقاط الضعف في الكتاب ، حقيقية وواضحة وضوح الشمس . كان من الضروري التكلّم عنها بصراحة دون إخفاء قول ، ذلك ان تلك النقاط هي الوجة الآخر لِما يجُسِّد فضيلته الكبرى ولِما يدعم نجاحه الثابت عند أجيال من القراء . و « الشيء الصغير » أضحى منذ ان نُشِر تقريباً ، كلاسيكياً ، ثانوياً ، كتاباً كلاسيكياً يوضع على الرفّ الثاني . وذلك يرجع لأسباب عدّة : والسبب الأهم هو ذاك الحس المرهف المُطوَّل ، المُشبَّع به الكتاب والذي تساوى دوماً مع التعاطُف المُعدْي لآلام الوضعاء ، الفقراء ، والخاسرين . « الشيء الصغير »هو منطقُ والقلب لا يدركهُ المنطِق نفسه .

إذن ليس من أهمية لركاكة الأسلوب ، للتكلُّف في ذلك المقطع أو ذاك ، ولتفاهة بعض الأشخاص . فعاطفة دوديه ، وحنانه ، هما كفيلان بإقناعنا . فصوته ، صوت الراوي الذي نسمعه . أليف ، طبيعي ، وهو تارة ماكر وطوراً حنون . فيؤثر فينا ويستحوذ على انتباهنا . أعجوبة الإيمان القصوى صغيرة كانت

أم كبيرة تتم حتى في يومنا هذا ، في هذا القرن القليل الإيمان والذي هو«عصر الشك» . في الفصل الذي يتكلم فيه دوديه عن الكسيح الصغير «بامبان» الذي هو فخور بعصيّه ، نراه فعلاً شبيهاً بديكنز : يجعلنا نلمس لمس اليد بؤساً إنسانياً عُضالاً يحزُّ في قلبنا .

على كل حال ، إن الذي لفت انتباهي خاصة ، عند قراءتي الثانية لـ «الشيء الصغير» ، هو قساوة الملامح والتشاؤم في رؤية العالم الذي يُعادل تقريباً تشاؤم «فلوبير» . ماذا نرى في نهاية الأمر ؟ عائلة شريفة ، أشخاصاً سليمي الطوية يسحقهم النحس : آل «أيسات» هم تُعساء لأنهم فُقراء وشُرفاء . طفل بريء ، عاطفي ، يحُسن كتابة الشعر نوعاً ما ، سُخِرَ منه ، أسيئت معاملته ، خُدِع ، كل ذلك بسبب سذاجته وعاطفته . «الفتى «جاك» هو موجز لكل الفضائل ، مات في رَيَعَان شبابه كشهيد في بذل النفس . إذا تبصَّرنا عن قرب وإذا أجْلَيْنا اللطافة والروح المرحة المُطْمِئنة في القصة ندرك ان مضمون الكتاب برُمته تقريباً هو رهيب ومشؤوم . قصة «روجيه» الخبيث مُدرِّب لعبة الشيش ، الذي يستغلّ سذاجة مراهق ، تلك القصة كان في إمكان «موباسان أو فلوبير ، أن يروياها . حادثة الخيمة التي اكتشف خلالها المسكين «دانيال أيسات» الخسائس الإنسانية ، تلك الحادثة يمكن ان تُسمىّ «الأوهام الضائعة» . وماذا نقول عن الفصل المتعلق بـ «أيرما بوريل» والذي ينذر بجحيم

« سافو » ؟ هنا أيضاً حياء « الفونس دوديه الشديد يخُفف قليلاً من حدّة الوصف النابيّ . لم يتفوّه مثلاً بكلمة واحدة عن العلاقات الجسدية بين « إيرما » و « دانيال » ، مع العلم اننا نعلم بوجودها . اكتفى بالتّلميح عنها بتحفُّظ مُتناهٍ . نتكهن أن العاشقين مرتبطان بعضهما ببعض بقيدٍ شهواني ، نراهما يتمزّقان ومخالبهما منشوبة ، كحيوانين متوحشين . وصف انحطاط « دانيال » رغم تعفّفه وتحفّظه لا يخلو من وضوح مؤلم . ولكن من خلال نهاية سعيدة مُرطّبة بالتحنّن ، نرى في الفصل الأخير تشاؤم دوديه يرتفع الى الذروة . ذلك ان من ينتصر في نهاية الأمر هو سخف البورجوازية الصغيرة . مات الحلم على يد البؤس ، وخيبات الأمل ، والإهانات والإنكسارات . وتخلى دانيال عن أمل الخوض في مهنة أدبية . واقتنع نهائياً « بالإنغماس في المتاهات اليومية . باع الخزف الصيني عند عمّه بياروت . . . طبعاً الحب موجود وسيبلور دون شك هذا الجو الحزين والممل . . . ولكن ذلك لا يغنينا عن القول أن دانيال بحاجة الى كل ما أوتي من قوة ليقرأ لافتة المخزن حيث خُطّت في الوقت نفسه مَعالم مستقبله وفشلِه المُحزن . . . كخاتمة مُيئّسة لم يجد فلوبير ما هو أفضل (نُشِر « الشيء الصغير » سنة ١٨٦٨ ، أما «التربية العاطفية » فقد نُشِرت سنة ١٨٦٩ . . . المقارنة هنا مفيدة) .

إن سبب استمرارية هذا الكتاب حتى أيامنا وسر اعتباره حالياً رغم اعوامه التي شارفت على المئة ، يعودان دون شك الى قوله

الحقيقة ، تلك الحقيقة التي نعرف انها قد تكون حزينة ، ولكنه يقولها دون حقد ولا مرارة ولا خبث ؛ بل بالعكس يقول الحقيقة وقلبه مُفعم بعاطفة جيّاشة نحو البشر . لذلك فهو يؤثر فينا دائمًا . نجد في انتاج القرن التاسع عشر الأدبي بعض المؤلفات التي تزخر بالعاطفة المتكلفّة نوعاً ما والتي ينفر منها في عصرنا هذا مُتذّوقوا الجمال وأصحاب الذوق الصعب . « غادة الكاميليا » و « الشيء الصغير » هما إحدى تلك المؤلفات التي رفضها الجماليون وأصحاب الذوق الصعب ، ولكن ما هَمَّ ، ما دام هذان الكتابان سيظلاّن محبوبيْن في أوساط الجمهور الواسع المؤلف من ذوي القلوب الرقيقة .

جان لوي كورتيس

إلى « بول دللوز »

الشّيء الصّغير

الذكريات التي تبعثها فيَّ الأماكن هي إحدى عللي . ذلك بأنها ، تهُزّني إلى أقصى الحدود !

مدام دو سيفينييه



القسم الأول

I

المصنع

ولدتُ في الثالث عشر من أيار سنة (. . .)١٨ في أحدى مدن « اللونكودول » حيث نجد ، كما هي الحال في مدن الجنوب الأخرى ، الشمس بوفرة ، وكمية لا بأس بها من الغبار ، وديراً للكرمليين ، ومبنيين أو ثلاثة مبانٍ رومانية اثرية .

والدي ، « السيد أيسات » ، كان يتعاطى في ذلك الوقت تجارة المشالح ، وكان يملك على أبواب المدينة معملاً كبيراً ، إتخّذ من أحد أجنحته مسكناً مريحاً يسهلُ الدخول اليه والخروج منه ، تظلّله أشجار الدلُبْ وتفصلهُ عن المشاغل حديقة كبيرة . هنا ، في هذا المكان بالذات ، جئتُ إلى هذا العالم وقضيت أولى أفضل سنوات في حياتي ، لم ألقَ مثلها في ما بعد . وهكذا فإن ذاكرتي الوفية احتفظت بذكرى لا تفنى عن الحديقة والمصنع وأشجار الدلْب . وعندما أُعلن إفلاس والدي وأضطررت الى التخلي عن تلك الأشياء ، تأسّفت عليها كأنني أتأسف على أشخاص لا على أشياء .

لا بُدَّ لي من القول في بادىء الأمر أن ولادتي لم تجلب الحظ لمنزل « أيسات » . العجوز « أنوّ » الطبّاخة غالباً ما حكت لي كيف انني ، عندما وُلدت ، كان أبي مُسافِراً فتلقى نبأ ولادتي واختفاء أحد زبائنه في مرسيليا، مُستولياً على أكثر من أربعين ألف فرنك. مما حدا السيد «ايسات» الذي كان سعيداً وحزيناً معاً إلى التساؤ ل عما إذا كان عليه أن يبكي لاختفاء زبون أو أن يضحك لمجيء الصغير « دانيال » السعيد . . . كان عليك أن تبكي سيدي العزيز « أيسات » ، وأن تبكي مرتين .

ولادتي، للحق كانت نذير نحس لوالديَّ منذ ولادتي انهالت عليهما من كل جنب مصائب رهيبة . أولا : كانت حادثة زبون مرسيليا ، ثم شب حريق مرتين في سنة واحدة ، ثم وقع إضراب عاملات النسيج ، ثم الخلاف مع العم « باتيست » ، ثم أقمنا دعوى مُكلفة جداً ضد بائعي الألوان الذين نتعامل معهم ، وأخيراً أتت ثورة (. . .)١٨ فأجهزت علينا .

ومنذ ذلك الحين أصبح العمل بطيئاً في المصنع ، ففرُغت المشاغل رويداً رويداً . كل أسبوع يقضي على حِرْفة ، وكل شهر يأخذ معه آلة طباعة . كان من المُحزن رؤ ية الحياة تتخلى ببطء عن منزلنا كأنه جسم سقيم ، يوماً بعد يوم . أول الأمر لم نَعدُ ندخل إلى قاعات الطابق الثاني . ثم أقفل الملعب الداخلي . بقي الحال على هذا المنوال طيلة سنتين . طيلة سنتين

ظل المعمل يحتضر. أخيراً وذات يوم، ذهب العمال إلى غير رجعة. لم يدُق جرس المشاغل، توقفت البئر عن العمل، ومياه الأحواض الكبيرة حيث كنّا نغسل الأقمشة باتت دون حراك. وبُعَيْدَ ذلك لم يبق في كل أرجاء المعمل سوى السيد والسيدة «أيسات»، العجوز «أنّو»، أخي «جاك» وأنا. ثم، هناك على حدة، بقي البوّاب «كولومب» وابنه «روجيه» الصغير لحراسة المشاغل.

انتهى الأمر، لقد أفلسنا.

كنت في السادسة أو السابعة من عمري. بما أنني كنت نحيلاً جداً، واهناً ومسقاماً، لم يشأ والداي إرسالي إلى المدرسة. علمّتني والدتي القراءة والكتابة فقط. مع بضع كلمات إسبانيّة، وعلمتني عزف لحنين أو ثلاثة على القيثارة. بفضل تلك الألحان عُرِفت في العائلة كطفل معجزة. بفضل تلك الطريقة التربوية لم أبرِح منزلنا، وتمكنت من متابعة احتضار منزل «أيسات» في أدق تفاصيله. أعترف بأن هذا المشهد لم يؤثر فيّ. حتى إنني وجدتُ في إفلاسنا لذّة مُعينة، ذلك انه اصبح في وسعي أن أقفز كما أشاء في جميع أرجاء المعمل، وهو امر كان متوافراً لي، أثناء وجود العمال، يوم الأحد فقط.

كنت أقول بجدِّية للصغير «روجيه»: «لقد أصبح المعمل

الآن لي ، لقد اعطوني إياه لكي ألعب » . فيصدقني الصغير روجيه . هذا الأبله كان يُصدّق كل ما أقوله له .

ولكن ذلك الإفلاس لم يكن وقعه مُفرحاً في منزلنا كما كان الأمر بالنسبة لي . فجأة أضحى السيد « أيسات » فظيعاً . عادةً هو رجل ذو طبع حاد ، عنيف وزائد عن اللزوم يهوى الزعيق والتكسير . ولكنه في الحقيقة رجل عظيم رُغم بعض العِلّات . : فهو يضرب دون أن يفكر ، يتكلم بصوت عالٍ ، ويشعر بحاجة مُلِحّة إلى فرض نفسه أو حتى فرض نوع من الرهبة على كل ما يحيطُ به . فالنحس الذي يُلاحقه عِوَض أن يقضي عليه أوغر صدره غيظاً . طيلة النهار كان عبارة عن كتلة من الغضب الهائل ، لا يدري على من يصبُّ غضبه ، مّما يجعله يتهجم على كل شيء : الشمس ، ، الريح الشمالية ، جاك ، العجوز « أنّو » ، الثورة ، آه ، وخصوصاً الثورة . . .

إذا سمعتم أبي يشتمُ الثورة ، ستُقسمون بأن تلك الثورة في سنة (. . .)١٨ التي أوصلتنا الى ما نحن عليه ، كانت مُوجهّة ضدّنا نحن بالذات . لذلك أرجوكم ان تصدّقوا أن الثوار لم يكونوا محبوبين في بيت « أيسات » ، الله وحده يعلم ما قلناه فيهم في ذلك الزمن . . . ولغاية اليوم عندما يشعر أبي العجوز « أيسات » (فليحفظهُ الله لي !) بقدوم عارض داء المفاصل ، يتمدّد بصعوبة على كرسيه الطّويل ونسمعه يقول : « آه ! هؤلاء

الثوّار ! . . . » .

في ذلك الزمن الذي أتكلم عنه لم يكن السيد « أيسات » مُصاباً بداء المفاصل ، والألم من جرّاء إفلاسه حوّله إلى رجل مُرعِب لا يستطيع أحد أن يكلّمه . فأصبح من الضروري سحب دم من عروقه مرتين خلال خمسة عشر يوماً . حولهُ سكت الجميع من الخوف . الى المائدة كنّا نطلب الخبز بصوت خافت . لم نكن نجرؤ حتى على البكاء أمامه . لذلك ما كان يبرح المكان حتى يبدأ البكاء في كل أنحاء المنزل ، الجميع يبكي : أمي ، العجوز « أنّو » ، أخي « جاك » ، وأيضاً الكاهن إذا حدث ان كان موجوداً . غنيٌ عن القول أن أمي كانت تبكي لأن السيد « أيسات » حزين وبائس ، الكاهن والعجوز « أنّو » يبكيان لمجرد رؤية السيدة « أيسات » تبكي . أما « جاك » فلم يكن يعي مآسينا لصغر سنه . كان أكبر مني بسنتين تقريباً ، وكان يبكي من حاجة . يبكي للتلذذ بالبكاء .

إن أخي «جاك» فريد من نوعه . انه يملك موهبة البكاء ! وكم أذكره وعيناه حمراوان وخدّه مبللاً بالدمع . مساءً كان أم صبحاً ، نهاراً أم ليلاً ، في الصف أو في المنزل أو في النزهة ، كان يبكي باستمرار واينما كان . وإذا سُئل : « ما بكِ ؟ » أجاب وهو يشهق بالبكاء : « لا شيء » . والغريب في الأمر انه لم يكن يشكو من شيء . يبكي غالباً كما نتمخّط ، هذا كل شيء . أحياناً كان يقول السيد « أيسات » لأمي وهو حانق : « هذا

الطفل سخيف ، أنظري اليه ! إنه نهر » . فكانت تجاوبه السيدة « أيسات » بصوتها الناعم : « ماذا نفعل يا صديقي ؟ ستزول هذه العادة مع الوقت ، في سنّه كنت مثله » . وبانتظار ذلك الوقت كان جاك يكبر ، وينمو بسرعة ، ومع ذلك لم يتخلَّ عن عادة البكاء . بل بالعكس فتلك القدُرة الفريدة التي كان يملكها هذا الصبي الغريب . ألا وهي ذرف وابلٍ من الدموع دون سبب ، تلك القدرة كانت تزداد يوماً بعد يوم . وهكذا فإن مُصيبة والدي غدت له فرصة ذهبية . . له بذرف الدموع على سجيّته أياماً بأكملها ، ودون أن يأتي أحد فيسأله : « ما بك ؟ » .

في النهاية ، افلاسنا ، من وجهة نظر معّينة ، كان يناسبنا أنا وأخي جاك . من ناحيتي كنت سعيداً جداً . لم يَعدُ يهتم بي أحد . فاستغلّيت الفرصة للّعبِ طول النهار مع روجيه في أرحاب المشاغل المُقفِرة والملاعَب الكبيرة المهجورة التي بدأ يغزوها العشب . هذا الفتى روجيه أبن البوّاب كولومب كان صبياً سميناً له من العمر إثنتا عشرة سنة ، قوياً كالجاموس ، مخلصاً كالكلب ، بسيطاً كإوزة ، يتميّز خاصة بشعره الأحمر الذي كان السبب في إعطائه لقب « روجيه » . ولكن يجب أن أوضح لكم أن روجيه لم يكن بالنسبة لي « روجيه » . لقد كان ، وطوراً بعد طور : خادمي المخلص «فاندرودي»[1] . قبيلة من المتوحشين ، بحارة متمرّدين ، وكلَّ ما نشاء .

أنا نفسي في ذلك الوقت لم أكن أُدعى « دانيال أيسات » : كنتُ ذلك الرجل الغريب الذي يرتدي جلد الحيوانات ، وأعني به السيد « كروزويه » ، فقد قرأت عن مُغامراتـه في الكتاب الذي حصلت عليه لتوّي . يا للجنون العذب ! في المساء وبعد العشاء ، كنت أقرأ من جديد كتاب « روبنسون » فأحفظه غيباً . وفي النهار أتقمص شخصيته وأتقن الدور فأمثله بعنفٍ وأُشرك كلّ ما يُحيط بي في مسرحيتي الهزلية . لم يَعُد المصنع مصنعاً ، لقد تحول جزيرة مُقفـرة ، آه ! كم هي مُقفِرة . والأحـواض أضحت محُيطاً . أما الحديقة فقد تحوّلت غـابة لم تُقـطع منها شجرة . أما مجموعة الزيزان الموجودة في أشجار الدِلْب فكان لها دور في المسرحية دون ان تدري .

وروجيه أيضاً لم يكن يعي أهمية الدور الذي يلعبه . لو سألناه عن شخصية « روبنسون » لكنّا أحرجناه . ولكن عليّ أن أعترف بأنه يلعب دوره باقتناع تام ، وليس له مثيل عندما يُقلّد زئير المتوحشين . أين تعلم ذلك ؟ لا أعلم . كان دوماً ، وهو يحُرّك ذُؤابتِهِ الكثيفة الحمراء ، يخُرج زئيراً وحشيـاً ومدْوِيـاً . يرتجفُ منه الشجعان . حتى أنا « روبنسـون » كنت أضطرب أحياناً فأُرغم على أن أقول له بصوتٍ خافتٍ : روجيه خفّف من زئيرك إنك تخُيفني » .

لســوء الحظ ، لئن كـان روجيــه يُقلّد جيــداً صــوت

المتوحشين ، فإنه أيضاً بارع في استعمال الكلمات البذيئة الخاصة بأولاد الأزقة وبارعاً في التجديف ، وأنا ألعب ، أصبحت أقلّده . ذات يوم ، وبينما كنّا جالسين الى المائدة ، تفوَّهت دون أن أدري بشتيمة فظيعة . ذهول عام ! « من علّمك هذا ؟ أين تعلّمته ؟ » كان حَدَثاً خطيراً .

فأقترح السيد « أيسات » مباشرةً وضعي في إصلاحية ، أما الكاهن فقال انه قبل كل شيء يجب إرسالي الى كرسي الإعتراف بما انني اصبحت مُدركاً . إقْتُدْتُ للإعتراف . يا للمُشكلة ! وَجَبَ عليَّ أن ألمِمَ ، من كل زوايا ضميري ، مجموعة من الخطايا القديمة المُتكدِّسة منذ سبع سنوات . لم أغفُ طيلة ليلتين بسبب تلك الخطايا اللعّينة والتي تملأ سلّة . لقد أبرزت أولاً الخفيفة منها ، لكن الأمر سيَّان ، فالخطايا الأخرى ظاهرةً للعيان ، وعندما جثيت على رُكبتيَّ في الخزانة الصغيرة المصنوعة من خشب السنديان ، وأدركتُ انني سأضطرُ إلى إطلاع كاهن « ريكولليّه » على كل ذلك ، حسبتني سأموت من الخوف والخجل .

انتهى الأمر . لم أعُد أرغب باللعب مع روجيه . بتُّ أعرف أن الشيطان يجول دوماً حولنا كأسد يبحث عمَّن يلتهمه ، هذا ما جاء على لسان القديس بولس وكاهن « ريكولّليه » ردَّده لي . آه ! كم أثّرت فيَّ تلك الجملة اللاتينية « quœrens quem

«devoret» بثُّ أعلم أيضاً أن «لوسيفارس» هو صاحب دسيسة يتخّذ وجوهاً عدة ليُجرِّب الانسان . لن يُثنيني أحد عن اعتقادي أن الشيطان قد اختبأ في جلد روجيه لكي يُعلِّمني لعن إسم الله . وهكذا ، عندما دخلت المصنع ، أوّل عمل قمت به كان تنبيه « فاندرودي » إلى أنه من الآن فصاعداً عليه أن يلازم منزله . يا « لفاندرودي » المنكود الحظ ! . هذا القرار أشقاه كثيراً ، ولكنّه نفذّه دون تذمّرُ . أحياناً كنت أراه واقفاً أمام باب المنزل ، من جهة المشاغل ، والحزن بادٍ عليه .، وعندما يراني أنظر إليه ، ولكي يرق قلبي ، يترك العنان لزمجْرَات مُرعبة . وهو يّحرك ذؤابته الحمراء اللمّاعة . ولكن كان كلما ازداد زئيراً ازددتُ عنه ابتعاداً .

كنت أرى انه يشبه ذاك الأسد النَّهم ، فأصرخ قائلاً : « إغرب عن وجهي » ! انني أمقتُك » .

وبرغم موقفتي هذا ، أصرّ روجيه بعناد على الزئير أياماً ؛ ولكن في صبيحة يوم ، انزعج والده من تلك الزمجرات في المنزل ، فأرسله ليزأر في مكان آخر ، ولم أعُد أراه .

هِيامي « بروبنسون » بات على حاله . في تلك الآونة بالذات ، أنِف العم « باتيست » من بُبّغائِهِ فأعطاني إياه . ذاك الببَّغاء قام مقام « فاندرودي » . وضعته في قفص جميل في مقرِّي الشتوي . وها أنذا « كروزوي » أكثر من ذي قبل ، أُمضي

أيامي مُخْتلياً مع ذاك الطيّر الشَّيق ومحاولاً تلقينه الجملة التالية : « روبنسون ، يا روبنسون المسكين !» . لكن هذا الببغاء الذي أعطاني إياه العم « باتيست » ليتخلَّص من ثرثرته الدائمة ، منذ أن أُعطي لي أبى أن يتفوَّه بأي كلمة . . . لم أتوصَّل قط الى حثِّه على الكلام . رغم ذلك أحببته كثيراً وأوْليته عناية فائقة . وهكذا كُنّا ، البّبغاء ، وأنا ، نعيش في عزلة صارمة . وذات صباح ، واجهت حادثة بالفعل غريبة . في ذلك اليوم خرجت من كوخي باكراً ، بداعي رحلة استكشافية في أرجاء جزيرتي ، وكنت مُدجَّجاً بالسلاح . فجأة رأيت مجموعة من ثلاثة أو أربعة اشخاص مقبلين نحوي وهم يتكلّمون بصوت عالٍ جداً ، مُصْحِبين كلامهم بحركات كثيرة . يا إلهي ! رجال في جزيرتي ! فأرتدَّيت جانباً وانبطحت في الوقت المناسب وراء باقة من العَضل . . . فمرَّ الرجال بجانبي دون أن يروني . . . تهيأ لي سماع صوت البوّاب «كولومب » ، فأطمأنَّيتُ نوعاً ما . ولكن الأمر سيَّان ، ما إن أصبحوا بعيداً عني ، حتى تركت مخبأي وتَبِعتَهُم عن بُعْد لأتبينَّ النهاية .

بقي هؤلاء الغرباء طويلاً في جزيرتي ، وزاروها بأكملها مُدقِّقين في جميع تفاصيلها . رأيتهم يدخلون الى مغاوري ويسبرون أعماق مُحيطاتي بعُصِيِّهم . ويتوقّفون من وقت الى آخر ويطأطئون رؤوسهم . ما كنت أخشاه هو أن يكتشفوا مَقرَّ سكني . . . إلهي ! ماذا كان سيحلُّ بي . لحسن الحظ لم يحصل

شيء ، وبعد مضيٍّ نصف ساعة إنسحبوا دون أن يشكوُّا بأن الجزيرة مسكونة . فور ذهابهم ، ركضتُ واختبأت في أحد الأكواخ التي أملكها ، وامضيت ما تبقَّى من النهار أتساءل من هم هؤلاء الرجال ، ولماذا جاؤ وا . . .

تلك التساؤلات ما لبثتُ أن حصلتُ على جواب لها . في المساء وعلى العشاء أنبأنا السيد « أيسات » بأُبهَّةٍ ، انه باع المصنع . وانه خلال شهر سننتقل كلّنا إلى « ليون » حيث سنسكن من الآن فصاعداً .

وقْعُ ذلك النبأ عليَّ كان فظيعاً ، فتهيأ لي أن السَّماء انهارت على رؤ وسنا . بِيْعَ المصنع ! . . . ولكن ماذا سيَحُل بجزيرتي ، بكهوفي وبأكواخي ؟ .

للأسف ، الجزيرة ، الكهوف ، الأكواخ ، باع السيد « أيسات » كل شيء . توجَّب ترك كل شيء . إلهي كم بكيت ! . . .

طيلة شهر ، وبينما كانوا يحزمون المرايا ، وآنيات المطبخ ، كنت أنا أتمشى وحيداً وحزيناً في مصنعي الغالي . لم أعْدُ أرغب في اللعب ، وكيف لي أن ألعب ! . . . كنت أجلس في جميع الزوايا ، أنظر إلى الأشياء من حولي وأتكلّم معها كما لو كانت بشراً . وأقول لأشجار الدلْب : « الوداع يا أصدقائي الأعزّاء »

وللأحواض أقول : « إنتهى الأمر لن نتلاقى بعد اليوم » . أما شجرة الرّمان المنتصبة في قصاء الحديقة فقد كانت أزهارها الجميلة الحمراء تتفتّح تحت أشعة الشمس ، فقلت لها ، وأنا أشهق بالبكاء : « إعطيني إحدى أزهارك » فَفَعَلَتْ . وضعت الزهرة في صدري كتذكارٍ من شجرة الرُمّان . كنت تعيساً جداً .

ومع ذلك ، وبرغم الألم الكبير الذي يحيطُ بي ، هنالك شيئان أدخلا الفرحة الى قلبي : أولاً فكرة الصعود الى سفينة ، ثم الإذن الذي حصلتُ عليه بأخذ بُبّغائي معي . فقلت في سرّي أن « روبنسون » قد ترك جزيرته في ظروف شبيهة تقريباً بالتي أمرّ بها ، وهذه الفكرة كانت تشجّعني على المثابرة .

وأخيراً جاء يوم الرحيل . السيد « أيسات » سَبَقنا إلى « ليون » منذ أسبوع ، آخذاً معه قطع الأثاث الضخمة . وهكذا سافرت بمعيَّة جاك ، أمي والعجوز « انّو » . الكاهن لم يُسافر ولكنّه رافقنا لغاية عربة المسافرين في « بوكار » ، وذهب معنا أيضاً البوّاب « كولومب » الذي مشى أمامنا وهو يجر عربة ضخمة ، مُحمَّلة بصناديق أمتعة . وراء البوّاب كان الكاهن يُساعد السيّدة « أيسات » في التنقّل .

يا للكاهن المسكين الذي قُدِّر لي أن لا أراه البتّة منذ ذلك اليوم . ومشت العجوز « أنّو » خلفهم وهي تحمل مِظلّة ضخمة

زرقاء ، ويرافقها « جاك » الذي كان يبكي رغم سروره بالذهاب إلى « ليون » . . . وأخيراً يأتي « دانيال أيسات » في نهاية الموكب وهو يحمل بوِقار قفص الببّغاء ويتلفت عند كل خطوة الى مصنعه العزيز .

كلّما ابتعدت القافلة كانتِ شجرة الرّمان تطل بكل قوتها فوق الحائط لكي تراها مرة أُخرى . . . وأشجار الدلْب تلوح بأغصانها مودِّعةً « أما « دانيال أيسات » فمِنْ فرطِ تأثّره بعث بقُبُلاتِهِ للجميع خفية وعلى طَرَفِ أنامله .

تركت جزيرتي في ٣٠ أيلول سنة . . . ١٨ .

II

الصراصير

آه من ذكريات طفولتي أيِ انطباعٍ حفرته في قلبي! تلك الرحلة على نهر «الرون»، يتهيأُ لي انني قمتُ بها البارحة. ما ازال أذكر الباخرة، رُكابها وطاقمها، وأسمع صوت عجلاتها

ودويّ صفّارتها. كان القبطان يدعى «جانياس»، أما رئيس الطباخين فأسمه «مونتليمار» هكذا ذكريات لا ينساها المرء.

استغرقت الرحلة في البحر ثلاثة أيام . قضيت تلك الأيام الثلاثة على جسر السفينة فلا أنزل إلى القاعة إلّا للأكل والنوم . وما تبقىّ من الوقت أمضيته في أقصى السفينة قرب المرساة . في ذلك المكان كان جرس كبير يُقرَعُ عند الإقتراب من المُدنُ . طالما جلست قربه وسط كومةٍ من الحبال ، واضعاً قفص الببّغاء بين قدمي ، وناظراً إلى ما يدور حولي . كان نهر « الرون » عريضاً جداً فيصعبُ علينا رؤية ضفافِهِ . أما أنا فكنت أودُّ أن يصبح أكثر اتساعاً وأن يُدعى : « البحر . السماء ضاحكةٌ والموج مخضوضر. قوارب كبيرة تنساب حسْبَ جريان الماء . فلّاحون يشطؤون النهر وهم يمتطون بغالهم فيمرّون بجانبنا وهم ينشدون . أحياناً تمرّ الباخرة بمحاذاة ضفّةِ جزيرة كثيفة يُغطيّها القصب والصفصاف ، فأقول في سرِّي : آه ، إنها جزيرة مُقفرة ! » وأنظر إليها برغبة عارمة . . .

في نهاية اليوم الثالث اعتقدت ان الريح ستهب . فجأة أظلمت السماء وتمايل على النهر ضباب كثيف . أُشْعِلَ مصباحٌ في مقدّمة السفينة ، ولَعَمري أمام تلك الدلائل ابتدأت أتأثر . . . وفي تلك اللحظة قال شخص قربي : « ها هي ليون ! » . . وفي الوقت نفسه قُرِع الجرس الكبير . إنها فعلاً مدينة ليون . رأيتُ

باضطراب بين طيّات الضباب أضواءً تلمع على كلتا الضفّتين تنحني وتبصقُ سيولاً من الدخان الأسود الذي يحثُّ على السعال . . . فعمّت الباخرة بلبلة فظيعة . الركّاب يبحثون عن حقائبهم ، والبحّارة يشتمون في الظُلمة وهم يُدحرجون براميل . كان المطر ينهمر . . .

وأسرعت للإنضمام الى والدتي ، وجاك والعجوز أنوّ ، الذين كانوا في الطرف المقابل من السفينة ، وها نحن الأربعة مُلتصقون ببعضنا البعض تحت مِظلّة أنّو الكبيرة ، بينما السفينة تصطفُّ في محاذاة رصيف النهر . وبدأ الترجل .

في الحقيقة لو أن السيد « أيسات » لم يأتِ لإنقاذنا ، كنّا ما زلنا على متن السفينة . أقبل نحونا مِتلمّساً طريقه وهو يصرخ : « من هناكَ ! من هناك ! » عند سماعنا تلك الكلمات التي نعرفها جيداً أجبنا : « رفاق » ، أجبنا جميعنا وفي وقت واحد بسعادة وانفراج لا يمكن التعبير عنهما . . .

قبّلنا السيد أيسات بخفّة ، أمسك أخي بيده وباليد الأخرى أمسك بيدي ، ثم قال للمرأتين : « هيّا » ومشى . آه ! بالحق كان رجلاً . . . .

كنّا نتقدّم بصعوبة ، فالليل قد حلّ والجسر زلِق . عند كل خطوة كنّا نصطدم بصناديق . . . فجأة ومن أقصى السفينة أطرق

سمعنا صوت حاد وكريه وحزين يقول : « روبنسون ! روبنسون ! » .

فصرخت قائلاً : « يا إلهي ! » وأنا أحاول أن أُفلِت يدي التي يُمسكها أبي وهو بدوره تمسَّك بي جيداً مُعتقداً انني زلْقِتُ .

ومن جديد سمعت الصوت وقد أضحى أشدّ حدّةً وكآبة : وهو يقول : « روبنسون ! يا روبنسون المسكين ! » وبذلت مجهوداً جديداً لكي أُفلتَ يدي ، فصرخت « بُبّغائي ، بُبّغائي ! » .

ـ فقال « جاك » : « وهل صار يحكي ؟ » .

« يحكي ؟ بكل تأكيد . إن صوته يُسمع على بعد ثلاثة أميال . لشدّة اضطرابي نسيته هناك في أقصى السفينة قرب المرساة . ، إنه يناديني من ذلك المكان ، وهو يصرخ بكل ما أُوتي من قوة ؛ « يا روبنسون المسكين ! » .

للأسف كنّا قد ابتعدنا والقبطان كان يصرخ : « فلْنُسرِعْ » .

ـ قال السيد أيسات : سنأتي غداً لاسترجاعه ، لا يضيع شيء على متنِ السفن .

وعندها ، رُغم دموعي ، إقتادني إلى المنزل .

المسكين ! ذهبنا في اليوم التالي لجلْبِهِ فلم نجده . . هل تستطيعون أن تدركوا مدى يأسي ؟ ، إختفى « فاندرودي » ! إختفى الببّغاء ! لم يَعُد في وسعي أن ألعب دور « روبنسون » . وعلى كل حال ، ولو تسلح المرء بأقوى إرادة في العالم ، من

المستحيل عليه ان يصنع جزيرة مُقفرة في الطابق الرابع، وفي منزل وسخٍ ورطب في شارع « لانتارن » .

يا له من منزل كريه ! لن أنساه ما دمتُ حياً : السَّلالم دبقة ، الباحة شبيهة ببئر ، البوّاب سكّاف وحانوته بالقرب من المضخَّة . . . كل شيء كان مُقرفاً . . .

ليلة وصولنا ، وبينما كانت العجوز « أنوّ » تستقرُّ في مطبخها ، اطلقت صرخة ذعر : « الصّراصير ! الصّراصير ! » .

فهرعنا لنرى ما حصل . يا له من مشهد ! . . . المطبخ مليء بتلك الحيوانات اللّعينة ، فهي في كل مكان : على الطاولة ، في محاذاة الجدران ، في الجوارير ، على المَدْخنة ، وفي خزانة الطعام . كنّا نسحق العديد منها دون أن نقصد . أُفٍّ ! لقد قتلت العجوز « أنّو » قسمًا كبيراً منها ، ولكن كُلّما قتلت ، ازداد عددها . كانت تأتي من بالوعة المطبخ ، فأغلَقْناها . ولكن عشية اليوم التالي رجعت تلك الحشرات ومن مكانٍ آخر ، ولا ندري مِن أين ، فأتينا بهرٍ عمداً ليقتلها ، وكل ليلة كانت تتكرَّر في المطبخ مجزرة رهيبة .

تلك الصَّراصير جعلتني أكره ليون منذ الليلة الأولى . في اليوم التالي أصبح الحال أسوأ ، توجَّب علينا أن نتَّخذ عادات جديدة ، تغيَّرت مواعيد الوجبات اليومية . . والخبز شكله مختلف عن الذي كنا نأكله . هنا يسمون الرغيف « اكليلاً » يا له من إسم !

وعندما تـذهب العجوز أنـوّ عند القصّـابين وتـطلب لحمًا للشواء ، يسخرُ اللحَّام منها . إنه لا يعلم شيئاً عن ذلك النوع من اللحم ، هذا المتوحش ! . . . آه كم أصابني الضجر . .

يوم الأحد ، ولكي نمرح قليلاً ، كانت تذهب العائلة في نزهةٍ على أرصفة « الرون» ، وكل فردٍ يحمل مِظلّة . كنا نتوجَّه دائمًا ولاشعورياً نحو الجنوب ، ومن جهة « برّاش » ، إذ ذاك ، كانت تقول أمي التي استحوذ عليها اَلمَلَلْ أكثر مني : « يتخيَّلُ لي أن ذلك يُقرّبني ثانية من البلد » .

تلك النزهات العائلية كانت محُزنة . السيد أيسات يؤنِّب ، جاك يبكي باستمرار ، وأنا أبقى دوماً في الخلف ، لا أدري لماذا ، لا شك إنّني كنت أخجل من الظهور في الشارع لكوننا فقراء . وبعد مرور شهر مرضت العجوز أنوّ ، وبسبب الضباب الذي يُضنيها ، توجَّب إرسالها إلى الجنوب ، تلك الفتاة المسكينة كانت تحبُّ والدتي بشغف ، وتأبى أن تتركنا ، توسَّلت إلينا كي نحتفظ بها وهي تعِدُ وعداً قاطعاً بأن لا تموت . وأضطررنا ، لترحيلها ، وإلى وضعها بالقوّة في المركب . وعند وصولها الى الجنوب ، ومن فرط يأسها . . . تزوجت. . .

بعد ذهاب أنوّ لم نأتِ بخادمةٍ جديدة ، بالنسبة لي كان ذلك الوضع الجديد مُنتهى الشّقاء . . . . زوجة البوّاب كانت تأتي وتقوم بالأعمال المهمة ، أما والدتي فتتحرق بنار الفرن يديها الجميلتين البيضاء التي كنت أرغب تقبيلهما بشدَّة . بالنسبة للمؤن

فإن جاك هو الذي كان يشتريها . نضع سلَّة كبيرة في يده ونقول له : « ستشتري كذا وكذا » فيشتري ما طلبناه دون أن يخطىء ، وهو يبكي باستمرار .

المسكين جاك ! هو أيضاً لم يكُن سعيداً . بما أنَّ الدمعة كانت دوماً في عينيه ، فإن السيد أيسات نَفَرَ منه ، وأصبح دوماً يصفعُهُ . . . كُنَّا نسمع طوال النهار : « جاك ، أنت بليد ! » جاك ، أنت حمارٌ ! » . المسألة هي كالآتي . عندما يكون والده حاضراً فإن المسكين جاك يفقدُ كلّ قرائحه . فالمجهود الذي يقوم به لكي لا يبكي يُقبِّحه . السيد أيسات هو شؤم عليه . إسمعوا قصة الإبريق :

في إحدى الأمسيات وبينما كنّا نهمّ بالجلوس على الطاولة ، لاحظنا إنّه لم يعدُ في المنزل نقطة ماء .

قال جاك ، هذا الفتى الطيِّب : « إذا أردتم ، أذهب وآتي بالماء » .

ها هو يأخذ الإبريق ، إبريق كبير مصنوع من حجر رملي .

رفع السيد أيسات كتفيه قائلاً :

ـ إذا كان جاك هو الذي سيأتي بالماء ، أكيد سينكسر الإبريق .

قالت السيدة أيسات بصوتها الهادىء :

ـ هل تسمع يا جاك ؟ هل تسمع ؟ كن حذراً ولا تكسره .

فقال السيد أيسات من جديد :

ـ آه ! مهما قلت له أن لا يكسره ، فإنه مع ذلك سيكسره .

عند ذلك ، قال جاك بصوت حزين :

ـ ولكن لماذا تريد أن أكسره ؟

أجاب السيد أيسات بنبرةٍ لا تقبل أي اعتراض :

ـ لا أريد أن تكسره ولكنّي أقول لك أنّك ستكسره.

لم يُبدِ جاك أي تعليق ، أخذ الأبريق بيد مُرتجفة وخرج فجأة وكأنه يقول :

ـ آه ! سأكسره ؟ حسناً ، سنرى .

مَضَتْ خمس دقائق ، ثم عشر دقائق ، وجاك لم يَعُد. فَقَلِقَتْ السيدة أيسات .

ـ المهم أن لا يمسّه سوء ! » .

قال السيد أيسات بصوتٍ فظ :

ـ اللّعنة ! ماذا تريدين أن يحصل له ؟ . لقد كسر الإبريق ولا يجرؤ على العودة .

ولكن فيما يقول ذلك قام وذهب يفتح الباب ليرى ماذا حلّ بجاك ـ رُغم هيئته الفظة ، كان أفضل رجل في العالم . ولم يكن عليه أن يذهب بعيداً : فجاك واقف على سطح الدرج ، أمام الباب ، يداه فارغتان ، صامت ومتحجّر . عندما رأى السيد أيسات إصفرّ وقال بصوتٍ مُحْزَنٍ وضعيف ، آه ! ضعيف جداً

ـ لقد كسرته . . .

لقد كَسَرَهُ ! . . .

في سجلّات منزل أيسات ندعو تلك الحادثة : « حادثة الإبريق » .

بعد شهرين تقريباً من وصولنا الى ليون ، فكرٌ والدانا في مسألة دروسنا . كان في ود أبي أن يضعنا في المدرسة، ولكن أقساطها مُرتفعة . قالت السيدة أيسات : « ماذا لو أرسلناهما الى مدرسة الكنيسة ؟ الظاهر أن الأولاد يشعرون بالراحة هناك » . أعجبت تلك الفكرة أبي ، وبما أن كنيسة القديس « نيزيه » كانت الأقرب ، أُرْسلنا إلى مدرسة القديس « نيزيه » .

كم كنَّا نمرح هناك ! عِوَضَ أن نَحْشُوَ رأسنا باليونانية واللاتينية ، كما هي الحال في المؤسسات الأخرى ، كنا نتعلّم خدمة القدّاس في جميع نواحيها : التراتيل ، الركوع ، التَّبخير بصورة لائقة ، وذلك كان صعباً جداً . كنَّا نكرّس بضع ساعات في النهار للتصريف والكتاب المقدّس ، ولكن تلك الساعات كانت هامشية . وظيفتنا الأهم هي خدمة الكنيسة . أما الكاهن « ميكو » فكان يقول لنا بعظمة ، وخلال الاستراحة : « غداً أيها السادة ، أُلغِيَ الصف الصباحي ، علينا أن نقوم بدفْنٍ » . كان ذلك يحدث مرّة على الأقل في الأسبوع .

فنذهب إلى الدفْن . يا للسعادة ! وتتكرر سلسلة العمادات ،

الأعراس . زيارات المطران ، والمناولات الأخيرة للمُرضى . آه ! كم كنّا فخورين بمرافقة الكاهن في المناولة الأخيرة ! . . . .

تحت سُرادِق من المخمل الأحمر يمشي الكاهن وهو يحمل القربان والزيوت المقدّسة ، طفلان من الكورس يمسكان بالسُرادِق ، وآخران يواكبانه وفي أيديهما مصابيح كبيرة مُذهَّبة . وطفل خامس يمشي في المقدمة وهو يحرِّك ناقوساً من الخشب . عادة ، تلك كانت وظيفتي . . . عندما يمر هذا الموكب يخلع الرجال قُبَّعاتهم وترسم النساء إشارة الصليب . عندما نمر أمام مركز للبريد يصرخ الحارس : « قدِّموا السلاح ! » . فيهرع الجنود ويصطفّون ، عندها يقول الضابط : « أجْثوا ! قدّموا السلاح ! » . فتتصادم البنادق ، ويُقرع الطبل في الحقول . فألوِّح بناقوسي ثلاث مرات ، كما أفعل عادة خلال الترنيمة الموجَّهة إلى الله ، وبعد ذلك نكمل طريقنا ، كنّا نلهو كثيراً في تلك المدرسة .

كل واحد منّا لديه في خزانة صغيرة لباس كهنوتي كامل : ثوب كاهن أسود مع ذيل طويل ، ثوب أبيض طويل من الكتّان ، قميص أبيض ذو أكمام كبيرة صَلبة لأنها وُضِعَتْ في محلول النشاء ، جوارب من الحرير الأسود ، كُمّتان إحداهما من الجوخ والأخرى من المخمل ، وياقات مُطرَّزة بلآلىء صغيرة بيضاء ، كان معنا كلّ ما يلزم .

يبدو انني كنت أبدو لائقاً في ذلك الزِّي ، فتقول السيدة أيسات : « انه ظريف جداً في هذا اللباس » . لسوء الحظ كنت

قصير القامة ، وذلك كان من دواعي قنوطي . تصوَّروا انه حتى عندما كنت أقف على رؤوس أصابعي لم أكن ارتفع بتاتاً عن مستوى الجوارب البيضاء التي يرتديها السيد «كادوف» ، ذاك السويسري . وكم كنت نحيلاً ! مرّة في القدّاس ، وبينما كنت أنقل الإنجيل من مكانه ، اوقعني الكتاب الكبير ، أرضاً ، فوجدتُّ نفسي مُستلقياً على سُلَّم المذبح . إنكسر المِقْرأ ، فتوقَّفت الصّلاة . كان يوم العنصرة . يا للفضيحة ! . . . باستثناء تلك المساوىء العابرة التي سببها قِصْر قامتي ، كنتُ سعيداً جداً بقدري . وغالباً في المساء ، عندما نذهب الى النوم جاك وأنا ، كنَّا نقول بعضنا للآخر : « إجمالاً ، مدرسة الكنيسة مُسلِّية جداً » .

لسوء الحظ ، لم نمكث في تلك المدرسة طويلاً . صديقٌ للعائلة ، ورئيس جامعة في الجنوب ، كَتَبَ يوماً إلى أبي يقول انه إذا أراد منحة تعليم لأحد أولاده في مدرسة « ليون » فهو يستطيع توفيرها له .

ـ قال السيد أيسات :

ـ ستكون تلك المنحة من نصيب دانيال .

ـ فقالت أمي :

ـ ـ وجاك ؟

ـ آه ! جاك ! سأبقيه بجانبي . سأحتاج إليه . على كل حال ، لاحظت انه يستسيغ التجارة . سنجعل منه تاجراً .

حقاً لا أعرف كيف ان السيد أيسات ، لاحظ أن جاك يستسيغ التجارة . في ذلك الوقت ، كان الفتى المسكين لا يهوى إلا الدموع ، ولو استُشير . . . ولكن لم يستشره أحد ، ولا أنا .

ما استرعى انتباهي في البداية ، لدى وصولي الى المدرسة ، هو انني كنت الوحيد الذي يرتدي قميصاً . في « ليون » أولاد الأغنياء لا يرتدون القمصان ، عكس أطفال الشارع ، أو كما يُقال « الغون » . أنا ، كنت أرتدي قميصاً « صغيرة » ذات مُربَّعات هي عندي منذ كنَّا نملك المصنع . ألبس القميص ، فأبدو « كغون » . . . عندما دخلت الى الصف سَخِر مني التلامذة بقولهم : « غريب ! إنه يرتدي قميصاً ! » . فأظهر الاستاذ استياءه وفي الحال كرِهَني . ومنذ ذلك الحين ، لم يَعُدْ يخاطبني إلاَّ بترفُّع واحتقار . لم يدعني مرة واحدة بأسمي ، بل كان يقول دوماً : « أنت ، هناك ، الشيء الصغير ! » . مع العلم انني قلت له ، ما يفوق العشرين مرة ، إنني أُدعى دانيال أيسات . . . وفي النهاية لقَّبني أصحابي بـ « الشيء الصغير » . وهكذا بقي الَّلقب . . .

لم تكن القميص الفارق الوحيد بيني وبين الأطفال الآخرين . الآخرون كانوا يملكون شنطاً جميلةً مصنوعةً من الجلد الأصفر ، ومحابِر من البقْس رائحتها طيبة ، دفاتر مُغلَّفة بالكرتون ، كتباً جديدة مُذَّيلة بعدد كبير من الملاحظات . أما أنا فكتبي اشتريتها عن الأرْصفة مُعفَّنة ، كامِدة تفوح منها الترهمة ، الغلافات أشبه بخِرَق ، وأحياناً تنقصها صفحات . كان جاك يفعل كل ما في

وسعه ليُلصق تلك الكتب باستعماله كرتوناً سميكاً وغراءً متيناً . ولكنه يضع دائماً الغراء بغزارة شديدة فتفوح رائحة كريهة . وصنع لي أيضاً محفظةً مع عدد لا يُحْصى من الجيوب ، محفظة سهلة الإستعمال ، ولكن الغِراء كان فائضاً بصورة مُستمرّة .

وحاجة جاك الى الإلصاق والتغليف بالكرتون أصبحت ولعاً مُفرطاً وشبيهاً بحاجته الى البكاء . كان يضع دوماً قُبالَةَ النار كومة من مجامِع الغراء الصغيرة ، وحالَما يتوصّل إلى ترك المخزن وإن للحظة ، يتفرَّغ الى هوايته : فيُلصِق ، يُجلِّد ، ويُغلِّف بالكرتون . أمّا في ما تبقى من الوقت ، فيُسلِّم رزماً في المدينة ، يُمْلِي رسائل ، ويشتري ما يلزم من مُؤَن ، بكلمة : كان يتعاطى التجارة .

أما بالنسبة لي فقد فهمت أن الطالب الذي يُحصِّل علومه بفضل مِنْحة ، ويرتدي قميصاً ويُدعى « الشيء الصغير » ، عليه ان يعمل مرّتين أكثر من الآخرين ليُعادلهم . وللحق واظب « الشيء الصغير » على عملِهِ بكل شجاعة .

كم أنت شجاع أيها الشيء الصغير ! أراه في الشتاء ، في غرفتِهِ غير المُدفَّأة ، جالساً وراء طاولة عمله ورجلاه ملفعتان بغطاء . الجليد يطرق زجاج النوافذ . في المخزن نسمع السيد أيسات يُملي على جاك بقوله :

ـ تسلمت إيصالك الذي يرجع إلى اليوم الثامن من الشهر الجاري .

فيُعيد صوت جاك البكّاء :

ـ تسلمت إيصالك الذي يرجع إلى اليوم الثامن من الشهر الجاري .

من وقت إلى آخر يُفتح باب الغرفة على مهل ، فتطلُّ السيدة أيسات . وتقترب على رؤوس أصابعها من « الشيء الصغير » . صَهْ ! . . .

تقول له بصوت خافتٍ :

ـ هل تعمل ؟

ـ أجل يا أمي .

ـ ألا تشعر بالبرد ؟

ـ آه ، لا !

الشيء الصغير يكذب . فالبرد قد نَخَر عظامه . عندها تجلس السيدة أيسات بقربه وهي تحمل كنْزَتها ، وتبقى في هذا المكان ساعات وهي تُحصي العُقد بصوته خافت ، وتتنهد بعمق من وقت إلى آخر .

كم هي مسكينة السيدة أيسات ! فهي تُفكِّر دوماً . في مسقط رأسها العزيز والذي يئِست من رؤيته مرةً ثانية . . . للأسف ! ولسوء حظّها ولسوء حظّنا جميعاً سوف تراه قريباً . . . .

III

لقد مات ! صلوا لأجله

كان ذلك يوم الاثنين من شهر تموز .

في ذلك اليوم ، عندما خرجتُ من المدرسة أقنعني رفاقي باللّعب معهم بالعِصّي . وعندما قرّرتُ الرجوع الى المنزل كان الوقت قد أصبح مُتأخراً وأكثر مّما توقّعت . من ساحة « ترّو » الى شارع « لانتارن » ركضتُ دون أن أتوقّف ، كُتبي مُعلّقة بحزامي وقبّعتي أُمسكُ بها بأسناني . ولكن بما انني كنت أخشى أبي بطريقة مهيبة فإنني استعدتُ انفاسي لدقيقة قبل أن أصعد ، الوقت الكافي لتأليف قُصّة أُبرّرُ بها غيابي . عندها طرقت الباب بشجاعة .

جاء السيد أيسات بنفسه وفتح الباب . قال لي : « كم أنت مُتأخّر ! » فهممتُ بسردِ أكذوبتي وأنا أرتجف ؛ ولكن الرجل العزيز لم يَدَعْني أُكمل بل جَذَبَني نحو صدره وقبّلني مُطوّلاً وبصمت .

هذا الإستقبال أدهشني ، ذلك انني كنت أتوقّع بأقل تعديل أن أؤنَّب بعنف . إعتقدت للوهلة الأولى أن كاهن « سان نيزيه » يتناول العشاء عندنا . أعرف بالخبرة انه في أيام كهذه لا نُؤَنَّب

بتاتاً . ولكن عند دخولي غرفة الطعام أدركت في الحال اني اخطأت في تكهُّناتي . على الطاولة صحنان فقط ، صحن أبي وصحني .

ـ فسألته مُتعجبًّاً :

ـ وأمي ؟ وجاك ؟

أجابني السيد أيسات بصوت ناعم غير مألوف لديه :

ـ ـ والدتك وجاك ذهبا . إسمعني يا دانيال : اخوك الكاهن مريضٌ جداً .

ثم عندما رأى انني أصبحتُ شاحباً أضاف بفرح تقريباً وليُطمئِنَني :

ـ عندما أقول مريضٌ جداً ، إنها مُجُرَّد طريقة في الكلام : قِيلَ لنا أن الكاهن طريح الفراش ، وأنت أدرى بوالدتك ، أرادت الذهاب فأرسلت معها جاك ليُرافقها . . . إجمالاً ، ليس هناك خطر ! . . . والآن إجلس هنا لنأكل ؛ أكاد أموت من الجوع .

جلستُ إلى الطاولة دون أن أتفوّه بكلمة ، ولكن مُجُرَّد التفكير في أن الكاهن العزيز مريض جداً جعل قلبي مُنقبضاً ووجدتُ صعوبة فائقة في حبس دموعي .

تناولنا العشاء بحزن ، الواحد قُبَالَةَ الآخر ودون أن نتكلَّم . كان السيد أيسات يأكل بسرعة ويشرب كميات كبيرة ثم يتوقَّف فجأةً ويبدأ في التفكير . . . أما أنا فكنت جالساً على طرفِ المائدة ساكناً ومنذهلاً ، أتذكَّرُ القُصص الجميلة التي كان يرويها لي

الكاهن عندما يأتي إلى المصنع . لا زلت أراه تماماً وهو يرفع بشجاعة ثوبه الكهنوتي ليعْبُرَ الأحواض . أتذكَّرُ أيضاً أول قداس له ، ذلك اليوم كانت العائلة بأجمعها حاضرة . كم كان جميلاً عندما يستدير نحونا ، فاتحاً ذراعيه ، وهو يرتِّل بصوت ناعمٍ لدرجة أن السيدة أيسات كانت تبكي من الفرح ! . . . . الآن ، أتخيلُّه هناك : مُستلقياً ، ومريضاً (آه ! مريضاً جداً ، أشعرُ بذلك) . . وما كان يُزيد من حزني لمعرفته على تلك الحال ، هو سماع صوت يصرخ في أعماقي ويقول : « الله يُعاقبك ، الذنب ذنبك ! كان عليك أن ترجع مُباشرةً إلى المنزل ! كان عليك أن لا تكذب ! » . تملّكت مني تلك الفكرة المُرْعِبة بأن الله لكي يُعاقبني سيُميتُ الكاهن ، ممّا حداني على اليأس . قلت في سرِّي : « لا ، لن ألعب أبداً بعد اليوم ، بالعِصّي عند خروجي من المدرسة » .

عند انتهاء العشاء أشعلنا القنديل وابتدأت الأمسية . وعلى غطاء الطاولة وبين فُتات الطعام ، وضع السيد أيسات كُتبه الكبيرة المتعلّقة بالتجارة وبدأ يجري حساباته بصوتٍ عالٍ : « فينه » الهر صيّاد الصراصير ، يموءُ بحزن وهو يجول حول الطاولة . . أما أنا ، فقد فتحت النافذة وأتّكأت على حافتها . . .

وحلَّ الليل ، وأصبح الطقس حاراً . . . سمعنا سكّان الطابق السفلي يضحكون ويتحدثون أمام منازلهم ، وفي البعيد قُرعت طبول حِصن « لواياس » . . . كنت أنظر الى الليل دون أن أُحدِّق ودون هدف ، تمرُّ في خاطري أفكار حزينة . لم أبق على هذه الحال سوى بضع ثوانٍ عندما اقتلعني فجأة من مكاني قرعُ

عنيف للجرس . نظرتُ إلى أبي برُعب ، فتراءى لي أن رعشة القلق والرُّعب التي اجتاحتني قد لَفَحَتْ وجهه . قرعةُ الجرس تِلك أخافته هو أيضاً .

- قال لي بصوتٍ خافتٍ :

- الجرس !

- إبق مكانك يا أبي ! أنا سأفتح .

وانطلقتُ نحو الباب.

وقف رجلٌ على عَتَبَةِ الباب ، لَمَحْتُهُ في الظَّلام ، وهو يُعطيني شيئاً تردَّدتُ في أخذه .

قال لي :

- إنها برقية .

- برقية ، يا إلهي ! ولماذا ؟

أخذتها ، وأنا أرتعش ، كنت قد أقفلتُ الباب تقريباً ولكن الرجل وضع رجله بين الباب والعتبة ليمنعني من ذلك وقال لي ببرودة :

- يجب أن تُوَقِّع .

يجب أن أُوقِّع ! لا أدري ماذا أفعل ، تلك كانت أول برقية أتسلَّمها .

- صرخ السيد أيسات :

- دانيال ، من هناك ؟

كان صوته مُضطّرباً .

أجبت :

ـ لا شيء ! هذا شحّاذ . . .

وفي الوقت نفسه أشرتُ إلى الرجل لكي ينتظرني ، وركضتُ نحو غرفتي ، دخلت وأنـا أتلمَّسُ طريقي ، بَلَلْتُ ريشتي في الحبر ، عدتُ أدراجي . . .

فقال الرجل :

ـ وَقِّع هنا .

فوقَّع « الشيء الصغير » بيد مرتجفة وعلى ضوء مصـابيح السُلَّم ، ثم أقفل الباب ودخل الى المنزل وهو يُمسك بالبرقية المخبَّأة تحت قميصه .

آه ! أجل خبّأتُكِ تحت قميصي ، أنتِ برقية الشؤم ! أبيتُ أن يراكِ السيد أيسات ، لأنني كنت أعرف سلفاً انك أتيتِ لتُنبئينا بشيء رهيب ؛ عندما فتحتُ لكِ الباب لم تُعْلِميني بشيء جديد ، هل تسمعيني أيتها البرقية ! كل شيء أفضيتِ به إليَّ ، كنت قد حزرته من قبل .

قال لي أبي مُمْعناً بي النظر :

ـ كان مجُرَّد فقير ؟

أجبت دون أن أحمرّ :

ـ كان بالفعل مجّرد فقير .

ولكي أُبْعِدَ شكوكه إتكأت من جديد على حافة النافذة .

بقيت هكذا بعضاً من الوقت ، دون حراك ، دون كلام ، وأنا أشدُّ إزاء صدري تلك الورقة التي تحرقني .

أحياناً كنت أحاول أن أتعقَّل وأن أتشجَّع ، قائلاً في سرِّي ، « وما أدراك ؟ ربما كان خبراً جيداً . رُبمَّا شفي . . . ولكن في الحقيقة ، كنت أشعر بزيفِ آمالي ، وبأنني أكذب على نفسي ، وبأن البرقية لن تقول لي أنه شُفِيَ أخيراً . وقررّت أن أدخل غرفتي لكي أعلم حقيقة الأمر وأكُفَّ عن حيرتي . خرجت من غرفة الطعام على مهل وبصورة طبيعية . ولكن حالما دخلت غرفتي أشعلتُ مصباحي بسرعةٍ ملؤها القلق : كم كانت يداي ترتجفان وهما تَفُضّانِ برقية الموت تلك ! وحالما فتحتُها سقيْتُها بدموعٍ ساخنةٍ ! . . . قرأتها عشرين مرةً وأنا آمل دوماً أن أكونٍ قد أخطأت ، ولكن يا لي من مسكين ! كيفما قرأتها وأعدتُ قراءتها ، وكيفما قلَّبتها ، لم أتوصَّل الى حثِّها على قولِ شيء مُغايرٍ لما قالته في البدء ، هذا الشيء الذي كنت أعلمُ تماماً انها ستقوله :

« لقد مات ! صلّوا لأجله ! »

لا أدري كم من الوقت بقيتُ واقفاً وأنا أبكي أمام تلك البرقية المفتوحة . أذكر فقط أن عينيّ أحرقتاني كثيراً ، وقبل أن

أخرج من غرفتي غسلتُ وجهي مُطوَّلاً . ثم دخلت إلى غرفة الطعام وأنا أمسك بيدي الصغيرة المُشنَّجة تلك البرقية اللعينة .

والآن ، ماذا أفعل ؟ كيف أتصرّف لكي أخبر أبي بذلك النبأ الفظيع ، وكم هو سخيف ذاك العمل الصبياني الذي دفعني إلى ان احتفظ بتلك البرقية لنفسي . ألن يعلَمَ ما جرى عاجلاً أم آجلاً ؟ يا للجنون ! لو على الأقل أعطيته البرقية حال وصولها ، لكُنّا فتحناها معاً ؛ وانتهى الأمر .

ولكن ، بينما كنتُ أكلمُّ نفسي ، دنوتُ من الطاولة ، وجلست قرب السيد أيسات تماماً بجانبه . المسكين ، كان قد أغلق كُتُبَهُ وبدأ يلهو بدغدغةِ مخِطمِ « فينه » الأبيض مُستعملاً ريشته . إنقبض قلبي عند رؤ يته وهو يلهو بتلك الطريقة . رأيت وجهه الطيِّب ، الذي يضيئه المصباح نصفياً ، وهو ينبض بالحيوية ويضحك من وقتٍ إلى آخر . فوددتُ أن أقول له : « آه ! لا ، لا تضحك ، لا تضحك أرجوك » .

وبينما كنت أنظر إليه بحزن والبرقية في يدي ، رفع السيد أيسات رأسه . فالتقت أنظارنا ، ولا أدري ماذا رأى في عينيّ ، ولكني أعرف أن وجهه تبدَّلت ملامحه فجأة ، وفي الوقت نفسه إنبعثَتْ صرخة كبيرة من صدره ، وقال لي بصوت يفطُر القلب من شدة الحزن : « لقد مات أليس كذلك ؟ » . عندها زلقت البرقية من بين أصابعي . وارتميت بين ذراعيه وأنا أجهش بالبكاء ،

فبكينـا طويـلاً . حائـرين ، بينما « فينـه » يلعب على أقـدامنا بالبرقية ، برقية الموت الرهيبة وسبب كل دموعنا .

إسمعوا ، إنني لا أكذب : تلك الأشياء حصلت منذ زمن بعيد ، والكاهن العزيز الذي طالما أحْبَبْتُه يرقدُ تحت التراب منذ زمنٍ بعيد . وهكذا ، ولغاية اليوم ، كُلَّما تسلمت برقية لا أستطيع ان افتحها من غير فزع . يخيّل إليّ اني سأقرأ فيها « انه » مات ، ويجب ان « نصلي لأجله » !

IV

الدفتر الأحمر

نجد في كتب القُدّاس القديمة نقوشاً ساذجةً، رُسمت فيها سيّدة السبعة أوجاع وعلى كلّ خد من خديها تجعيدة كبيرة عميقة ، تلك النَّدْبة الإلهية ، التي وضعها الفنان ليقول لنا : « أنظروا كم بكت ! . . . » تلك التجعيدة ، تجعيدة الـدموع ، أقسمُ انني رأيتها على وجه السيدة أيسات الذي هَزُلَ ، وذلك عند عودتها من « ليون » وبعدما دفنت وحيدها .

مسكينة أمي ، منذ ذلك اليوم لم تَعُدْ تبتسم . فأصبحت ترتدي بصورة مُستمرة أثواباً سوداء ، أما وجهها فكان دوماً

حزيناً. حلّ الحداد في ثيابها وفي قلبها ولم يَبْرَحْها قط . . . رُغْم ذلك لم يتبدّل شيء في منزل أيسات . كل ما في الأمر ان الجو اصبح أكثر حزناً .

وأقام كاهن « سان تيزيه » بضع قداديس عن راحة نفس الخوري . وصنعوا لي ولجاك لباسين اسودين أُخذا من قميص يملكه أبي . ورجعت الحياة التعيسة من جديد .

بعد مرور وقت قصير على وفاة الكاهن العزيز ، وفي إحدى الليالي عندما حان وقت النوم، إندهشت لرؤية جاك وهو يقفل باب غرفتنا بإحكام ، ثم سدَّ بدقّة قُرص الباب وبعد ذلك توجه نحوي بعَظَمَة وغموض .

يجب أن تعرفوا انه منذ عودته من الجنوب طرأ تغيير ملحوظ على عادات صاحبنا جاك . أولاً ، جاك لم يَعُد يبكي ، أو لم يَعُد يبكي تقريباً ، وذلك سيُصدّقه قِلّة من الناس . ثم ميله المفرط للتغليف بالكرتون زال تقريباً . من وقت إلى آخر نرى مجامع الغِراء الصغيرة أمام النار ، ولكن جاك لم يَعُد يهتم بهذا العمل كالسابق . اليوم إذا كنتم في حاجة الى مِحفظة عليكم أن تجثوا لكي تحصلوا عليها . . . أشياء غير معقولة تحصل ! لقد طلبت السيدة أيسات علبةً لقبّعتها منذ ثمانية أيام ، ولم تُنفَّذ بعد . . . في المنزل لم يلْحظوا شيئاً . أما أنا فقد أدركت جيِّداً أن جاك أَلَّم به شيء . فاجأته مراراً في المخزن وهو يتكلّم بمفرده

ويؤشِّر بيديه . في الليل لا ينام. أسمعه يُتمتِم بين أسنانه ، ثم فجأة يقفز من سريره ويمشي في الغرفة بخطىً واسعة . . . كل ذلك ليس طبيعياً ويُخيفني حالما أُفكِّر فيه . تهيأ لي ان جاك سيفقدَ عقله .

ذلك المساء ، عندما رأيته يُقفل بإحكام باب غرفتنا ، ساورتني من جديد فكرة الجنون تلك ، فتملّكني الذعر . المسكين جاك لم يُلاحظ شيئاً ، بل أخذ يدي بكلتا يديه ، قائلاً بوقار :

ـ سأئتمنك على سر ، ولكن يجب أن تُقسم لي أنك لن تتكلم عنه أبداً .

فأدركت للحال أن جاك لم يكن مجنوناً .

وأجبت دون أن أتردّد :

ـ أقسم لك يا جاك ، أنني لن أتكلّم عنه .

ـ حسناً ! ألا تعلم ؟ . . . إنني أنظمُ قصيدة ، قصيدة كبيرة .

ـ قصيدة ، جاك ! تنظمُ قصيدة أنت !

وكان جوابه أن سَحَب من تحتِ مْعِطفِهِ دفتراً أحمر كبيراً جداً ، غلّفه بنفسه وعَنْوَنَهُ بأجمل خط :

دِيانة ! دِيانة !

قصيدة في اثني عشر نشيداً
تأليف أيسات (جاك)

أُصِبتُ بالذهول لدى رؤيتي عملاً كبيراً كهذا . أتفهمون ماذا أقصد ؟ جاك ، أخي جاك ، ولد في الثالثة عشرة من عمره ، جاك الذي كان يبكي دائماً ولا تهمّه سوى عُلب الغِراء الصغيرة ، هو نفسه ينظم قصيدة مؤلفة من اثني عشر نشيداً وتحت عنوان : « ديانة ! ديانة ! » .

لم يرتب أحداً بمجهوده الشعري ! ولا نزال نرسله عند باعة الحشائش وهو يتأبّط سلّةً ! ووالده ما برِحَ يصرخ في وجهه : « جاك ، أنت حمار ! » آه ! عزيزي المسكين جاك أيسات . لو تجرّأت لقبّلتُك مراراً بحرارة ومن كل قلبي . ولكن لم أجرؤ . . . أتُدرِكون ! ديانة ! ديانة ، ديوان مُقسّم اثني عشر نشيداً ! . . . ولكن لا بُدّ من قول الحقيقة وهي أنّ هذا الديوان الذي يُقّسَمْ اثني عشر نشيداً يلزمه الكثير لكي ينتهي . وأعتقد أنه لم ينظم منه سوى الأبيات الأربعة الأولى من القصيدة الأولى . ولكنكم تعلمون ، جيداً ، انه في أعمالٍ كهذه بدء العمل دائماً هو أصعب مرحلة ، وكما يقول جاك أيسات وبمنطقٍ سليم : « الآن وقد نظمت الأربعة أبيات الأولى ، فالباقي أصبح سهلاً . المسألة لم تَعُدْ سوى مسألة وقت » .

هذا الباقي الذي لم يَعُدْ سوى مسألة وقت لم يتوصل جاك

أيسات بتاتاً الى إنهائه . . . . ولِمَ الإستغراب ؟ فالقصائد لها قَدَرَها . يبدو ان قَدَر « ديانة ! ديانة » قصيدة من اثني عشر نشيداً ، هو ان لا تكون البتة مؤلفة من اثني عشر نشيداً . مهْما فعل الشاعر ، لم يذهب يوماً أبعد من تلك الأبيات الشعرية الأربعة . لقد كان الأمر محتوماً . وفي نهاية الأمر وبعدما عيْلَ صبره ، أرسل الفتى التعيس قصيدته إلى الجحيم وطرد إلهامه . . . وفي اليوم نفسه عاوَدَ البكاء ، وظهرت من جديد علب الغِراء الصغيرة أمام النار . . . والدفتر الأحمر ، ماذا حلّ به ؟ . . . آه ! الدفتر الأحمر هو أيضاً له قدره .

قال لي جاك : « أعطيك الدفتر الأحمر، أكتبْ عليه ما شئت » . هل تعلمون ماذا كتبتُ عليه ؟ . . . اللعنة ! وضعتُ قصائدي ، قصائد « الشيء الصغير » . لقد سَرَتْ عدوى الشعر من جاك إلـيَّ .

والآن ، إذا رغب القارىء ، وبينما يطارد « الشيء الصغير » القوافي ، سنعْبُر بخطوة كبيرة أربع أو خمس سنوات من حياته . أرغب الوصول بسرعة الى ذاتِ ربيع من العام (. . .)١٨ ، لم تنسَ ذكراه عائلة أيسات الى الآن . لكلّ عائلة تواريخ مهمة تخصها .

ثم ، ذلك المقطع من حياتي الذي أُبقيه طي الكتمان ، لن يخسر القارىء شيئاً لعدم معرفته له . الحوادث نفسها تتكرَّر . دموع ، وبؤس ! الأعمال سيئة ، أُجُور تأخّر تسديدها ، دائنون

يغضبون ، مجُوهرات والدتي بيْعت ، آنيات الفضة رُهِنَتْ ، الشراشف ممُزَّقة ، السراويل مُرقّعة ، الحُرمان من أشياء كثيرة مختلفة ، إهانات يومية ، الجملة التي لا تفارق أفواهنا : « ماذا سنفعل غداً ، الجرس الوقح الذي يطرقه مندوبو المحكمة ، البوّاب ، الذي يبتسم عند مرورنا ، ثم الديون ، ثم مذكَّرات الجلْب ، ثم . . . ثم . . .

ها نحن إذن عام (. . .)١٨ .

تلك السنة انهى « الشيء الصغير » صف الفلسفة .

لقد كان حسب ما أذكر ، فتىً مدَّعياً جداً ، يأخذ بجدّية دوره كفيلسوف وكشاعر أيضاً . ولكن ما زال قصير القامة ، ولم ينبت له أي شعرة في ذقنه . ولكن ، ذات صباح ، وبينما كان هذا الفيلسوف الكبير يهُمّ بالذهاب إلى صفّه ، دعاه والده السيد أيسات ، وما إن دخل الى المخزن ، حتى قال لدانيال بصوته الجاف :

ـ دانيال ، إرمِ كتبَك ، لن تذهب بعد اليوم إلى المدرسة .

بعدما قال ذلك ، شرع السيد أيسات الأب بالمشي في المخزن بخطوات واسعة ، ودون أن يتكلّم . بدا متأثِّراً جداً ، كما كان الحال أيضاً مع الشيء الصغير ، أؤكّد لكم ذلك . . . وبعد وقت طويل من الصمت ، أكمل السيد أيسات حديثه :

ـ عندي يا بني خبر عاطل سأبلغك إياه ، آه ! عاطل للغاية . . . سنضطرُّ إلى الافتراق بعضنا عن بعض !

وهنا ، دوّى نحيب كبير ، نحيب مُؤلم من وراء الباب المفتوح قليلاً .

صرخ السيد أيسات ، ودون أن يلتفت وراءه : « جاك ! أنت حمار » .

ثم تابع بقوله :

ـ عندما أتينا الى ليون ، منذ ثماني سنوات ، وقد أفلسنًا الثوّار ، كنت آمل بعملي المتواصل أن أجمع من جديد ثروتنا التي فقدناها . ولكن الشيطان كان بالمرصاد ! فلم أتوصّل إلاّ إلى إغراقنا في البؤس والديون . . والآن انتهى الأمر ، نحن في مأزق ، وللخروج منه ليس أمامنا سوى حل واحد : بما أننا أصبحنا راشدين علينا أن نبيع القليل الذي نملكه ، وعلى كل واحدٍ منا أن يبني حياته بمفرده .

ومن جديد قاطع نحيب جاك غير المنظور حديث السيد أيسات ، ولكن هذه المرة لشدة تأثّره لم يغضب . فأوعز فقط إلى دانيال بإغلاق الباب ، وبعد ذلك تابع بقوله :

ـ هاك ما قرّرته . ستعيش والدتك ، حتى إشعارٍ آخر ، في الجنوب عند أخيها العم باتيست . جاك يبقى في ليون . لقد وجد عملاً صغيراً في « بيت الرّهن » . أما أنا فسأعمل كمُستَخدم مُتنقِّلٍ في شركة تصنيع النبيذ . . . أما أنت يا ولدي المسكين ، فستضطر أيضاً إلى كسب معيشتك . . . ولقد تسلمت لتوّي من رئيس المعهد رسالةً تقترحُ لك وظيفة مدرس . خذ الرسالة واقرأها !

أخذ الشيء الصغير الرسالة . فقال وهو يقرأها :

ـ حسْب ما فهمت لم يَعُد أمامي متسع من الوقت .

ـ عليك أن تذهب غداً .

ـ حسناً سأذهب . . .

عندها ، طوى السيد أيسات الرسالة وأعادها الى والده بيدٍ ثابتة ، لقد كان فيلسوفاً كبيراً كما ترَون .

في هذه اللحظة بالذات ، دخلت السيدة أيسات الى المخزن ومشى جاك وراءها بخجلٍ . . . إقترب الاثنـان من « الشيء الصغير » وقبّلاه بصمت . لقد كانا على بيِّنةٍ من الأمر منـذ البارحة .

فجأة قال السيد أيسات :

ـ لنهتّم بحقيبته ! إنه مسافرٌ غداً في الباخرة .

فتنّهدت السيدة أيسـات بعمق ، وشَرَعَ جـاك بالبكـاء ، وانتهى الأمر .

لقد بدأنا نعتاد المصائب في هذا المنزل .

وصباح اليوم التالي من ذلك النهار الذي يستحق الذكر ، رافقت العائلة بأكملها « الشيء الصغير » لغاية الباخرة . كانت صُدْفة فريدة من نوعها ، ذلك ان تلك الباخرة هي نفسها التي أقلّت آل أيسـات إلى ليون لثمـاني سنوات خَلَتْ . القبـطان جانياس ، رئيس الطبّاخين مونتليمار ! طبعاً تذكّرنا مِظّلة أنوّ ،

وببّغاء روبنسون ، وبضع حوادث أخرى حصلت عند نزولنا من الباخرة . . . تلك الذكريات أفرحت قليلاً تلك الرحلة الكئيبة ووضعت ما يشبه البسمة على شفتي السيدة أيسات .

فجأة قُرِع الجرس . عليَّ ان أذهب .

فتخلّص « الشيء الصغير » رُغماً عنه من مُعانقات أصحابه ، وعَبَر بشجاعة جسر الباخرة . . .

قال له والده بصوتٍ عالٍ :

ـ كن عاقلاً . . .

قالت السيدة أيسات :

ـ لا تمرض .

أراد جاك أن يتكلم ولكنه فَشِل ، ذلك انه كان يبكي بشدّة .

أما « الشيء الصغير »فلم يبكِ . وكما تشرَّفتُ وقلتُ لكم ، لقد كان فيلسوفاً كبيراً ، ومن المُؤكّد أن الفلاسفة لا يجب أن يَرُقَّ قلبهم . . . .

ولكن يعلم الله كم يحبهم ، هؤلاء الأعزاء الذين يخلفهم وراءه في الضباب . الله يعلم أنهم لو احتاجوا الى دمه ولحمه لأعطاهم إياها بكل سرور . . . ولكن يفعل وسعادة ترك ليون ، وحركة الباخرة المستمرّة ، وسكْرَة السفر ، والغرور الذي تملّكه عندما شَعَر بأنه أصبح رجلاً ، رجلاً حراً ، رجلاً كاملاً يُسافر

بمفرده ويكسب عيشه ، كل ذلك أسْكَر « الشيء الصغير » ومنعهُ ، كما كان مفروضاً ، من التفكير في الأشخاص الأعزّاء الثلاثة الذين يجُشهون بالبكاء هناك وهم واقفون على رصيف « الرّون » . . . آه ! لم يكونوا فلاسفةً ، هؤلاء الثلاثة ، وبنظرةٍ قلقة مِلؤُها العاطفة ، تبعوا مَسِيْرة الباخرة المُترنِّحة ، وظلّوا يصرخون : « الوداع ! ، الوداع ! » وهم يُلوّحون بأيديهم ، رُغم أنّ دُخّان السفينة ، غدا شبيهاً «بسُنونوَة في الأفق » .

في ذلك الوقت ، كان حضرة الفيلسوف يتمشى طولاً وعرضاً على الجسر، يداه في جيبيه ، ورأسه مُتّجه حيث يأتي الريح . يُصفرٍّ ويبصق بعيداً ، ينظر إلى السيدات بفضول وعن كثب ، يراقِبُ كيفيّة سيرْ السفينة ، يمشي كرجل طاعن في السن ، ويرى نفسه جذّاباً ولبِقاً . وقبل الوصول الى فيينا كان قد أعْلَمَ رئيس الطباخين مونتليمار ومساعديه اللذين يغسلان الصحون بأنه يدرس في الجامعة ويكسب معيشته جيداً . . . فهنّأه هؤلاء السادة ، مما جعله فخوراً جداً بنفسه .

مرة وبينما كان يتمشى في السفينة ذهاباً وإياباً ، صَدَمَ فيلسوفنا برجلهِ ، في مقدمة السفينة وقرب الجرس الكبير ، كَوْمة من الحبال حيث جلس طِوال ساعات ، لثماني سنوات خَلَتْ ، روبنسون كروزويه ، واضعاً ببغاءه بين رِجليه. إحمرَّ قليلاً لدى رؤيته كَوْمَةْ الحبال ولكنه في الوقت نفسه ضحك كثيراً .

ـ قال في خاطرهِ : لا بُد انني بدَوْتُ سخيفاً وأنا أجُرّ في كل

مكـان ذلـك القفص الكبـير الملوّن بـالأزرق وذلـك الببغـاء الغريب . . .

مسكيّن هذا الفيلسوف ! لم يخطر في باله ولو لحظة ، بأنه قُدِّر له طيلة حياته أن يُجرَّ ، بالطريقة السخيفة ، نفسها ، هذا القفص الملوَّن بـالأزرق لون الـوهم ، وأن يجرّ هـذا الببغـاء الأخضر ، لون الأمل .

للأسف ! وبينما أنا أكتب تلك السطور ، مـا زال الفتى المسكين يحمل قفصه الكبير الملوّن ، بالأزرق ، لون الوهم ، وذاك الببغاء الأخضر ، لون الأمل . ولكن مع مرور الأيـام إنقشر اللون الأزرق الذي يغطي القضبان الحديدية ، أما الببغاء الأخضر فقد فَقَدَ ثلاثة أرباع ريشه ، يا للتعاسة !

أول عمل قام به « الشيء الصغير » عند وصوله الى مسقط رأسه ، هو الذهاب الى الأكاديمية حيث يقطن حضرة الرئيس .

هذا الرئيس صـديق أيسات الأب كـان مُسنّاً ، جميـلاً وطويل القامة ، مُتيقظاً وجافاً ، لا شيء فيه يدل على الادعاء أو ما شابه . استقبل أيسات الإبن ، برِفق كبير . ومع ذلك عندما أُدخل دانيال إلى مكتب الـرئيس ، لم يستطع هـذا أن يُخفي دهشته فقال :

ـ آه ! يا إلهي ! كم هو صغير .

« الشيء الصغير » في الواقع كان صغيراً بشكلٍ غير معقول يدعو للسخرية ، ثم إنه يبدو فتياً ونحيلاً جداً .

تعجُّب الرئيس جرح شعوره وأيأسه ، فقال في خاطره : « لن يقبلوا بي » عند ذلك ارتعدت فرائصِهِ من الخوف .

ولحسن الحظ ، فَطِنَ الرئيس لما يُمكن أن يجري في ذلك الرأس الصغير المسكين ، فقال مُشجعّاً :

- إقترب يا بني . . . سنجعل منك ناظراً . . . فى سّنك ، وبقامتِك وبوجه كهذا ، لن ترحمك هذه المهنة كما هو الحال عادةً مع الآخرين . . . ولكن بما أنه لا مفرّ من ذلك ، وعليك أن تكسب عيشك ، لا تَهْلعْ يا ابني العزيز ، سنفعل ما في وِسْعِنا لنؤمِّن لك الجو المُلائم . . . في البداية لن نعيِّنك في مدرسة كبيرة . . . سأرسلك إلى مدرسة حكومية في « سارلاند » تبعد بضعة أميال عن هذا المكان ، وهي في قلب الريف . . . وهناك ستتمرَّس لكي تصبح رجلًا ، وتعتادُ الوظيفة ، ستكبر وتنمو لحيتك ، وعندما يحين ذلك اليوم سنرى ماذا نفعل ! .

وفيما هو يتكلم ، كتب حضرة الرئيس رسالة الى المسؤول في مدرسة « سارلاند » يُعرِّفه على دانيال . عندما فرغ من كتابة الرسالة أعطاها « الشيء الصغير » وحثّه على الذهاب في النهار نفسه . وبعد ذلك زوَّده ببعض النصائح الحكيمة ، ثم صَرَفَهُ بعدما صفعه صفعة تحبُّب على خدّه ، وواعداً إياه بأن يبقى دائمًا على اتصال به .

ها هو « الشيء الصغير » يغمره الفرح . فنزل بسرعة فائقة سلم الأكاديمية القديم العهد . ثم ذهب مباشرةً ليحجز مقعداً

في مركبة المسافرين المتوجهة الى « سارلاند » .

موعد رحيل مركبة المسافرين حُدِّد بعد الظهر . . إذن عليه أن ينتظر أربع ساعات ! استفاد « الشيء الصغير » من ذلك الوقت ، فَتَبَخْتَرَ في الساحة تحت أشعة الشمس لكي يلْحظه مواطنوه . وبعدما أكمل الواجب الأول ، أراد شراء بعض الطعام ، فبدأ البحث عن حانوت تكون أسعاره موافقة لما معه من مال . . . رأى قُبالَتِهِ مبانٍ عدَّة ، فاختار مطعمًا بسيطاً يبدو نظيفاً وله يافطة جميلة وجديدة كتب عليها :

« إلى الذي يقوم بجولة حول فرنسا »

فقال في نفسه : « هذا مكان يناسبني » . وبعد دقائق من التردُّد ، دخل المطعم بعزم . تلك كانت المرة الأولى التي يذهب فيها « الشيء الصغير » إلى المطعم . عندما دخل كان المطعم مُقفراً . الجدران دُهِنَتْ بالكلس . . . . بضع طاولات من السنديان . . . في إحدى الزوايا وضع الرفاق عِصيٌّ طويلة رأسها من نحاس ومزّينة بأشرطة مُتعدّدة الألوان . . . أما صاحب المطعم فهو رجل سمين ، كان نائمًا فوق جريدته وهو يشخر .

فقال « الشيء الصغير » وهو يطرق بقبضته على الطاولات كزبون خّمارات قديم : « هاي ! ألا يوجد أحداً ! » .

كل هذا الضجيج لم يوقِظ الرجل السمين . ولكن زوجته أقْبَلَتْ مُسرعة من مخزن الحانوت . . . عندما رأت الزبون الجديد

الذي أرسله الحظ صرخت قائلة :

ـ رُحماك يا إلهي ! من أرى ؟ السيد دانيال !

أجاب « الشيء الصغير » :

ـ أنوّ ! ، أنوّ العزيزة ! .

وها هما يتعانقان .

يا إلهي ! إنها بالفعل أنوّ ، العجوز أنوّ خادمة آل أيسات قديماً ، وصاحبة هذا المحل حالياً ، أم الرفاق ، والمتزوجة من « جان بايرول » ذاك السمين الذي يشخر هناك . . . . كم هي سعيدة ، لو تعلمون كم هي سعيدة ، أنوّ الطيبة القلبُ ، برؤية السيد دانيال من جديد ! قبَّلته طويلاً وعانقته بشدَّة حتى كاد يختنق ! .

وفيما هما يتعانقان ويتذكّران الماضي استيقظ الرجل السمين . في بادىء الأمر أدْهَشَه استقبال زوجته الحار لهذا الفتى الغريب . ولكن عندما علِمَ جان بايرول بأن هذا الشاب الغريب هو السيد دانيال أيسات بنفسِهِ ، إحمرَّ من الفرح واهتمّ اهتماماً كبيراً بضيفه الذائع الصيت .

ـ سيد دانيال ، هل تناولت الفطور ؟

ـ في الحقيقة لا ، يا عزيزي بايرول . . . ولهذا دخلت إلى هذا المكان .

يا إلهي ! . . . لم يتناول السيد أيسات غداءه بعد ! . . . عندها دخلت العجوز أنوّ بسرعة الى مطبخها ، وجان بايرول

ذهب مُسرعاً إلى قبو الخمور . قبو قيّم حسْب قول الرِّفاق .

وبأسرع من لمح البصر جُهزِّت المائدة وزُوِّدت بالطعام . بَقِي على « الشيء الصغير » أن يجلس ويأكل . . . جلست « أنوّ » عن شماله وقَطَعَتْ له الخبز ليأكله مع البيض ، بيض طازج أبيض كزُبدة الحليب ، ناعمٌ كالزَغَب . . . وعن يمينه وضع له جان بايرول في كأسه نبيذاً مُعتَّقاً شبيهاً بحفنة زمرُّد . . . كان « الشيء الصغير » سعيداً جداً ، يشرب كراهبٍ ويأكل كضيف ويجد سبيلاً ، عندما يتوقّف عن الأكل والشرب ، لإخبارهما انه دخل الجامعة لتوّه ، مّما يسمح له بكسب معيشته بطريقة لائقة . لو رأيتم الوضع الذي اتخذه مَظْهَرَه عندما قال : « إنه يكسب معيشته بشرف » ، مِمّا حدا العجوز أنوّ على المزيد من التعجُّب ، وكأنها في حالة ذهول تام .

أما جان بايرول فكان أقل تعجُّباً من زوجته . إذا كان السيد دانيال يكسب عيشه بنفسه ، فهذا أمرٌ طبيعي جداً ما دام قادراً على ذلك . في سن السيد دانيال كان هو ، جان بايرول ، يجوب العالم منذ أربع أو خمس سنوات ، ولم يعد يكلف والديه أي قرش ، بل بالعكس . . . .

طبعاً احتفظ الحانوتي الوقور لنفسه بتلك الآراء . لن يجرؤ على مقارنة نفسه بدانيال أيسات . . . سترفض قطعاً أنوّ تلك الفكرة .

في هذه الاثناء كان « الشيء الصغير » ما زال يتكلم ، يشرب . يأكل ويتحمَّس . عيناه تبرُقان ، وخدّه يحمر . يا سيد بايرول ، إذهب وجيء بالكؤوس ! و « الشيء الصغير » سيلطم الكأس بالكأس . . . . يأتي جان بايرول ، بما طُلِبَ منه ، وتتقارع الكأس بالكأس . . . . أول الأمر نخب السيدة أيسات ، ثم نخب السيد أيسات ، ثم جاك ، وبعده دانيال ، ثم نخب العجوز أنوّ ، ثم زوج أنّو ، ثم الجامعة . . . سيشربون نخب من أيضاً ؟ . . . .

مضت ساعتان ، وما زالوا يشربون ويثرثرون . تحدَّثوا عن الماضي القائم وعن المستقبل المُشرِق . تذكروا المصنع ، ليون ، شارع لانتارن والكاهن المسكين الذي أحبُّوه من كل جوارحهم . . . .

فجأة نهض « الشيء الصغير » مُعْلِناً وقت رحيله . . . .

قالت العجوز أنوّ بحزن :

ـ تريد الذهاب الآن !

إعتذر « الشيء الصغير » قائلاً بأن هناك شخصاً في المدينة ، يجب أن يراه قبل أن يرحل ، وهي زيارة بالفعل مهمة جداً . . . خسارة ! كنّا في غاية الإنشراح وكم من أخبار لم يتح لنا الوقت للتكلم عنها . . . ولكن بما انه لا بُدَّ من الذهاب ، وبما أن السيد دانيال يريد أن يرى شخصاً في المدينة ، فإن اصدقاءه في مطعم « جولة حول فرنسا » لا يريدون ان يحتفظوا

به عندهم أكثر من ذلك . . . « سفـراً سعيداً سيـد دانيال ! فليرعك الله سيدنا العزيز ! » . رافقه جان بايرول ، وزوجته بصلواتها لغاية مُنتصف الطريق .

ولكن هل تدرون من هو هذا الشخص الذي يريد أن يراه « الشيء الصغير » في المدينة قبل أن يذهب ؟

ذلك الشخص هو المصنع ، هذا المصنع الذي طالما أحبَّه وبكاه ! . . . . هو أيضاً الحديقة ، المشاغل ، أشجار الـدلْب الكبيـرة ، جميـع اصدقاء طفولته ، وأفـراح اليـوم الأول بأجمعها . . . .

يمتلىء قلب الانسان ببضع نقاط ضعف . يُحب ما يستطيع نعم ، هكذا . ان يحبه حتى لو كان ذلك خشباً أو حجارةً أو حتى مصنعاً . . . على كل حال ، عندما رجـع روبنسون الى انكلترا ، الم يركب البحر ويقطع مسافات شاسعة ليعود ويرى جزيرته .

إذن ، لكي يـرى « الشيء الصغير » جـزيرتـه ليس من الغريب أن يقوم ببضع خطوات .

أشجار الدلْب الكبيرة ، برأسها المتمايل الذي يَطلّ فوق المنازل ، عرفت صديقها القديم المُقبل نحوها بسرعة ، فلوَّحت اليه من بعيد وانحنت نحو بعضها البعض وكأنها تقول : ها هو دانيال أيسات ، لقد عاد دانيال أيسات ! أما هو فكان يُسرع ويُسرع ، ولكن ما إن وصل أمام المصنع حتى توقَّف مشدوهاً .

لقد رأى أسواراً كبيرةً رماديةً لا يعلوها أي دِفل أو أي شجرة رُمّان . . . اختفت النوافذ والكوى ، حلّت كنيسة صغيرة مكان المشاغل ، يعلو بابها صليب كبير من التُراب الأحمر وكُتِبَتْ عليه عبارات في اللاتينية .

آه ، إن ألمي لعظيم ! لم يَعُدْ المصنع مصنعاً . بل أضحى ديراً للكرمليين حيث يُمنع بتاتاً دخول أي شخص غريب .

V

إكسب عيشك

« سارلاند » مدينة صغيرة في « السافان » ، شُيِّدت في قاع وادٍ عميقٍ تحيط به الجبال من كل جانب كحائطٍ كبير . عندما تكون الشمس « حادة » يتحوّل الوادي آتوناً من نار ، ويصبح «مَثْلجَة عندما تهب الريح الباردة . . . .

عشية وصولي ، كانت الريح القارصة تعبث بكل شيء منذ الصباح . ومع ان الفصل كان ربيعاً ، فقد شعر « الشيء الصغير » الجالس في مقدمة عربة المسافرين وهو يدخل الى المدينة ، بأن البرد ينخرُ عظامه .

الشوارع سوداء ومُقفرة . . . في « ساحة البلدة » ستة

آشخاص ينتظرون العربة وهم يتمشون طولاً وعرضاً أمام المكتب المضاء بطريقة سيئة .

ما إن نزلت من العربة حتى ذهبت الى المدرسة دون أن أضيّع ولو دقيقة واحدة ، وذلك بعدما استدلّيت عن الطريق . كنت استعجل البدء بوظيفتي .

لم تكن المدرسة بعيدة عن الساحة . بعدما اجتزتُ شارعين صامتين أو ثلاثة ، توقّف الرجل الذي كان يحمل حقيبتي أمام منزل كبير ضخم يبدو كأنّ كل شيء قد مات منذ سنين .

قال الرجل وهو يرفع مِقرعة الباب الضخمة : « لقد وصلنا » .

رجعت المِقْرعة الى مكانها بثقلٍ ما بعده ثقل ، وانفتح الباب من تلقائه . . . فدخلنا . انتظرتُ في الرُواق المُغلّف بالعتمة . وضع الرجل حقيبتي على الأرض ، دفعت له اجرته فذهب مُسرعاً . أقفل خلفه الباب الضخم بثقل ما بعده ثقل . . . وبعد وقت قصير اقترب مني بواب غافل يحمل مِصباحاً كبيراً .

قال لي بصوته النّاعس :

ـ لا شك انك جديد ؟

ظنني تلميذاً . . .

ـ أنا لست تلميذاً ، أتيت الى هذا المكان لأتسلم وظيفة ناظر . خذني عند رئيس المدرسة . . . .

بدا البواب مدهوشاً . ثم رفع قليلاً قبعته ، ودعاني الى

الدخول الى مسكنه لفترة وجيزة . ذلك ان رئيس المدرسة سيبقى مدّة ربع ساعة في الكنيسة مع التلامذة ، يستقبلني بعدها في مكتبه حالما تنتهي صلاة المساء .

كادوا أن يفرغوا من العشاء في مسكن البوّاب . كان هنالك شاب ، طويل القامة ، قوي البنية وجميل ، شارباه أشقران ، يشرب كأساً من الكحول وبجانبه امرأة صغيرة نحيلة ، سقيمة ، صفراء كالسفرجل وتغطي نفسها بشالٍ ذابل .

فسأل الرجل ذو الشوارب :

ـ ماذا هنالك سيد كسّاني ؟

اجابه البواب وهو يشير إليَّ :

ـ ها هو الناظر الجديد . السيد صغير للغاية ، مما جعلني أعتقد في البداية أنه تلميذ .

قال الرجل ذو الشوارب وهو ينظر إليَّ من فوق كأسه :

ـ الواقع انه لدينا في هذه المدرسة تلامذة أكبر وحتى انهم مسنون أكثر من السيّد . . . «فايون» البكر مثلاً .

أضاف البواب :

ـ و « كروزا » أيضاً .

قالت المرأة :

و « سوبارول » إيضاً .

وشرعوا بالتكلّم في ما بينهم وبصوتٍ خافتٍ ، ثم أمْعنوا فيَّ النظر بطرف عينهم وهم يشربون تلك الكحـول اللعينة . في

الخارج ، كنا نسمع هدير الريح العنيفة وأصوات التلامِذة الحادة ، وهم يتلون الطلْبات في الكنيسة .

فجأة قُرِعَ جرس ، وعمّت الأروقة ضوضاء خطوات .

ـ قال لي السيد كساني وهو ينهض :

ـ لقد انتهت الصّلاة ، فلنصعد لكي نرى رئيس المدرسة .

أخذ مصباحه فتبعته . . . .

بدت لي المدرسية شاسعة . . . ممرات لا نهاية لها ، أرْوِقة كثيرة ، سلالم عريضة ، درْبزينها من الحديد البديع الصنعة . . . وكل ذلك قديم أسودٌ ومِسْودٌ بالدخان . . . أخبرني البوّاب انه قبل العام ١٧٨٩ كانت هذه الدار مدرسة بحرية وكانت تحوي ثمانمائة تلميذ ، جميعهم من أعرق النبلاء . وفيما هو ينتهي من تزويدي بتلك المعلومات القيّمة ، وصلنا أمام مكتب رئيس المدرسة . . دفع السيدّ كساني على مهل الباب المبطن ثم قرع على الخشب مرتين .

فأجاب صوت : « أُدْخل » فدخلنا . كان المكتب واسعاً جداً ، فَرْشُه أخضر . في آخره ، كان رئيس المدرسة جالساً امام طاولة طويلة وهو يكتب على ضوء باهتٍ ينبعث من مصباحٍ عاكسة ضوئه مُسْدلة تماماً .

قال البوّاب وهو يدفع بي أمامه :

ـ سيدي الرئيس ، ها هو الاستاذ الجديد الذي جاء ليحلّ مكان السيّد « ساريار » . . .

فقـال رئيس المدرسـة ، دون ان يتـوقف عن الكتـابـة : «حسناً» .

فأنحنى البوّاب ثم خرج . بقيت واقفاً في وسط الغرفة وأنا أفتّل قبعتي بأصابعي .

عندما انتهى من الكتابة ، إلتفت الرئيس نحوي ، مّما سمح لي وحسبما أشاء بأن أمعن النظر في وجهه الصغير الشّاحب والجاف والّذي تضيئه عينان باردتان ودون لون . أما هو ، ولكي يراني بصورة أفضل ، فقد رفع عاكسة ضوء مصباحـه ، ثم وضع نظارة ، ذات زجاجة واحدة ، على أنفه .

فصرخ وهو يقفز من على مقعده :

ـ ولكنه طفل ! ماذا يريدون أن أفعل بطفل ! .

للوهلة الأولى ، ألَمّ الذعر بـ « الشيء الصغير » ؛ تخيل نفسه يجوب الشوارع دون أي مورد رزق . . . فتوصّل بصعوبة الى تمتمة كلمتين أو ثلاث ، ثم سلّم رئيس المدرسة الرّسالة التي توصي به .

أخذ رئيس المدرسة الرسالة فقرأهـا وأعاد قـراءتها ، ثم طواها ، وبعد ذلك أعاد فتحها ، ثم قرأها من جديد ، وأخيراً إنتهى الى القول ، بأنه بفضل التوصية الخاصة المُرسلة من الرئيس الأعلى ، وأيضاً بفضل نَسَبْ عائلتي الرفيع ، قرَّر قبولي في مدرسته رُغم انه متخوّفٌ من صغر سني . بعد ذلك بدأ بعرض خطابه المُفخَّم حول خطورة واجباتي الجديدة ، أما أنا فلم أعُدْ استمع إلى

ما يقول . . . بالنسبة اليَّ المُهم هو انني لم أُطْرَدْ . . . لقد أُعطيت تلك الوظيفة . . كم كنت سعيداً ، سعيداً للغاية . وَوَددتُ أن يكون للرئيس أَلْف يد لكي أقبّلها كلها عربوناً عن إمتناني . . .

وفيما أنا مُنجرفٌ بتلك الأحاسيس ، سمعت دويّ حدائِد عتيقة . . التفتُّ بسرعة فوجدت نفسي أمام رجل طويل القامة ، أحمر السالفين . لقد دخل الى المكتب دون ان نسمع خطاه : إنه الناظر العام . .

برأسه المُنحني على كتفه ، كان ينظر اليَّ ، راسمًا على شفتيه ألبَسمة ، وهازاً بمجموعة من المفاتيح من جميع الأحجام ، وهي مُتدلّية من سُبابته . تلك البسمة كانت لتقرّبني منه ، ولكن مفاتيحه أخافتني ، بِصَرِيْفها المرعب .

قال رئيس المدرسة :

ـ يا سيد « فيو » ها هو الشخص الذي سيحلّ مكان السيد « ساريار » .

فأنحنى السيد فيو ، وتبسّم لي بلطفٍ ما بعده لطف . وعكس ما بدا منه ، فإن مفاتيحه اهتزّت بسخرية ولؤمٍ فكأنه يقول : « هذا الرجل الصغير سيحلّ مكان السيد ساريار ! يا للدعابة ! » .

لقد فهم الرئيس مثلي تماماً ما قالته المفاتيح لتوّها ، فأضاف مُتنهّداً :

ـ أعرف ان فَقْدِنا للسيد ساريار هو تقريباً خسارة لا تُعوّض

(هنا ، اجهشت المفاتيح بالبكاء . . .) ولكنني متأكد أن السيد فيو سيتفضّل بقبول الأستاذ الجديد وشمله برعايته الخاصة ، وسيُلقّنه أفكاره القيّمة الخاصة بالتعليم ، وهكذا الترتيب والنظام لن يتأثرا كثيراً ، برحيل السيد سارريار .

فأجاب السيد فيو دون ان تفارقه البسمة واللطافة ، بأنه سيحيطني بعطفه وسيزوّدني بكل سرور بالنصائح المفيدة . لكنّ مفاتيحه لم تكن عطوفة بتاتاً . يكفي سماعها وهي تهتز وتصرّ بسرعة هائلة وكأنها تقول : « إذا تحرّكت فالويل لك أيها السخيف » .

أنهى رئيس المدرسة حديثه قائلاً :

ـ يا سيد أيسات بإمكانك ان تنصرف . عليك هذه الليلة ايضاً ان تنام في الفندق . . . كن هنا غداً الساعة الثامنة . . . هيّا . . .

ثم صرفني بوقار . . . .

رافقني السيد فيو لغاية الباب بلطفٍ وبشاشةٍ متناهيتين . ولكن قبل أن يغادرني أعطاني دفتراً صغيراً .

قال لي :

ـ هذه أنظمة المدرسة إقرأها وفكرّ فيها مليّاً . . .

ثم فتح الباب وأغلقه عليّ وهو يلوّح ، بمفاتيحه بطريقة . . أعوذ بالله منها طريقة !

إلا ان هؤلاء السادة نسوا كلهم ان يوضحوا لي بعض الأمور . . . فتهتْ لوقت قصير في الأرْوِقة الكبيرة المُظلمة ، وأنا

أتلمّس الجدران محاولاً إيجاد طريقي . كان ضوء القمر يدخل من نافذة عالية فيساعدني أحياناً في إيجاد الإتجاه الصحيح . فجأة وفي ظلمة الأروقة ، لمع ضوء مقبل مُلاقاتي . . . فخطوت بضع خطوات ، فكَبُرَ الضوء واقترب مني ، ثم مرّ بجانبي وابتعد واختفى . تلك الرؤيا رُغم السرعة التي مرّت بها بقيت عندي في أدق تفاصيلها .

تخيّلوا امرأتين ، لا بل ظلين . . . واحدةً عجوزاً ، مُتخدِّدة ، مُتغضّنة ومحدَّبة تضع نظارات ضخمة تغطي نصف وجهها . أما الأخرى فشابة ، رشيقة ونحيلة بعض الشيء مثل جميع الأشباح ، ولكنها تملك ما لا يملكه الأشباح إجمالاً ـ تملك عينين سوداوين كبيرتين جداً وكالحتي السَّواد ـ تُمسِكُ العجوز مصباحاً صغيراً نُحاسياً . أما العينان السوداوان فلا تحمل صاحبتهما شيئاً . مرّ الظلاّن بجانبي ، بسرعة وبصمت دون ان يرياني . لقد مرّ وقت طويل على اختفائهما وما زلت أنا واقفاً في المكان نفسه ، تحت تأثير مزدوج من السّحر والرعب . وعِدْتُ من جديد أتلمّس طريقي ولكن قلبي كان يخفق بشدة ، وما زالت مُرْتسمة أمامي في الظلام تلك الساحرة المُرْعبة ذات النظارات . وهي تمشي بجانب صاحبة العينين السوداوين . . .

ولكن بقي عليّ أن أجد مأوى أُمضي فيه ليلتي . تلك المسألة لم تكن يسيرة . لحسن الحظ وجدت الرجل صاحب الشاربين وهو يُدخِّنُ غليونه أمام مسكن البوّاب ، وللحال وضع نفسه تحت

تصرّفي . وأقترح أن يأخذني بنفسه الى فندق صغير أسعاره رخيصة ، وحيث أُعاملْ كأمير . فقبلت عَرْضَه بكل طيبة خاطر .

بدا لي هذا الرجل طيب القلب . في الطريق علمت انه يدعى « روجيه » وهو أستاذ رقص وفروسية ورياضة وشيش في مدرسة سارلاند ، وقد خَدَمَ طويلاً في فرقة « صيادي افريقيا » . فأستلطفته ، خاصة بعد ما علمت انه قام بخدمته العسكرية . فالأولاد دائمًا ميّالون إلى محبة الجنود . افترقنا عند مدخل الفندق بعد مُصافحات عديدة وبعدما تواعدنا وعداً قاطعاً بأن نصبح صديقين . . .

والآن أيها القارىء بقي عليّ ان ابوح لك بإعتراف أخير . سرير الفندق عندما وَجَدَ « الشيء الصغير » نفسه في تلك الغرفة الباردة ، أمام المجهول والمبتذل ، وبعيداً عن أحبّائه ، إنفجر قلبه من الحزن فبكى هذا الفيلسوف الكبير كالطفل . . إن حياته هذه ترعبه ، وشعر بأنه ضعيف أمامها ولا شيء يحميه منها ، فبكى طويلاً . . . فجأة ، تراءت له بين دموعه صورة أهله . ورجعت به ذاكرته الى بيتهم المهجور وكيف تفرّقت العائلة ، الأم هنا والأب هنالك . . . دون سقف يحميهم ! دون مأوى ! عند ذلك نسِيَ حزنه الشخصي ، وفكرّ في شقائهم المُشترك . فأتخّذ « الشيء الصغير » قراراً في غاية الأهمية وهو إعادة بناء بيت أيسات مُتحمِّلاً شخصياً جميع الأعباء . . . بعدما وجد هدفاً سامياً لحياته امتلأ فخراً واعتزازاً ، فمسح دموعه غير اللائقة برجل وبباني

منزل . ودون ان يهدرُ أي دقيقة بدأ مطالعة أنظمة السيد فيو لكي يكون على بيِّنة من واجباته الجديدة .

تلك الأنظمة كتبها السيد فيو مُؤلّفها ، بخط يده ، كتبها بحب ، وهي عبارة عن بحث حقيقي قُسِّم بمنهجية ثلاثة أقسام :

١ ـ واجبات الأستاذ نحو رؤسائه .

٢ ـ واجبات الأستاذ نحو زملائه .

٣ ـ واجبات الأستاذ نحو التلاميذ .

كانت جميع الإحتمالات مُتوقَّعة ، من الزجاج المكسور حتى اليدين اللتين ترتفعان معاً خلال الدرس . ولحُظت جميع تفاصيل حياة الأساتذة منذ قيمة رواتبهم حتى نصف زجاجة النبيذ التي يحق لهم بها عند كل وجبة .

وتنتهي تلك الأنظمة بمقطع جميل وبليغ وهو كناية عن خطاب عن فائدة الأنظمة نفسها . ولكن رُغم احترامه لِكُتّيب السيد فيو ، فإن « الشيء الصغير» لم يجد القوة الكافية للمضيّ حتى النهاية ، فنام قبل أن يقرأ أجمل مقطع في الخطاب . . .

تلك الليلة لم أنم جيداً . لقد عكَّر صفو سُباتي ألف حلم خيالي . فتارة يخيل إلَّي انني أسمع رنين مفاتيح السيد فيو الرهيبة وطوراً أرى الساحرة ذات النظارات وقد جلست بقربي ثم أيقظتني مُترجفاً . وأحياناً أرى ذات العينين السوداوين ، آه ! كم كانتا

سوداوين ! وقد جلست قرب سريري وهي تنظر إليَّ بعناد غريب . . .

وصلت الى المدرسة في الثامنة صباح اليوم التالي ، كان السيد فيو واقفاً أمام الباب ، مفاتيحه في يده وهو يراقب دخول الطلاّب . إستقبلني بألطف بسمة .

فقال لي :

ـ انتظرني في الرِواق ، وبعد دخول الطلاّب سأقدّمك إلى زملائك .

إنتظرت في الرواق وأنا أتمشى طولاً وعرضاً ، وأُحيي وأنا مُنْحني حضرات الأساتذة المُهرولين واللاّهثين . واحد فقط حيّاني بدوره وهو الكاهن استاذ مادة الفلسفة . وصفه السيد فيو بأنه رجل يختلف عن الآخرين . وللحال أحببتُ هذا الرجل الفريد من نوعه . . .

دقّ الجرس وامتلأت الصفوف . . . وأطلَّ اربعة أو خمسة فتيان تراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، ثيابهم رثّة ، ووجوههم اعتيادية . وصلوا وهم يقفزون ، لكنهم توقفوا حائرين أمام مظْهر السيد فيو .

قال لهم الناظر العام وهو يشير إليَّ :

ـ أيها السّادة ها هو السيد أيسات زميلكم الجديد .

إنسحب بعدما انحنى مُعلناً بتلك الانحناء أن مهمته قد انتهت . كان باسمًا ورأسه منحنٍ على كتفه وهو يلوّح بمفاتيحه

المرعبة . زملائي وأنا نظرنا الى بعضنا البعض بصمت .

تكلم أولاً الأكبر والأسمن بينهم ، وهو السيد ساريار ، ساريار الذائع الصيت والذي سأحلّ مكانه .

صرخ بصوت مرح :

ـ اللعنة ! لا بُدّ من القول أن الأساتذة يَتَعَاقبون ولكنهم لا يتشابهون .

لقد لمحّ في كلامه الى الفرق الشاسع في الطول بينه وبيني . ضحك الجميع من تلك الملاحظة وأنا كنت البادىء . ولكني أؤكد لكم أنه في تلك اللحظة بالذات كان في وسع « الشيء الصغير » بيع نفسه الى الشيطان بكل سرور ، لكي يزيد طولاً .

أضاف ساريار الضخم ، وهو يمدُّ يده إلَّي ليصافحني :

ـ لا تُبال . برغم التباعُدْ بين قَامَتْينا نستطيع ان نشرب بضع كؤوس معاً . تعال معنا أيها الزميل . . . سأقدّم على حسابي للجميع كأس الوداع في مقهى « باربيت » وأريد ان تكون معنا . سنتعارف اكثر فيها نشرب الأنخاب .

ودون ان يترك لي الوقت لكي اجاوبه تأبط ذراعي وجرّني خارجاً .

يقع مقهى « باربيت » ، حيث اخذني زملائي الجُدُدْ ، في « ساحة الأسلحة » ويرتاده ضبّاط الحامية ، وما هو مُلْفِت للنظر عند الدخول اليه هو العدد الذي لا يُسْتهانُ به من قلانِس الجنود والحمائل المتدلّية من المشاجب .

إن رحيل ساريار في ذلك اليوم وكأس وداعه قد جذبا جميع روّاد المقهى . . . عند وصولنا قدَّمني ساريار الى الضباط الذين استقبلوني بكل ترحاب . ولكن في الحقيقة إن وصول « الشيء الصغير » لم يكن له تأثير كبير ، وسرعان ما نسيني الجميع بعدما لجأت بخجلٍ إلى زاوية الصالة . . . وفيما كانت تمتلىء الكؤوس ، أتى ساريار الضخم وجلس قربي . لقد خَلَعَ سُترته وأمسك بأسنانه غليوناً طويلاً من الطين حيث وُضِع إسمه بأحرفٍ من البورسلين . جميع الأساتذة الذين يرتادون مقهى « باربيت » كانوا يملكون غلايين مشابهة .

قال لي ساريار الضخم :

ـ والآن يا زميلي ! ترى جيداً أن المهنة لا تخلو من اللحظات الجميلة . . . وإجمالاً ، لقد أحسنت بالمجيء إلى سارلاند ، وأنت في بداية عملك . أولاً مشروب مقهى « باربيت » هو عظيم ، ثم هناك في تلك العُلبة ستكون مُرتاحاً نوعاً ما .

لقد أراد بالعُلبة المدرسة .

ـ سيوكل اليك امر الصغار ، وهم يساقون بالعصا . لقد درَّبتهم جيداً . رئيس المدرسة ليس شريراً والزُّملاء طيّبون ولكن هناك العجوزة والأب فيو . . .

فسألته وأنا أرتعش :

ـ أي عجوزة ؟

ـ آه ! ستتعرّف عليها قريباً . نلتقيها ليل نهار تجول في

المدرسة وهي تضع نظارات ضخمة . . . هي عمة الرئيس وتشغل منصب ادارة صندوق المدرسة . آه ! الملعونة من بخلها ، لأماتتنا جوعاً لو طلع في يدها .

حسب المواصفات التي اعطاني إياها ساريار ، تبيَّنت الساحرة ذات النظارات ، أحمرَّ وجهي رُغمًا عني . للمرّة العاشرة كنت على وشك ان اقاطع زميلي وأن أطرح عليه السؤال التالي : « وماذا عن العينين السوداوين ؟ لكنني لم اجرؤ . فمن المستحيل التحدُّث عن العينين السوداوين في مقهى «باربيت» ! . . . . .

خلال هذا الوقت كان المشروب يُوزَّع على الجميع ، فالكؤوس الفارغة تمتلىء . والكؤوس الملآنة تَفرْغ . كانوا يتبادلون الأنخاب ، والآهات تتوالى ، وعصيّ البلياردو تتطاير في الجو ، ثم كَثُرَتْ الدفشات والضحكات النّابعة من القلب ، والنُكَتْ والنجاوى . . . .

رويداً رويداً شعر « الشيء الصغير » بأن حجمه قد ضعف . فترك رُكْنَهِ وتمشّى في المقهى وهو يتكلّم بصوت عالٍ وكأسه في يده . فَغَدَاَ الضبّاط أصدقاءه . وأخبر بكل وقاحة واحداً منهم أنه ينتسب الى عائلة غنيّة جداً ، ولكنه طُرد من منزل والديه بسبب طيشه وعَبَثِهِ . ولقد عَمِلَ مُدرِساً لكي يعتاش ، لكنه لا ينوي البقاء طويلاً في المدرسة . . . ذلك غير جائزٍ بما انه ينتمي الى عائلة شديدة الثراء ! . . . .

آه ! لو قُدِر لمن يعرفونه في ليون أن يسمعوا أقواله في تلك اللحظة .

كم كان بعيداً عن الحقيقة . ولكن ، عندما سمعوا في مقهى «باربيت» اني انفصلت عن عائلتي واني فاسق وشرير ولست فتى فقيراً جره البؤس الى التعليم ، كما كانوا يعتقدون ، في تلك اللحظة بالذات تغيّرت نظرتهم إلّي وأصبح لي شأن . فالضباط القدامى نظروا إلَّي دون ازدراء ، وزاد تقدير الجميع لي ، وعندما حان وقت الرحيل ، وقف روجيه مدرِّب الشيش وصديقي منذ البارحة ثم شرب نخب دانيال أيسات . كم كان « الشيء الصغير » فخوراً .

ونَخَبْ دانيال أيسات أعطى إشارة الرحيل . لقد اصبحت الساعة العاشرة إلا ربعاً وحان موعد الرجوع الى المدرسة .

كان الرجل ذو المفاتيح في انتظارنا أمام الباب ، فقال لزميلي الضخم الذي كان يتعثر مُتأثراً بكأس الوداع :

ـ هيا يا سيد ساريار ستقود تلاميذك الى الصف للمرّة الأخيرة . فحضرة رئيس المدرسة وأنا سنأتي بمعية الأستاذ الجديد لكي يَحُلَّ مكانك .

وبالفعل بعد دقائق دخل رئيس المدرسة والسيد فيو والأستاذ الجديد إلى الصف . فوقف الجميع ، وألقى رئيس المدرسة خطاباً طويلاً بعض الشيء ولكنه وقور وفيه قدَّمني الى التلامذة . ثم إنسحب وتبعه ساريار الضخم الذي كان ينزعج أكثر فأكثر من

مفعول كأس الوداع . أما السيد فيو فكان آخر من ذَهَبَ ، لم يُلْقِ خطاباً ولكن مفاتيحه تكلّمت عنه بشكل فظيع وكأنها تهُدِّد ، حتى ان جميع الرؤوس اختبأت تحت أغطية المناضِد وحتى ان الأستاذ نفسه لم يكن مُطمئناً . حالما أصبحت تلك المفاتيح المُرعبة خارجاً، أطلّت مجموعة من الوجوه الخبيثة التي كانت مختبئة وراء المناضِد . عند ذلك لَمَسَتْ جميع الريشات الشفاه ، وتركّزت عليَّ كل تلك العيون الصغيرة ، البرّاقة الساخرة ، والمُرْتعبة . بينما سَرَى همس طويل من طاولة إلى أخرى .

فاضطربت قليلاً ، وصعدت ببطء الدرجات التي تؤدي الى مقعدي . ثم حاولت ان أنشر حولي نظرة « مُفترسة » . وبعد ذلك ضخّمت صوتي وصرخت ما بين لطْمتين جافتين هزتا الطاولة :

ـ إلى العمل أيها السادة ، إلى العمل !

وهكذا بدأ « الشيء الصغير » أوّل نظارة له في عنبر دراسة الصغار .

VI

الصغار

لم يكونوا اشراراً ، كان الشر من الآخرين . لم ألقَ أذىً بتاتاً من هؤلاء وأنا كنت أحبهم كثيراً ، ذلك بأن رائحة المعهد لم تكن بعد قد بدأت تفوح منهم ، وكان في وسع المرء أن يقرأ حتى نفسهم في عينيهم . .

لم أعاقبهم قط ، ولِمَ أعاقبهم ؟ هل نُعاقِب العصافير ؟ عندما يُغرِّدون بصوتٍ عالٍ جداً ، كان يكفي أن أصرخ قائلاً : « الصمت ! » ، وللحالِ ، تصمت حظيرة الطيور لمدة خمس دقائق على الأقل .

الأكبر سناً بينهم ، كان عمره إحدى عشرة سنة . إحدى عشرة سنة فقط ! وساريار الضخم تَبَاهَىْ بمعاملتهم بقسوة ! . . . أما أنا ، فلم أكن قاسياً معهم . حاولت أن أبقى دائماً طيباً ، هذا كل ما في الأمر .

أحياناً ، كمكافأةً على حُسن سلوكهم ، أروي لهم قصةً . .

قصة ! . . . يا لها من سعادة ! فيطوون بسرعة دفاترهم ويُطْبقون كُتبهم . ثم يضعون محابرهم ومساطرهم ومراقِمِهم بلا نظام في قعر قماطِرِهم . ثم يُحُدِّقون بي ويسمعونني وهم مكتفون . لقد ألَّفت لهمَ خَمساً أو ست قصص خيالية : « بدايات زيز حصيدة » ، « مصائب حنا الأرنب » الخ . وكمثل اليوم ، كان « لافونتين » هو قديس إلهامي في الروزنامة الأدبية ، وقصصي لم تكن سوى تعليق مُفصل على حكاياته . ولكن كنت أضيف عليها من مخيلتي بعض التفاصيل . كنت دوماً أتكلّم عن جُدجُد مسكين مضطرّ الى كسب معيشته مثل « الشيء الصغير » ، أو أروي لهم قصص أشخاص يعملون في التغليف ويظلون يبكون ، مثل جاك ايسات .

الحكايات كانت تُلهي الأطفال وتسليني أنا أيضاً . ولكن ولسوء الحظ فإن السيد فيو أبى أن نتسلىّ بتلك الطريقة .

يقوم الرجل المُرعب ذو المفاتيح بجولته التفتيشية في المدرسة ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع ، ليرى إذا كان كل شيء يجري حسب الأنظمة . . . ولكن وفي أحد الأيام ، وصل الى الصف تماماً في المقطع الأكثر تأثيراً من قصة حنا الأرنب . وعندما رأى التلامذة السيد فيو يدخل القاعة إرتجفوا من الخوف . وبدأوا ينظرون الى بعضهم البعض مشدوهين . فتوّقف الراوي عن الكلام . وأبقى « حنا الأرنب » المنذهل رجله في الهواء ، وقد انتصبت أذناه الكبيرتان من الخوف . أما السيد فيو

اُلمتبسِّم والواقف أمام مِنْبَري فلقد جال بنظره المندهش على المراقِم الخالية من الكتب . لم يتفوّه بأي كلمة ولكن مفاتيحه كانت تهتز اهتزازاً ضارياً وكأنها تقول : « أيها السخفاء لقد تخلّيتم إذاً عن الدرس! » فأحاول وأنا أرتجف أن أهدىء تلك المفاتيح المرعبة . وأتمتم قائلاً :

ـ هؤلاء السادة عمِلوا كثيراً هذه الأيام . . . فرويت لهم قصةً صغيرةً كمكفأةٍ لهم .

لم يجُبني السيد فيو ، بل انحنى وهو يبتسم ثم خرج بعد ما زمجرت مفاتيحه مرةً أخيرة .

في المساء وفي فترة إستراحة الساعة الرابعة جاء نحوي وهو مُتبسِّم وصامت كالعادة ثم سلّمني دفتر الأنظمة وهو مفتوح عند الصفحة الثانية عشرة وتحمل العنوان التالي : « واجبات المعلّم نحو التلاميذ » .

أدركت انه عليَّ أن لا أروي قصصاً بعد الآن . ومنذ ذلك اليوم لم أعُدْ أروي القصص إطلاقاً .

وطيلة أيام رفض أولادي كل تعزية . لقد اشتاقوا إلى « حنا الأرنب » مّما كان يزيدني أسىً لعدم تمكّني من تلبية رغبتهم . لو تعلمون كم أحببت هؤلاء الأولاد ! لم نكن نفترق . . كانت المدرسة مُقسّمة ثلاثة أقسام مُتغايرة جداً عن بعضها البعض : الكبار ، المتوسّطون في العمر والصغار . لكل قسم ملْعبه ، غرفة

منامته وغرفة صفه . . أولادي كانوا لي ، ولي وحدي . وكان يخيل اليَّ ان لديّ ثلاثة وخمسين طفلاً .

باستثناء هؤلاء الأولاد لم يكن لي صديق . فالسيد فيو رُغم انه يبتسم لي دوماً ، ويأخذني بيدي في فترات الإستراحة ، ويعطيني نصائح تتعلق بالأنظمة ، رُغم كل ذلك لم أكن أحبُّه ولم أتوصَّل إلى محبَّته . فمفاتيحه تخيفني كثيراً . أما رئيس المدرسة فلم أكن أراه . وأما الأساتذة فهم يحتقرون « الشيء الصغير » وينظرون إليه من عليائهم . وبالنسبة لزملائي فإن الإستلطاف الذي يكنّه لي الرجل ذو المفاتيح قد أبعدهم عني . وعلى كل حال ، منذ أن تعرّفت على الضبّاط لم أدخل مقهى « باربيت » الأمر الذي لم يغفره لي رواد المقهى الطيبون .

الكل كان ضدي ، حتى البوّاب ، كساني ، ومدرِّب الشيش روجيه . مدرس الشيش خاصةً كان غاضباً جداً مني . عندما أمرّ بجانبه يُفتِّل شاربه بطريقة وحشية ويدير نظره كأنه يريد أن يقتل بالسيف مئة رجل من العرب . ومرة قال لكساني بصوتٍ عالٍ وهو ينظر إليَّ أنه لا يُحب الجواسيس . لم يجب كساني ، لكنني لاحظت جيداً حسب مظهره أنه لا يحبّهم هو أيضاً . . . . عن أي جواسيس يتكلّمون ؟ . . . لقد فكرت كثيراً في ما سمعته . وأمام تلك الكراهية الشاملة قررت ، بشجاعة ، أن أقنع بمصيري . وكان استاذ الصفوف المتوسطة يشاركني غرفة صغيرة تقع في آخر طابق وتحت سقف المدرسة مُباشرةً . هناك

كنت التجىء خلال أوقات الدروس . أصبحت الغرفة ملكي ، ذلك ان زميلي يقضي كل وقته في مقهى « بـاربيت » . تلك كانت غرفتي وبيتي . وحالما أدخلها ، أقفل على نفسي بإحكام . وبما انه لم يكن عندي كرسي ، كنت أضع حقيبتي أمام مكتب قديم هشَّمته بقع الحبر والكتابات بالموسى ، حيث أبُسطُ جميع كتبي ، ثم أبدأ بالعمل .

لقد حلّ فصل الربيع ، وعندما أرفع رأسي أرى السماء زرقاء ، وأشجار الملعب الكبيرة اكْتست بالأوراق . لا صوت في الخارج ، ومن وقتٍ إلى آخر صوت تلميذ رتيب يتلو أمثولته . ويتعالى تعجُّب استاذ غاضب ، أو تنشب مُشاجرة بين عصافير تحت أوراق الشجر . . . ثم يلف السكون المكان من جديد ، فيخيّل إلينا أن المدرسة تغطُّ في سُباتٍ عميقٍ .

أما « الشيء الصغير » فلم يكن نائماً . حتى انه لم يكن يحلم ، مع العِلم أن الحلم هو طريقة ممُتعة للنوم . انه يعمل ، ويعمل دون انقطاع ، ويحشو رأسه بـاليونـانية والـلاتينية حتى ليخالُ أن رأسه سينفجر .

أحيـاناً ، وفي خِضمِّ عمله الجـاف ، تقرُع يـدٌ غـامضـة الباب .

ـ من هنالك ؟

ـ هذه أنا ، مُلْهمتك وصديقتـك القديمـة، إمرأة الـدفتر

الأحمر . إفتح لي الباب بسرعة أيها « الشيء الصغير » .

ولكن « الشيء الصغير » يتجنَّب فتح البـاب . إنها حقاً المُلْهِمة ! فليذهب الدفتر الأحمر إلى الجحيم ! . المهم في تلك الربع ساعة هو ان يعمل اكبر عدد ممكن من المواضيع اليونانية ، وأن يصبح مُجازاً وأن يحصل على لقب أستاذ ، وأن يُعيد في أقرب وقت بناء منزل جميل لعائلة أيسات .

فكـرة العمل من أجـلِ عائلتي زوّدتني بشجـاعة فـائقةٍ ، فـأضحت الحياة أقـلّ قساوةً . وازدانت غـرفتي نفسهـا بتلك الفكرة . . آه ! يا مُخَدَعي الحقير ، مُخَدَعي العزيز كم قضيت ساعات جميلة بين جدرانك الأربعة ! كم عملت بجدٍ ! وكم شعرت بأنني شجاع ! . . .

وإلى جانب الساعـات القليلة والجميلة التي نعِمْتُ بها ، مَرَرْتُ بساعات سيئة أيضاً . كان من الواجب أخذ الأطفال إلى النزهة مرتين في الأسبوع نهاري الأحد والخميس . تلك النزهة كانت عذاباً لي .

كنا نذهب عادةً الى منطقة تُدعى «الحقـل» وهي أرض كبيرة تملأها الحشائش وتمتدُّ كسجّادة في سفح الجبل ، وتبعدُ نصف ميل عن المدينة . تنتشر فيها بضعة أشجار بلوّط كبيرة ، وثلاث أو أربع حانات دُهِنت باللون الأصفر وعين ماء يجري في الخضار . كل ذلك جعل من « الحقل » مكاناً ساحراً وفرِحـاً

تعشقه العين . . . كل صف يذهب الى ذلك المكان بمفرده . عندما يصلون كنا نجمعهم تحت إشراف أستاذ واحد والذي كان دوماً أنا . أمّا زملائي فيذهبون الى الحانات المجاورة ويأكلون على حساب أشخاص أثرياء . وبما انهم لم يدعوني بتاتاً للذهاب معهم ، كنت أبقى لمراقبة التلامذة . . . يا لها من مهنة قاسية في هذا المكان الجميل ! . . .

كم وددتُ أن استلقي على هذا العشب الأخضر ، في ظل أشجار البلوّط وأن انتشي من رائحة الصعتر فيها أسمع غناء الينبوع الصغير . عوضاً عن ذلك ، كان عليَّ أن أراقب ، أن أصرخ وأعاقب . . . فمسؤولية المدرسة بأكملها هي على عاتقي . لقد كان الأمر فظيعاً . . .

ولكن ما هو أفظع أيضاً من مُراقبة الطلاب في « الحقل » كان عبور المدينة مع وِحْدتي ، وِحَدْة الصغار . أما الوحدات الأخرى فتأتي وراءنا بشكل رائع وتتقارع أعقابهم كجنود قُدامى ! فإنهم يمتثلون حسب الأوامر والنظام . أما أطفالي فلا يعون تلك الأشياء الجميلة . لا يقفون في الصف بل يمسكون بأيدي بعضهم البعض ، ويتكلّمون بصوت عالٍ على طول الطريق . ومهما صرخت : « حافظوا على الفُسْحات فيما بينكم ! » فلا يفهمونني ويمشون عكس تعليماتي .

كنت مسروراً نوعاً ما من الذين يمشون في المقدمة حيث أضع الأكبر سناً ، والأكثر رصانة ، وهم يرتدون لباس المدرسة

الرسمي . ولكن في نهاية الصف تعم البلبلة والفوضى . ذلك يعود الى مجموعة من الأولاد المجانين المنبوشي الشعر ، المتسخي الأيدي ، الممزقي الثياب. لم أكن أجرؤ أن أنظر اليهم . ويقول لي السيد فيو المُتبسّم ـ بالنسبة لهذا الموضوع : « النهاية في حالة يُرثى لها » . لقد كان يمزح عندما يروقه ذلك . . . وبالفعل فإن مُؤخرة صفي تعيسة جداً .

هل تدركون يأسي لدى ظهوري في شوارع سارلاند نهار الأحد خاصةً وأنا بمعيّة أشخاص كأولئك ! فالأجراس تُقرع والشوارع ملأى بالناس . فنلتقي بطالبات ذاهبات الى القدّاس المسائي ، ونلتقي أيضاً ببائعات قُبّعات يعتمرن قلانس وردية اللون . ونمر برجال انيقين يرتدون سراويل رمادية . وكم من مرة اضطررت أن أمُرَّ بكل ذلك وأنا مرتدٍ ثياباً رثّةً وبمعيّة تلامذة مُضحكين . يا للعار ! بين أولئك الشياطين المُشعثي الشعر والذين آخذهم الى النزهة في المدينة مرتين في الأسبوع ، كان هنالك واحد ، نصف داخلي ، يفقدني الأمل بسبب قبحه وثيابه الرثّة والوسخة .

تخيّلوا طِرْحاً صغيراً ومُقرفاً ، صغيراً، لدرجة انه اصبح مُضحكاً وفوق كل ذلك بلا ظُرْف، وسخاً، شعره غير مُسرّح كما يجب، ثيابه غير لائقة، تفوح منه روائح الساقية. وبجانب تلك القبائح فهو يعرج بطريقة بَشِعَة.

لم يظهر بتاتاً على أوراق التسجيل في الجامعة تلميذ كهذا ،

هذا في حال كان من المسموح إعطاء هذا الشيء إسم تلميذ . إنه يمس بشرف المدرسة . أمّا أنا فقد كرهته . وعندما كنت أراه أيّام النزهات يتمايل في مُؤخّرة الصف بملاَحَةِ بطة فتيّة ، كنت أتمنّى بشدة أن أطرده ببضع رفسات لكي انقذ شرف وِحْدتي .

لقد أعطيناه لقب « بامبان » بسبب مشيته غير المنتظمة . لم تكن عائلة « بامبان » أرستقراطية ، وذلك كان واضحاً وضوح الشمس بالنسبة لتصرفاته وطريقته في الكلام وخاصة بالنسبة لعلاقاته المشبوهة في المنطقة . فجميع أولاد سارلاند الفاسقين كانوا أصحابه . وبفضله ، فعندما كنا نخرج في نزهة يتعقّبنا دوماً في مُؤخّرة الصف ، مجموعة من المتشردين فيمشون على أيديهم ثم على أرجلهم كالدولاب ، وينادون « بامبان » باسمه ، يشيرون إليه بإصبعهم ، ثم يقذفونه بقشر الكستنا ، ويقومون بشيطنات أخرى . كان ذلك يُسليٍّ أطفالي كثيراً . أما أنا فكنت لا أضحك بل أقدّم كل أسبوع إلى رئيس المدرسة تقريراً مُفصَّلاً عن التلميذ « بامبان » وعن الفوضى والبلبلة اللذين يسببهما وجوده .

لسوء الحظ بقيت تقاريري دون إجابة وكنت دائماً مضطراً أن أظهر في الشوارع برفقة السيد بامبان ، وهو وسخاً ويعرج أكثر من قبل .

وذات أحد ، أحد جميل زاد من جماله العيد والشمس الساطعة ، أقبل بامبان إلى النزهة وهو في حالة أرعبتنا جميعاً ، لا

يمكن ان تروا امراً مشابهاً . يداه سوداوان ، حذاؤه دون شريط ، وهو ممرَّغ بالوحل لغاية رأسه ، ولقد أضحى تقريباً دون سروال . . . مَسْخٌ !

والُمضحِك في الأمر هو انهم بالطبع جمّلوه في ذلك اليوم قبل أن يُرسلوه اليَّ . وشعره اُلمسرَّح بطريقة أَلْيَقْ من العادة ، كان لا يزال مُتصلِّباً من المرهم الذي دُهِنَ به . وعِقْدَةْ ربطة عنقه تخالها مرّت بين أصابع والدته . ولكن قبل أن يصل الى المدرسة ، لا بُدَّ انه مرّ ببضع سواقٍ ! . . . . لقد تمرَّغ بامبان في جميع تلك السواقي .

وعندما رأيته يأخذ مكانه بين الآخرين ، هادئاً وباسمًا ، كأن شيئاً لم يكن ، ارتجفت من الإشمئزاز والغضب . فصرخت قائلاً : « إذهب بعيداً ! » ظن بامبان انني أمازحه فظلَّ يبتسم . كان يحسب في ذلك اليوم انه جميل جداً .

فصرخت من جديد موجّهاً كلامي إليه : « إذهب من هنا ! إذهب من هنا » . فنظر إليَّ بحزن وطاعة ، وكانت نظرته متوسلة . لكنني غدوت عديم الشفقة فتفرَّق التلامذة وبقي وحده دون حراك وسط الشارع .

ظننتني تخلصت منه طيلة النهار ، ولكن عند خروجنا من المدينة إلتفتُّ الى الوراء بعدما سمعت ضحكات ووشوشات آتية من الخلف . فعلى بُعْدِ أربع أو خمس خطوات كان بامبان يتبعنا

برصانة . قلت للتلميذين في المقدمة : « ضاعفا من سرعتكما » . ففهم التلامذة ان عليهم أن يقوموا بدُعابة مع الأعرج فبدأوا يركضون بسرعةٍ جنونية .

ومن وقتٍ إلى آخر كانوا يلتفتون وراءهم ليروا إذا كان في وسع بامبان اللحاق بهم ، فيضحكون عند رؤيته هناك ، بعيداً جداً ، كبيراً كقبضة اليد وهو يخبُّ في غُبار الطريق وسط باعة الحلوى وشراب الليمون .

لقد وصل هذا المسعور الى « الحقل » معنا وتقريباً في الوقت نفسه . لكنه غدا شاحباً من التعب ويجرُّ رجله بطريقة تستدرُّ الشفقة . تأثرت كثيراً وخجلت من قساوتي ، ثم دعوته بلطف لكي يجلس قربي ، كان يرتدي قميصاً صغيراً وبالياً ذا مرّبعات حمراء ، تماماً كقميص « الشيء الصغير » في مدرسة ليون .

وللحال عرفته ذاك القميص ، وقلت في نفسي : « أيها البائس ، ألا تخجل من نفسك ؟ ولكن هذا أنت ، هذا هو « الشيء الصغير » الذي تتلهّى بتعذيبه » . ورحت أحبُّ من كل قلبي هذا المسكين المُعْدَم ، بعد ما فاضت دموعي في داخلي .

جلس بامبان على الأرض لأنه كان يتألم من رجليه . فجلست الى جانبه . تحدثت إليه ، إشتريت له برتقالة . . . ووددتُ أن أغسِل رجليه .

أصبح بامبان صديقي منذ ذلك اليوم . وعلمت عنه أشياء مُشفِقة . . . هو ابن بيطار سمع أينما كان بفوائد التربية والثقافة ، فعَمِلَ المستحيل ليُرسل ولده الى المدرسة ، كتلميذ نصف داخلي . ولكن للأسف لم يكن بامبان مؤهلاً للمضي في المدرسة ، فلم يستَفِدْ شيئاً .

وفي اليوم الذي دخل إلى المدرسة ، أُعْطِي نموذجاً من العصيّ وقيل له : « إرسم عصياً » . ومنذ سنة لا يزال بامبان يرسم العصي . يا إلهي ! ما نوع تلك العصيّ ؟ . . . انها مِعوجّة ، وسخة ، عرجاء ، أو تعرج قليلاً ، عِصيّ على غرار بامبان .

لم يكن يهتم به أحد . وهو لا ينتمي بنوعٍ خاص إلى أي واحدٍ من الصفوف . إجمالاً يدخل الى الصف الذي يرى بابه مفتوحاً . ذات يوم وُجِد وهو يرسم عصيّه في صف الفلسفة . . . إن بامبان هو حقاً غريب الأطوار . . .

أتأمّله أحياناً خلال الدرس فأراه مُنحنياً على ورقته، يتصبّب عرقاً ، ينفخ بفمه ، يخرج لسانه ، ويمسكُ ريشته بكلتّي يديه ، ثم يشدُّ بكل قوّته وكأنه يريد أن يخترق الطاولة . . . كلما أراد أن يرسم عصا حبّر ريشته من جديد ، وعند نهاية كل سطر يُدخل لسانه ويرتاح وهو يفرك بيديه .

وبعدما أصبحنا صديقين عمل بامبان بمزيد من النشاط .

وكان حالما ينتهي من كتابة صفحة ، يستعجل الوصول الى منبري على يديه ورجليه ، ثم يضع تحفته أمامي دون ان يتكلم . فأربتُ على كتفه بعطف وأقول له : « عظيم ! » في الحقيقة كان ذلك قبيحاً جداً ، ولكن لم أشأ تثبيط همته .

ورويداً رويداً راحت العصيّ تمشي مُستقيمة ، والريشة تبصق أقل من السابق ، وقلتّ نسبة بُقَعْ الحبر على الدفاتر . . . واعتقد انه كان في وسعي أن أُدرّسه شيئاً وأن يحفظه عن ظهر قلب . ولكن لسوء الحظ فرّقنا القَدَرْ . فإن مُدرّس الصفوف المتوسطة قد ترك المدرسة . ورفض رئيس المدرسة توظيف مُدرس جديد لأننا اقتربنا من نهاية السنة الدراسية . ثم حلّ مكاني رجل ذو لحية وهو متخصص في علم البيان . أما أنا فقد سُلِّمت مهمة نظارة الصف المتوسط .

إعتبرت هذا الإجراء كارثة .

أولاً ، إن هؤلاء التلامذة الجُدُدْ يرعبونني . لقد رأيتهم يلعبون أيام نزهاتنا في « الحقل » . وينقبض قلبي لمجرَّد التفكير في أني سأعيش دوماً معهم .

ثم سأضطّر الى ترك أطفالي، أطفالي الأعزاء الذين أحبهم كثيراً... كيف سيعاملهم رجل البيان ذو اللحية؟... ماذا سيحلّ بباميان؟ لقد كنت بالفعل حزيناً.

وعندما حان وقت رحيلي تأسّف اطفالي بدورهم. وعندما

أديت آخر نظارة لي في ذلك اليوم، وما إن قرع الجرس، حتى سَادَتْ لحظة تأثر في قاعة الصف. أراد الجميع أن يُقبِّلوني. وللحقيقة فإن البعض منهم وجدوا أشياء حلوة قالوها لي.

وماذا فعل بامبان؟ لزِمٍ الصمت. ولكن لحظة خروجي من الصف إقترب مني وقد احمّر وجهه، ثم وضع في يدي بجلال دفتراً أنيقاً جداً، ومليئاً بالعصيّ التي رسمها على نيّتي.

مسكين بامبان!

VII

النّاظر

إذاً، تسلمت نظارة الصف المتوسط المؤلَّف من خمسين شريراً غريبي الأطوار. فهم جبليّون، خدودهم سمينة وتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والرابعة عشرة. وهم أبناء مزارعين إغتنوا، أرسلهم أهلهم الى المدرسة ليصبحوا بورجوازيين على أن يدفعوا مئة وعشرين فرنكاً كلّ ثلاثة أشهر.

غليظون ، وقحون ومتكبّرون ، ويتكلّمون فيما بينهم بلهجتهم « السفونوليّة » الصّلبة والتي كنت لا أفهم منها شيئاً . كانوا تقريباً جميعهم يتميّزون بذلك القُبح الخاص بالطفولة التي تنمو : أيادٍ ضخمة وحمراء مُتورّمة ومُشقّقة من البرد ، أصوات ديوك فتيَّة مُزكِّمة ، نظرة مُتوحّشة ، وفوق كل ذلك إكتسبوا عادات التلاميذ وألاعيبهم . . . كرهوني بسرعة ودون أن يعرفوني . فأنا بالنسبة إليهم العدو بحكم وظيفتي كناظر . وحالما تسلمث مَنصِبي نشبت الحرب بيننا ، حرب دائمة ضارية ، دون هدنة .

آه ! يا للأطفال القُساة، وكم سبّبوا لي من آلام !

أريد أن أتكلم عن تلك الحَقَبَة من حياتي من غير حقد . لقد غَدَتْ تلك الأحزان بعيدة جداً عنّا ! . . . ولكن لا ! لا أستطيع أن نسى . وأكبر برهان على ذلك هو انه في الوقت الذي اكتب هذه السطور أشعر بيدي ترتجف من الحُمّى ومن شدّة التأثر وكأن الماضي قد رجع .

أما هُمْ فأعتقد أنهم لا يفكرون فيَّ ولا يتذكرون « الشيء الصغير » ولا حتى تلك النظارة الجميلة ذات الزجاجة الواحدة، والتي اشتراها ليبدو أرصن . تلامذتي أصبحوا الآن رجالاً وقورين . ولا شك أن « سوبارول » بات كاتب عدل . في مكان ما ، هناك في الأعالي في « السيفان » و « فايون » (الأصغر سناً) كاتباً في المحكمة ، و « لوبي » صيدلياً ،

و« بوزانكيه »بيطرياً . لهم مراكز وكروش وكل ما يلزم .

ولكن احياناً عندما يلتقون في النادي أو في ساحة الكنيسة يتذكّرون أيام المدرسة الجميلة والطيّبة الذكِر حينذاك قد يجيء أحد منهم على ذكري .

ـ ولكن يا حضرة كاتب المحكمة ألا تتذكّر « أيسات » الصغير ، الناظر في « سارلاند » بشعره الطويل ووجهه الشديد الشحوب ؟ كم أزعجناه بُدُعاباتنا !

صحيح أيها السادة ، لقد تحمَّل الكثير من الدُعابات ، وناظركم القديم لم يَنْسها بعد . . .

آه ! يا للناظر التعيس ! كم اضحككم ! وكم أبكيتموه ! . . . أجل بكى كثيراً وذلك كان يزيد من بريق دعاباتكم .

كم من مرةٍ ، وفي نهاية نهار مُفعم بالعذاب ، جَثَم البائس في سريره وعضَّ على غطائه ، لكي لا تسمعوا بكاءه ! . . .

إنه فظيع أن يعيش المرء محاطاً بالشر وسوء النية ، أن يظل على خوف دائم ، وعلى حذر دائم وايذاء دائم ، وان يكون باستمرار على هذا ، انه لشيء فظيع ان يعاقب المرء آخرين ـ فالانسان يرتكب الظلم ولو غصباً عنه ـ انه لشيء فظيع للمرء أن نُشكّك دائمًا فنرى الفخاخ أينما كان ، فلا نأكل بأطمئنان ولا نغفو بارتياح ، ونقول في سِرِّنا حتى في أوقات الهدنة : « آه ! يا إلهي ! . . . ماذا سيفعلون بي الآن ؟ » .

ولو عاش دانيال ايسات مئة عام ، فلن ينسى أبداً ما عاناه في مدرسة « سارلاند » منذ اليوم الأول المشؤوم الذي دخل فيه الى الصف المتوسط .

ولكن لا أريد أن أكذب ، فقد ربحت شيئاً بعد ما بدّلتُ صفي : أصبحت الآن أرى العينين السوداوين .

مرتين في النهار ، وخلال ساعات الإستراحة ، كنت أراهما من بعيد وهما تشتغلان وراء نافذة من الطابق الأول الذي يطلُّ على ملعب المتوسّطين في العمر ، كانت العينان السوداوان هناك أكثر سواداً وأكثر إتساعاً من ذي قبل ، وصاحبتهما منحنية منذ الصباح ولغاية المساء على خياطةٍ لا نهاية لها . ذلك انها تخيط ولا تملّ الخياطة . لقد جاءت بها الساحرة العجوز من دار الايتام لأجل ان تخيط ولا تعمل شيئاً إلا الخياطة . لم تكن صاحبة العينين السوداوين تعرف والدها ولا والدتها ، وكانت طوال السنة تخُيط دون انقطاع وتراقبها الساحرة المُرعبة ذات النظارات التي لا ترحم ، وهي تغزل بمغزلها إلى جانبها .

كنت اكتفي بالنظر إليها فيبدو وقت الاستراحة قصيراً جداً . لو استطعت لأمضيت عُمري تحت تلك النافذة المُبَاركة التي تعمل وراءها ذات العينين السوداوين . هي أيضاً شعرت بوجودي ، فكانت من وقت إلى آخر تتوقف عن العمل وتنظر إلَّي ، فتتكلم نظراتنا دون أن نتكلّم .

ـ يا سيد أيسات أنت حزين جداً .

ـ وأنت أيضاً ذات العينين السوداوين .

ـ أنا بلا أب وبلا أم .

ـ ـ أما أنا فوالدي ووالدتي يسكنان بعيداً .

ـ لو تعلم كم هي مُرعبة الساحرة ذات النظارات .

ـ وأنا أُعاني كثيراً من الأولاد .

ـ تشجّع يا سيد أيسات .

ـ تشجعي يا ذات العينين السوداوين الجميلتين .

هذا كل ما يدور بيننا من أحاديث . أخشى دائمًا ظهور السيد فيو مع مفاتيحه . وهنالك وراء النافذة شخص يُرعب أيضاً العينين السوداوين . بعد مُحادثة تستمر دقيقة واحدة ، تنحني العينان السوداوان بسرعة وتُخيط من جديد تحت إشراف النظارات الكبيرة الضارية والتي يحيطُ بها إطار من الفولاذ .

أيتها العينان السوداوان العزيزتان ! لم نكن نتكلم سوى عن بعد مسافات طويلة وبنظرات خاطفة ، ورغم ذلك أحببتها بكل جوارحي .

لقد أحببت أيضاً الأب جرمان . والأب جرمان هو أستاذ الفلسفة . كانوا يعتبرونه غريب الأطوار ويخشاه الجميع في

المدرسة . حتى الرئيس يهابه . كذلك السيد فيو . فهو لا يتكلم كثيراً . يتكلم بسرعة وبصرامة ، يخاطب الجميع بصيغة المفرد ، يمشي بخطوات كبيرة ورأسه مرفوع ، وثوبه الكهنوتي مرفوع قليلاً ، ويصلصل مِهمازه كجندي في الخيالة . وهو قوي البُنية وطويل القامة . إعتقدت لفترةٍ طويلة أنه جميل . وذات يوم نظرت إليه عن كثب فلاحظت أن ذلك الوجه الشريف والذي يوحي القوة قد شوَّهه الجُدَريّ بشناعة . فأضحى مليئاً بالندبات ، كأنه « ميرابو » في ثوب كهنوتي .

يعيش الأب جرمان مُتجهِّمًا وبمفرده في غرفة صغيرة تقع في طرف المدرسة . ويدعى هذا المكان « المدرسة القديمة » لا يدخل أحد الى منزله باستثناء أَخَوَيْه . وهما شريران لا يعملان ، يدرسان في صفي . ويدفع الأب جرمان أقساطهما المدرسية . في المساء ، وعندما نمرّ في الملاعب لكي نصعد إلى غُرف المنامة نرى في العلاء ، في مباني « المدرسة القديمة » السوداء والمتهدمة ، ضوءاً صغيراً باهتاً يسهر : فذلك مصباح الأب جرمان . ومراراً أيضاً في الصباح ، وفيما أنا نازل لكي أُؤمن نظارة الساعة السادسة ، كنت أرى من خلال الضباب أن المصباح ما زال مُشتعلاً . لم ينم الأب جرمان . يُقال أنه يعمل على تأليف كتاب فلسفي .

بالنسبة إليَّ ، استلطفت هذا الكاهن الغريب الأطوار حتى قبل أن أعرفه . يجذبني وجهه القبيح والجميل الذي يشعّ

بالذكاء . ولكنني لم أجرؤ على الذهاب إليه ، لأنهم أخافوني بقصصهم عن غرابة تصرفاته وفظاظته . رُغم ذلك ولحسن حظي ، ذهبت إلى منزله .

ما هي الظروف التي حثتني على القيام بتلك الخطوة .

يجب أن تعلموا اني في ذلك الوقت كنت أتعمّق في تاريخ الفلسفة . . . عمل قاسٍ « للشيء الصغير » ! وذات يوم أردت أن أقرأ « كوندياك » . وليَكن الكلام بيننا سراً ، فإن هذا الرجل لا يستحق حتى ان نقرأه . وفلسفته لا أهمية لها . ولكنكم تعلمون جيداً اننا في ربيع العمر نحكمُ على الأشياء وعلى الأشخاص بطريقة معكوسة .

إذاً أردتُ أن أقرأ « كوندياك » . لا بُدَّ لي أن أحصل على كتاب « كوندياك » مهما كّلف الأمر . لسوء الحظ فإن مكتبة المدرسة لم تكن تملك أي كتاب من مؤلفاته ، وباعة الكتب في سارلاند لا يحتفظون بكتب هذا الفيلسوف . فقررت أن أقصد الأب جرمان . لقد قال لي شقيقاه أن غرفته تحتوي على أكثر من ألفي مُجلَّد ، مما جعلني أتأكّد من انني سأجد كتاب أحلامي . ولكن هذا الرجل الغريب يُرعبني ، لِذا ما من شيء أقنعني بالصعود الى خلوته إلاَّ شغفي بالسيد كوندياك .

عندما وصلت أمام باب غرفته ، كانت رجلاي ترتعشان من الخوف . . . قرعت مرتين وبلطف متناهٍ . .

فأجاب صوت جهوري :

ـ أدخل !

وجدت الأب جرمان الرهيب جالساً كمن يركب الخيل على كرسي واطيء ، رجلان ممددتان ، وثوبه الكهنوتي مرفوع ، كاشفا بذلك عن عضلات ضخمة ناتِئة بقوة داخل جوارب من الحرير الأسود . كان متكئاً على ظهر كُرسيّه ، يقرأ كتاباً غلافه أحمر ويدخّن بِتَباهٍ غليوناً صغيراً قصيراً أسمر اللون ، ذاك النوع الذي يُدعى « مُحرق الفم » .

قال لي دون ان يترك تقريباً الكتاب يغيب عن نظره :

ـ آه هذا أنت ! .... صباح الخير ! كيف حالك ؟ .... ماذا تريد ؟ ...

إن صوته الحاسم ، والطابع الُمتزمّت الذي يهيمنٌ على تلك الغرفة الُممتلِئة بالكتب ، وطريقته غير اللائقة في الجلوس ، وذاك الغليون الصغير الذي يمسكهُ بأسنانه ، كل ذلك أرْهبني كثيراً .

استطعت ان أفسّر له رُغم تعلثُمي ، هدف زيارتي ، ثم طلبت منه أن يُقرِضني كتاب كوندياك العظيم .

ـ أجابني الأب جرمان مُبتسمًا :

ـ كوندياك ! تريد أن تقرأ كوندياك ! يا لغرابة تلك الفكرة ! . ألا تُفضّل أن تدخن معي غليوناً ! هاتِ الغليون

المعلّق هناك على الحائط وأشعله . . . سترى أنه أفضل بكثير من كل فلاسفة الأرض .

فأشرتُ له برفض عَرْضِهِ فيما أحمرَّ وجهي .

ـ ألا تريد أن تدخّن ؟ . . . على كيفك يا ولـدي . . . فكتاب كونديياك موجود فـوق على الـرف الثالث شمـالاً . . . بإمكانك أن تأخذه ، إنني أقْرِضك إياه . ولكن سأقطع أذنيك أن أتلفته .

أخذت كتاب كونديـاك من على الـرف الثالث شمـالاً ، وهممتُ بالإنسحاب حينما أبقاني الأب جرمان قائلاً وهو يحُدِّق في عيني :

ـ إنك إذن تدرس الفلسفة ؟ هل تؤمن بها حقاً ؟ . . . إنها حكايات يا عزيزي ، حكايـات صَرْفـة ! وأوشكت أن اصبح بحق أستاذ فلسفة ! ولكن بالله عليك ماذا أدرّس ؟ لا شيء ، العَدَمْ . . . لو عينوني ناظراً عاماً على النجوم أو مُراقباً على دخان الغليون . . . لما اختلف الأمر ، آه ! يضطر المـرء أحيانـاً إلى مُزاولة مِهَنْ فريدة من نوعها ليكسب عيشه . . . أنت أيضاً في وضع مماثل ، أليس كذلك ؟ . . . . أوه ! ليس عليك أن تحمرَّ خجلاً . أعني انك لست سعيداً ، أيها الناظر الصغير المسكين ، فالأولاد جعلوا من حياتك جحيمًا .

هنا ، توقف الأب جرمان لحظة . بدا شديد الغضب فيما

هو يهزُّ غليونه على ظفره بحنق . أما أنا فقد تأثرت جداً حالما سمعت هـذا الرجـل الوقـور يرأف لحـالي ، فوضعت كتـاب كونديياك أمام وجهي لكي اخفي الدموع التي اغـرورقت بها عيناي .

ثم تابع الأب حديثه قائلاً :

ـ على فكرة ، لقد نسيت أن أطرح عليك هذا السؤال : هل تحب الله ؟ . . . يجب ان تحبه يا عزيزي وتؤمن به وتصلي له بحزم ، والا سيصعُب عليك الأمر وستضيع . . . ثلاثة أدوية في إمكانها مُعالجة آلام الحياة الجسيمـة : العمل ، الصـلاة ، والغليون . الغليون التُرابّي القصير ، لا تنس ما قلته لك . . . أما الفلاسفة فلا تعتمد عليهم ، فلن يواسوك أبداً ولن يُفرّجوا عن أحزانك .صدقني ، لقد مررت بالتجربة نفسها .

ـ إنني أصدقك يا حضرة الأب المحترم .

ـ والآن ، إذهب من هنا ، إنك ترهقني . . . عندما تريد كُتباً فما عليك إلاّ أن تأتي وتأخذها . مُفتاح غرفتيَ هو دائمًا في الباب ، والفلاسفة لا يبرحون الرف الثالث على الشمال . . . لا تكلمني بعد الآن . . . الوداع !

ثم عاد الى قراءة كتابه وتركني أخرج دون ان ينظر إلَّي .

ومنذ ذلك اليوم أصبح جميع فلاسفة الكون تحت تصرفي ،

فأدخل غرفة الأب جرمان دون أن أقرع الباب وكأن المكان هو لي. وعندما آتي غالباً ما يكون الأب في صفه وغرفته خالية ، والغليون الصغير ينام على حافة الطاولة وسط صحائف الكتب ذات الغلاف الأحمر ، وبين عدد لا يُحصى من الأوراق التي كتب عليها بخط لا يُقرأ بسهولة.أحياناً أيضاً يكون الأب جرمان موجوداً . أجده يقرأ ، يكتب ، ويمشي طولاً وعرضاً ، بخطوات كبيرة . عندما أدخل أقول بصوت خجول ؛

ـ صباح الخير يا محترم !

وغالباً ما لا يردُّ على تحيتي . فآخذ فيلسوفي من على الرّف الثالث شمالاً وأذهب دون أن يُشعرني بأنه لاحظ وجودي . . . ولغاية نهاية السنة لم نتحادث إلا نادراً . هذا لا يَهُمّ ! إحساس داخلي يقول لي أننا صديقان .

لكن العطلة الصيفية دَنَتْ . صرنا نسمع طوال النهار التلامذة الذين يأخذون دروساً في الموسيقى يُردِّدون « البولكا » وألحان المسيرة التي ستُقدّم نهار توزيع الجوائز. ألحان « البولكا » أفرحت الجميع . في المساء وفي آخر ساعة تدريس ، تخرج مجموعة من الروزنامات الصغيرة من الطاولات ، وكل تلميذ يحذف على روزنامته النهار الذي انتهى ، وكأنه يقول : « نهار آخر ولىّ ! » . الملاعب ممتلئة بالأخشاب المُعَدَّة للمنبر، والغبار يُمسح عن المقاعد والسُجّاد . . . لقد ولىّ العمل والنظام ولكن إستمر فقط للنهاية حقد الناظر واستمرت « الحرتقات » ضده .

وأخيراً جاء اليوم الكبير. لقد حان الوقت، لم أعُدْ أحتمل. وُزّعت الجوائز في ملعبي، ملعب الصف المتوسط... ما زلت أتذكّره جاء بخيمته المُزركشة، وجدرانه المُغطاة بأقمشة بيضاء، وأشجاره الكبيرة الخضراء الممتلئة بالرايات. وتحت كل ذلك خليط فوضويّ من الخُوَيْذات والقلانيس العسكرية، والقبّعات المزينة بالورود، والقبعات المطاطة المُطرّزة، الريش، الأشرطة، زينات مختلفة وباقات ريش.... وفي أقصى الملعب، وعلى مِنبرٍ طويل جلس أعضاء إدارة المدرسة على مقاعد من المخمل الأحمر الداكن... أوه! كم يشعر المرء بنفسه صغيراً أمام ذلك المنبر! فهو يزوّد من يقف عليه بنظرة احتقار وتفوّق. لذلك ما من أحد من أولئك السادة احتفظ بشكل وجهه المألوف.

كان الأب جرمان أيضاً على المنبر ولكنه بدا غير مبالٍ بذلك. فهو مُمَدَّدٌ على مقعده، رأسه مُنحنٍ إلى الوراء ولا يُعير اهتماماً لمن هم قربه، بل يبدو كأنه يتبع بناظره، ومن خلال أوراق الشجر، دُخان غليون خيالي.

أمام المِنبر مُباشرةً، وُضِعت فرقة الموسيقى: فالأبواق تلمع تحت أشعة الشمس. جلس التلامذة على مقاعد خشبية وهم محصورون، أما الأساتذة فقد جلسوا وراءهم ليحافظوا على النظام. ويأتي الأهالي وراء الأساتذة، ثم نرى أستاذ الصف الأول ثانوي، يُساعد السيدات في إيجاد أماكن للجلوس، وهو

يصرخ : « طريق ! طريق ! » ، وأخيراً وفي وسط هذا الجمع الغفير ، مفاتيح السيد فيو التي تركض في الملعب من طرف إلى آخر . فنسمع رنينها يُمْنةً وشمالاً ، هنا ، أينما كان ، وفي وقت واحد .

انطلق الاحتفال والطقس حار ، لا نسمة هواء تحت الخيمة . . . بين الحضور سيدات سمينات قرمزيات اللون ، يغفون في ظل مراوحهن ، وسادة صُلْع يجفّفون رؤوسهم بمحارم حمراء . كل شيء أحمر : الوجوه ، السجّاد ، الرايات والمقاعد . . . . القيت علينا ثلاث خطب صُفّق لها كثيراً ، أما أنا فلم أسمعها . هناك ، فوق ووراء نافذة الطابق الأول ، صاحبة العينين السوداوين تخيط وهي جالسة في مكانها المألوف ، وروحي تتوق إليها . . . مسكينة ذات العينين السوداوين ! حتى في هذا النهار لم تَدَعْها الساحرة ذات النظارات تُعطِّل عملها .

بعد ما أُعلِن آخر إسم حصل على إمتياز ، غزفت فرقة الموسيقى لحناً إحتفالياً ، وتفرَّق الجميع ، فعمَّت الفوضى . نزل الأساتذة عن المنبر ، وقفز الطُلاّب من فوق مقاعدهم لُملاقاة عائلاتهم . الجميع يتعانقون وينادون بعضهم البعض : « تعال من هنا ! » . وكذلك شقيقات المتخرجين وهن فخورات بأكاليل أخوتهن ، وتُسمع بين الكراسي حفحفة فساتين الحرير . . . . وراء شجرة وقف « الشيء الصغير » دون حراك ينظر الى السيدات الجميلات اللواتي يمررن أمامه ، وهو نحيل وخجول بلباسه البالي .

وروويداً رويداً فَرُغَ الملعب . أمام الباب الكبير وقف رئيس المدرسة والسيد فيو يلاطفان الأولاد وينحنيان أمام الأهالي لتحيتهم .

ويقول رئيس المدرسة وهو يتبسَّم بتدلُّلٍ :

ـ مُلتقانا في السنة القادمة !

وترن مفاتيح السيد فيو بلطف زائد وكأنها تقول : عودوا إلينا أيها الرفاق الصغار في السنة القادمة » .

أما الأولاد فيستسملون الّي مقبليهم بتراخٍ ثم يعبرون السلالم بقفزة واحدة .

بعضهم يصعد في عربات جميلة مُزدانة بشعارات النّسب ، حيث الأمهات والأخوات يُرّتبن تنانيرهن الكبيرة لكي يفسحن المكان . . . ثم يذهبون إلى القصر . . . . سيرون من جديد حدائقهم ، أراضيهم الخضراء ، أرجوحتهم تحت أشجار الطّلْح ، الحظائر التي تعجُّ بالعصافير النادرة ، بركة المياه والإوزتين ، ثم الشرفة الكبيرة المُحاطة بالدرْبزين وحيث يأخذون شراباً كل مساء .

وبعضهم الآخر يصعدون في عجلات ذات مقعد واحد الى جانب فتيات جميلات ضاحكات وعلى رؤوسهن مناديل بيضاء ، تجلس المزارعة التي يُحيط بجيدها سلسلة ذهبية ، وتقود العربة . . . إجلدي الخيل يا «ماثورين» إننا عائدون الى

المزرعة ، سنأكل الإجاص ، ونشرب النبيذ المُعطّر ونصطاد العصافير بالدّبق طول النهار ، ونتمرَّغ في العَلَف العابق برائحة جميلة .

يا للأولاد السُعداء ! إنهم ذاهبون، جميعهم منصرفون . . . . آه ! ليتني استطعت أن أذهب أنا أيضاً . . . .

VIII

العينان السوداوان

أصبحت المدرسة الآن خالية . لقد ذهب الجميع . . . . ومن طرفٍ إلى آخر في غرف المنامة ، تشنُّ كتائب من الجرذان الكبيرة حملاتها في وضح النهار . جفَّت المحابر في قعر الطاولات ، وعلى أشجار الملعب أقام البلابل إحتفالاً . ولقد دعت هذه كل رفاقها في المدينة ، في الأسقفية وفي إدارة المدرسة . ومن الصباح لغاية المساء لا نسمع سوى تغريدها الذي يُصِمُّ .

«الشيء الصغير» يسمعها وهو يعمل في غرفته في الطابق العلوي . احسنوا إليه بأن سمحوا له بالبقاء في المدرسة خلال

العطلة الصيفية . فأستفاد من ذلك الوقت ليـدرس بإسهـاب الفلاسفة الإغريق . ولكن الطقس حار جداً في الغرفة والسقف واطىء للغاية ، فكاد يختنق . . . النوافذ دون مصاريع ، تدخل الشمس كمِشعل وتحرق كل شيء . يتشقَّق جبس الأخشاب ثم يقع . ذبابات كبيرة أثقلتها الحرارة فغفت وهي مُلتصقة بزجاج النوافذ . . . أما « الشيء الصغير » فيبذل مجهوداً كبيراً لكي لا ينام . ثَقُل رأسه فكأنه كتلة حديد ، وجفناه يخفقان .

دانيال أيسات ، عليك أن تعمل ، تجب إعادة بناء منزل والديك . . . ولكن لا ! لا يستطيع أن يشتغل . . . فأحـرف الكتاب تتراقص أمامه . ثم بدأ الكتاب يدور ، ثم الطاولة ، ثم الغـرفة . ولكي يتغلب عـلى هـذا النعـاس الغـريب ، نهض « الشيء الصغير » ومشى خطوات . وما ان وصل أمام الباب حتى تمايل ثم هوى أرضاً ككتلة ثقيلة . لقد صعقه النعاس . البلابل تُغرّد في الخارج ، والزيزان تغني بصوت عالٍ . أشجار الدلْب التي غَدَتْ بيضاء من الغبار تتقشَّر تحت أشعة الشمس وهي تمدُّ أغصانها المتعددة .

رأى « الشيء الصغير » حلمًا غريبـاً . خيل إليـه ان ثمة شخصاً يقرع باب غرفته ، وان صوتاً رائعاً ينـاديه بـاسمه : « دانيال ، دانيال ! . . . لقد عرف ذلك الصوت الـذي كان يصرخ سابقاً وبالنبرة ذاتها : « جاك ، أنت حمار ! » .

تضاعفت الضربات على الباب : « دانيال ، عزيزي دانيال . أنا والدك إفتح بسرعة » .

آه ! كم هو رهيب هذا الكابوس . أراد « الشيء الصغير » أن يجيب وان يفتح الباب . إتكأ على مرفَقه ، لكن رأسه كان ثقيلاً ، فوقع من جديد وفقد وعيه . . . .

عندما عاد الى وعيه ، كم كانت دهشته كبيرة بعدما وجد نفسه في سرير ناصع البياض ، مُحاطاً بستائر كبيرة زرقاء تنشر الظلال حولها . . . ضوء ناعم وغرفة هادئة . لا تسمع سوى تكتكة الساعة ورنين مِلعقة في وعاء صيني . . . لا يعرف « الشيء الصغير » في أي مكان هو . ولكنه مرتاح جداً . فُتِحت الستائر فأطل السيد أيسات الأب وفي يده فنجان ، ثم انحنى نحو « الشيء الصغير » ببسمة طيبة وعيون تملؤهما الدموع . في وسع « الشيء الصغير » أن يُكمل حلمه .

ـ أهذا أنت يا أبي ! أحقاً هذا أنت ؟ .

ـ أجل يا دانيال ، أجل يا طفلي العزيز هذا أنا .

ـ أين أنا ؟

ـ أنت في بيت المرضى منذ ثمانية أيام . . . لقد شفيت الآن ، وكنت مريضاً جداً . . .

ـ ولكن يا أبي كيف جئت الى هنا ؟ قبّلني ثانية ! . . . آه !

لمجرد رؤيتك أشعر كأنني ما زلت أحلم .

قبَّله السيد أيسات الأب وقال له :

ـ هيا ! ضَعْ على نفسك الغطاء ، وكن عاقلاً . . . لا يريد الطبيب أن تتكلم .

ولكي يمنع الولد عن الكلام ، تكلّم الرجل الطيب طول الوقت . . . .

ـ تخيل انه منذ ثمانية أيام أرسلتني شركة تصنيع النبيذ لكي أقوم بجولة في « السيفان » ، فرحت كثيراً ، تلك كانت فرصة مناسبة لرؤية عزيزي « دانيال » ! وصلت إلى المدرسة . . . نادوك ، بحثوا عنك . . . . لا أثر « لدانيال » ! إستدليت على غرفتك ، المفتاح موجود في الداخل . . . قرعت ، فلم يجبني أحد . كسرت الباب بعدما رفسته بقدمي ، فوجدتك مُمَدَّداً على الأرض ومحموماً جداً . . . آه ! يا ولدي المسكين، كنت مريضاً للغاية ! بقيت تهذي خمسة أيام ! لم أتركك لحظة واحدة . . . كنت تهذي باستمرار ، وتتكلم باستمرار عن إعادة بناء المنزل ، قل لي أي منزل ؟ . . . وتصرخ : « لا أريد مفاتيح ، أنزعوا المفاتيح من الأقفال ! » . تضحك ؟ أقسم لك انني لم أضحك بتاتاً . يا إلهي ! لقد جعلتني أمضي ليالي مُرعبة ! . . . أتفهم معنى ذلك ! . . . والسيد فيو ، السيد فيو أليس كذلك ؟ أراد أن يمنعني من النوم في المدرسة ، واستشهد بالنظام . . . آه .

النظام ! وبعد ، هل أعرفه أنا هذا النظام ؟ ظن انه سيخيفني عندما لوَّح بمفاتيحه أمامي . ولكنني وضعته عند حدِّه بلباقة .

إرتعش « الشيء الصغير » أمام تصرف السيد أيسات الجريء . ثم نسي مفاتيح السيد فيو وسأله : أين أمي ؟ » باسطاً ذراعيه وكأن أمه هي هنا ، في متناول يده . . . .

أجاب السيد أيسات بغضب : لن تعرف شيئاً إذا رفعت الغطاء عنك . هيا ! تغطَّ . . . والدتك بخير ، فهي عند العم باتيست .

ـ وأين جاك ؟

ـ جاك ؟ ليس غير حمار ! . . . عندما أقول حمار ، تفهم ما أعني . انها مجرد طريقة في الكلام . . . فجاك ولد شجاع ومجتهد ، وعكس . . . اللعنة ! . . . لا ترفع الغطاء عنك ! . مركزه جيّد . . ولكنه يبكي دائمًا . ومع ذلك فهو سعيد جداً . إتخذه مديره ككاتب عنده . ليس عليه سوى أن يكتب ما يُملي عليه . . . إنها وظيفة مريحة . . .

ـ مسكين جاك ! حُكِم عليه ان يظل طول حياته يكتب ما يُملى عليه . . .

ضحك « الشيء الصغير » وهو يقول ذلك . ضحك من كل قلبه ، وضحك السيد أيسات بعدما رآه يضحك . ثم أنبه بسبب ذلك الغطاء اللعين الذي لا يثبت في مكانه . . .

أوه ! طوبى لك يا بيت المرضى ! كم هي ساحرة تلك الساعات التي يُمضيها « الشيء الصغير » وسط ستائر سريره الزرقاء ! . . . . السيد أيسات لا يفارقه ، بل يبقى طول النهار جالساً الى جانبه . وكم يودُّ « الشيء الصغير » أن يبقى السيد أيسات معه دائمًا . . . . للأسف ! هذا مُستحيل . شركة تصنيع النبيذ في حاجة الى موظفها المتنقِّل . يجب ان يعود ، وأن يكمل جولته في « السيفان » .

بعد ذهاب والده ، بقي الأبن وحيداً ، في بيت المرضى الصامت . يمضي نهاره في القراءة وهو جالس في قعر مقعد كبير وُضِع قرب النافذة . في الصباح وفي المساء تجلب له السيدة كساني الشاحبة وجبات طعامه . يشرب « إلشيء الصغير » كوب الشورباء ، ويمتصّ جناح الفروج ويقول لها فقط : « شكراً سيدتي » . تلك المرأة تبدو مريضة ولا تعجبه . انه حتى لا ينظر إليها . . .

ولكن ، ذات يوم ، وبعدما قال جملته المُعتادة : « شكراً سيدتي ! بنبرة جافة كالعادة ودون ان يكفّ عن القراءة ، كم كانت دهشته كبيرة لدى سماعه صوتاً ناعمًا يقول له : «كيف حالك اليوم يا سيد دانيال ؟ » فرفع « الشيء الصغير » رأسه ، واحزروا من رأى ؟ . . . ذات العينين السوداوين ، ذات العينين السوداوين بنفسها أمامه دون حراك وباسمة ! . . . .

أعلنت لصديقها أن المرأة الشاحبة مريضة ، وأنها هي

كلفت مهمة خدمته . وأضافت وهي تخفض نظرها ، أنها تشعر بسعادة عارمة بعدما رأت السيد دانيال مُعافى . ثم انسحبت وهي مُنحنية ، وقالت أنها سترجع في المساء . وبالفعل رجعت ذات العينين السوداوين في المساء . ورجعت أيضاً صباح اليوم التالي ، كذلك مساء اليوم التالي . كان «الشيء الصغير» في غاية السعادة . فبارك مرضهِ ، ومرض المرأة الشاحبة وكل أمراض العالم . لو لم يمرض أحد ، لما توافرت له تلك المناجاة مع العينين السوداوين .

أوه ! طوبى لك يا بيت المرضى ! كم من ساعات جميلة يُمضيها « الشيء الصغير » المتعافى في مقعده الذي وُضِع قرب النافذة ! . . . في الصباح تمرُّ تحت أهداب العينين السوداوين ، مجموعة من الصفائح الذهبية التي تبرق عندما تشرق الشمس . وفي المساء ، تشعُّ تلك الصفائح بنعومة وتبعث في الظلمة التي تحيط بها ضوء كضوء النجمة . . . راح «الشيء الصغير» يحلم كل ليلة بذات العينين السوداوين ، ولم يعد يغمض له جفن . ومنذ بزوغ الفجر يهيىء نفسه لاستقبالها : يريد أن يبوح لها بأشياء كثيرة ! . . . ثم عندما تأتي لا يقول لها شيئاً .

هي تبدو مُتعجبة جداً من هذا الصمت . تأتي مراراً إلى بيت المرضى ، وتجد ألف عذر لتبقى قرب المريض ، آملة دوماً أن تراه يكلمها . ولكن هذا « الشيء الصغير » اللعين لم يكلمها .

أحياناً ، يتسلح بكل ما أوتي من شجاعة ويبـدأ حديثـه بجرأة قائلاً : « يا آنسة . . . ! »

حينذاك تلمع العينان السوداوان وتنظران اليه مع ابتسامة . ولكن حين يراها تبتسم بتلك الطريقة ، يضيع المسكين ويضيفـ بصوت مُرتعش : « أشكرك على إحسانك لي » . أو يقـول : « المَرَقة عظيمة هذا الصباح » .

عند ذلك تبدي ذات العينين السوداوين دلالاً خائباً وكأنها تقول : « ماذا ! هـذا كل مـا تريـد أن تقولـه ! » ، فتذهب متنهدة .

بعد ذهابها يحزن « الشيء الصغير » ويقول في نفسه :

« أوه ! منذ الغد سأكلمها ، سأكلمها لا محالة » .

وفي اليوم التالي تذهب قراراته في مهب الريح .

أخيراً ، بعد أن يئس . . . وبعدما أيقن أنه لن يجرؤ على البوح لها بما يجول في فكره ، قرَّر أن يكتب لها . . . وذات مساء طلب حبـراً وأوراقاً لكتـابة رسـالـة مهمـة ، أوه ! في غـايـة الأهمية . . . ولا ريب أن ذات العينين السوداوين قد حزرت مضمون تلك الرسالة . فهي شديدة الـدهاء ! . . . وبسـرعة ركضت وجلبت الحبر والورق فوضعتها أمام المريض ، ثم ذهبت وهي تضحك وحدها .

بدأ « الشيء الصغير » بالكتابة . فكتب طول الليل . وعندما أطلّ الصباح أدرك أن تلك الرسالة التي لا نهاية لها ، لا تحتوي سوى ثلاث كلمات ، تسمعونني جيداً ؟ . ولكن هذه الكلمات الثلاث هي أبلَغْ كلمات في العالم ، وهو متأكد من انه سيكون لها وقع كبير .

حذار الآن ! ذات العينين السوداوين آتية ! آتية الآن ! « الشيء الصغير » متأثر جداً . لقد هيأ رسالته مُسْبقاً وأقسم أن يسلمها إياها حالما تصل . . . إليكم كيف ستجري الأمور . تدخل ذات العينين السوداوين ، تضع المَرَقة والدجاج على الطاولة وتقول : « صباح الخير يا سيد دانيال » . حينذاك ، هو بدوره سيقول لها بسرعة وبشجاعة : « أيتها اللطيفة يا ذات العينين السوداوين هذه رسالة لك » .

ولكن صه ! . . . خُطَى عصفور في الممشى . . . ذات العينين السوداوين تقترب . . . يُمسك « الشيء الصغير » بالرسالة . يخفق قلبه ، سيموت . . . يُفْتح الباب . . . يا للهول ! . . . . عِوَض العينين السوداوين ظهرت الساحرة العجوز ، الساحرة الشمطاء المُرعبة ذات النظارات .

لا يجرؤ « الشيء الصغير » على طلب إيضاحات ، ولكنه مذعور . . . لِمَ لم ترجع ؟ انتظر المساء بجزع . . . للأسف ! . . . لم تَعُدْ أيضاً في المساء ، وكذلك في اليوم التالي ، وفي الأيام التي تلته ، لم ترجع قط .

لقد طردوا العينين السوداوين . ورجعوهما الى دار الأيتام حيث سيبقيان مسجونين مدة أربع سنوات ، أي حين تبلغ صاحبتهما سن الرشد . والسبب ان صاحبة العينين السوداوين كانت . . . تسرق السكر !

وداعاً أيتها الأيام الجميلة التي قضيتها في بيت المرضى ! لقد ذهبت العينان السوداوان ، وما يزيد الطين بلّة هو رجوع التلامذة . . . كم باكراً عاد الطَلَبة الى المدرسة . . . كم كانت العطلة الصيفية قصيرة ! . . .

ولأول مرة منذ ستة أسابيع نزل « الشيء الصغير » الى الملاعب شاحباً ، نحيلاً وصغيراً أكثر من أي وقت مضى . . . استفاقت المدرسة ، انهم يغسلون كل بقعة فيها . المياه تنساب من الأروقة ، وكالعادة ترتج مفاتيح السيد فيو بشراسة. سيد فيو الفظيع ، لقد استفاد من العطلة الصيفية لكي يُضيف بنوداً إلى نظامه الداخلي ، وزاد عدد مفاتيحه . وعلى « الشيء الصغير » أن يتصرف كما يجب ، وإلّا . . . .

كل يوم يأتي تلامذة . . . نرى من جديد أمام الباب العَرَبات ذات المقاعد ، والهوادج التي جاءت يوم توزيع الجوائز . . . تخلّف بعض القُدامى عن الحضور ولكن حلّ مكانهم طُلّاب جُدُدْ . تكوّنت فئات الطلّاب من جديد . هذه السنة كالسنة الماضية سيهتم « الشيء الصغير » بالصف المتوسط . لقد بدأ الناظر المسكين يرتجف . ولكن من يدري ؟ لرُبَّما الأطفال هذه السنة هم أقل سوءاً.

في صباح اليوم الأول من المدرسة ، تُعزف في الكنيسة موسيقى إحتفالية . فهذا قداس الروح القدس . . ها هو حضرة رئيس المدرسة بلباسِهِ الأسود الجميل وقد علق غصن النخيل الصغير الفضي في عُرْوَتِهِ . وقفت وراءه هيئة الأساتذة العُلّيا بلباسها الإحتفالي : أساتذة العلوم يضعون فروة صغيرة برتقالية ، وأساتذة العلوم الإنسانية يضعون فروة بيضاء . أما أستاذ الصف الأول ثانوي ، وهو نحيل جداً ، فقد لبِس قفازات لونها فاتح وأعتمر قلنسوة غير رسمية . لا يبدو السيد فيو مُرتاحاً . . . وفي أقصى الكنيسة وقف « الشيء الصغير » وسط التلامذة ونظر بِحَسَدْ إلى الحُلَلْ المهيبة وأغصان النخيل الفضية . . . في أي وقت سيصبح هو بدوره أستاذاً ؟ . . . ومتى سيتوصّل إلى أعادة بناء المنزل العائلي ؟ للأسف ! سيمرُّ وقت طويل وسيتعذّب كثيراً قبل أن يحُقق حلمه . . . شعر « الشيء الصغير » بأنه حزين ، ورَغِب بالبكاء عند سماع صوت الأرغن . . . فجأة ، رأى هنالك ، في زاوية من مكان الجوقة ، وجهاً جميلاً ومُتَلَفاً يبتسم له . . . هذه البسمة أفرجت عن « الشيء الصغير » . فلمجرد أن رأى الأب جرمان تشجع وزال الغمُّ عنه . . .

بعد قداس الروح القدس بيومين، أُقيمت إحتفالات جديدة. وذلك لمناسبة عيد رئيس المدرسة. في ذلك اليوم، وقد جَرَت تلك العادة منذ زمن بعيد ، تحتفل المدرسة بعيد القديس

« تيوفيل » في الطبيعة ، على العشب ، وتُقدَّمُ كميات كبيرة من اللحوم الباردة ومن النبيذ المصنوع في « ليمو » . هذه المرّة وكالعادة ، عمل رئيس المدرسة وسعه لكي تتحدَّث الألسن عن هذا المهرجان العائلي الصغير الذي يُرضي غرور اندفاعه الغريزي السخي ، ولكن دون أن يؤذي مصالح مدرسته . منذ بزوغ الفجر صعدنا جميعاً في عربات كبيرة مُزدانة برايات البلدية . فمضى الموكب بسرعة وهو يجرّ وراءه في عربتين ضخمتين سلاَل النبيذ المُثمِل وقُفَفِ الأطعمة الرخيصة الثمن . . . على رأس الموكب . وفي أول عربة ، جَلَس ذوو الشأن مع أعضاء فرقة الموسيقى ، الذين تلقوا أمراً بأن ينفخوا جيداً في أبوْاقهم . تَدْوي الأسواط ، تدقّ الأجراس الصغيرة وتصطدم كُوَم الصحون بقَصَعَات التَنك . . . جميع أهالي سارلاند وقفوا الى نوافذهم وهم يعتمرون قلانِس الليل لكي يروا مرور موكب عيد رئيس المدرسة . . .

ستُقام الحفلة في « الحقل » . ما ان وصلنا حتى مُدَّت شراشف على العشب . وضحك الأطفال كثيراً عندما رأوا حضرات الأساتذة جالسين وسط البنفسج في مكان بارد ، كتلامذة إعتياديين . . . . وُزِّعت قطع اللحم ، طارت سدائد القناني ، وبَرَقَت العيون . فيما هم يتكلمون باستمرار ، بدا « الشيء الصغير » وحيداً شارد الذهن ، وسط الحماسة الشاملة . وفجأة بدأ وجهه يحمر . . . لقد وقف رئيس المدرسة

لتوه حاملاً بيده ورقة : « أيها السادة ، لقد سلّموني في هذه اللحظة بالذات بضعة أبيات وجها لي شاعر مجهول . يبدو ان شاعرنا المعهود السيد فيو له غريم هذه السنة . رُغم ان تلك الأبيات تمدحني أكثر مما أستحق ، أطلب منكم أن تأذنوا لي بأن أقرأها .

- أجل ، أجل . . . إقرأها ! . . . . إقرأها! . . . .

وبصوته الجميل الذي نسمعه في يوم توزيع الجوائز ، بدأ حضرة رئيس المدرسة قراءته . . .

إنه لمديح صِيغَ بطريقة جيدة تملأه القوافي المُحبَّبة الموجَّهة إلى رئيس المدرسة وإلى جميع أولئك السادة . وردة لكل شخص ، حتى الساحرة ذات النظارات لم تنسها القصيدة وراح الشاعر يدعوها « ملاك قاعة الطعام » ، وتلك تسمية لذيذة .

صفّقوا طويلاً ، وطالبت بضعة أصوات بالمؤلِّف . فوقف «الشيء الصغير» وقد أحمرّ كفِرَنْدِ رُمّان ثم انحنى بتواضع . فَعَلَتْ هتافات مؤيِّدة وشاملة . لقد أضحى « الشيء الصغير» بطل الحفلة . أراد رئيس المدرسة تقبيله وأساتذة قُدامى صافحوه مُعلنين بذلك تفهمُّهم لتصرّفه . أما أستاذ الصف الأول ثانوي فقد طلب منه أبيات الشعر التي نظمها لكي يضعها في الجريدة . « الشيء الصغير» سعيد جداً . كل هذا المديح ، فضلاً عما فعله النبيذ ، جعله في نشوة . ولكن ما جعله يستفيق

من نشوته هو تخيله سماع الأب جرمان يتمتم قائلاً : « الأبله ! ومفاتيح غريمه تصرّ بضراوة .

بعدما هدأت حماستهم ، صفّق رئيس المدرسة بيديه مُطالباً بالصمت .

ـ والآن جاء دورك يا فيو ! بعد إلهة الشعر المداعبة سنسمع إلهة الشعر الرصينة .

سَحَبَ السيد فيو من جيبه بجدية دفتراً مُجَلَّداً مليئاً بالوعود ثم بدأ القراءة وهو يرمق « الشيء الصغير » بنظرة جانبية . قصيدة السيد فيو راعوّية مُستوحاة من فرجيل ، يُدافع فيها عن النظام . التلميذ « مينالك » والتلميذ « دوريلاس » يتجاذبان الحوار في مجموعة من الأبيات . « مينالك » في مدرسة يزدهر فيها النظام . أما « دوريلاس » فيُدافع عن مدرسة أخرى لا وجود للنظام فيها . . . تكلّم « مينالك » عن المسرّات الزاهدة في النظام القوي و « دوريلاس » عن الأفراح العبثية في ظل حرية مُطلقة .

في النهاية هُزم « دوريلاس » ، فسلّم الفائز جائزة الصراع ، ثم اتّحد الإثنان وأنشدا أغنية الفرح تمجيداً للنظام .

إنتهت القصيدة . . . فخيم صمت مُهيب ! . . . خلال قراءة القصيدة ، أخذ الأولاد صحونهم الى الطرف المُقابل من الحقل وأكلوا اللحم بهدوء، بعيداً وبعيداً جداً عن التلميذ

« مينالك » وعن التلميذ « دوريلاس » . ومن مكانه نظر اليهم السيد فيو وبسمة حزينة مُرتسمة على شفتيه . . الأساتذة سمعوا قصيدته ولكن ما من أحد تجرّأ وصفّق له . . . يا لسوء حظ السيد فيو ! إنَّ هزيمته شنيعة . . . حاول رئيس المدرسة أن يواسيه بقوله : « الموضوع عاق أيها السادة ، ولكن الشاعر قد أجاد القول » .

أمّا « الشيء الصغير » الذي بدأ يخشى من الانتصار الذي أحرزه فقال بكل جرأة : « أنا أجد قصيدته جميلة جداً » .

لا يريد السيد فيو أن يواسوه ، ومحاولاتهم الواهية ذهبت ادراج الرياح . . إنحنى السيد فيو دون ان يجيب واحتفظ ببسمته الحزينة . . إحتفظ بتلك البسمة طول النهار . وعندما رجعوا في المساء وسط أغاني التلامذة وأنغام الموسيقى الناشزة وضجيج العربات الجارية على طرقات المدينة النائمة، سمع «الشيء الصغير» بين طيّات الظلام وبقربه ، مفاتيح غريمه التي تزمجر بخبث وكأنها تقول : « سيّدي الشاعر ، ستدفع السيئة بسيئة مثلها » !

IX

قضية « بوكواران »

دُفِنَتْ العطلة الصيفية بمرور عيد القديس « تيوفيل » . الأيام التي توالت بعده كانت حزينة ومشابهة لآخر يوم يؤكل فيه اللحم قبل الصِّيام . لا أحد بعد يشعر بأنه مُستعد للعودة إلى الدروس ، طالباً كان أم أستاذاً . الجميع يأخذون مراكزهم دون استعجال . . . بعد مرور شهرين كاملين من الراحة ، تجدُ المدرسة صعوبة في العودة إلى نمط عيشها المُعتاد . العاملون لا يقومون بوظيفتهم كما يجب ، تماماً كمجموع دواليب ساعة قديمة نُسِيَتْ دون تدوير . ولكن رويداً رويداً ، وبفضل مجهود السيد فيو ، إنتظم كل شيء . كل يوم وفي الساعة نفسها ، وحين يدقُّ الجرس نفسه، نرى في الملعب أبواباً صغيرةً تُفتح ومجموعات من الأولاد جامدين كجند من الخشب ، يمرون تحت الأشجار . ثم يُقرع الجرس من جديد ويخرج الأولاد انفسهم من الأبواب الصغيرة ذاتها ! دِنغ ! دونغ ! إنهضوا ، دِنغ ! دونغ !، ناموا ، دِنغ ! دونغ ! تعلموا ! ، دِنغ ! دونغ !

إمرحوا . وهكذا طيلة أيام السنة .

يا لإنتصار النظام الباهر ! والتلميذ « مينالك » كان بإمكانه أن يعيش سعيداً تحت سلطان السيد فيو في مدرسة سارلاند ، المثالية . لكن وجودي يُشوّه باستمرار تلك اللوحة الرائعة . فالصفوف التي هي على عاتقي غير مُنتظمة . طلّاب الصفوف التكميلية الذين لا يُحتمل وجودهم ، عادوا من جبالهم أكثر قباحة ، أكثر فظاظة وأكثر شراسة من أي وقت مضى . وأنا بدوري أصبحت شريراً ، فالمرض جعل مني شخصاً عصبي المزاج ونزقاً . لم أعُدْ أحتمل شيئاً . . . وبينما كنت لطيفاً للغاية في السنة الماضية ، أصبحت قاسياً جداً هذه السنة . . أمِلتُ من وراء هذا التصرُّف أن أذلَّ أولئك الأوغاد العفاريت . وعند أقل مخالفة أعاقب بشدة جميع التلاميذ فأوزِّع القصاصات وأمنع العديد منهم من الذهاب الى منازلهم بعد انتهاء الدروس . . . .

هذا الأسلوب لقي فشلاً ذريعاً . إن قصاصاتي التي وُزِّعت بسخاء فقدت قيمتها وانحطّت كالأوراق النقدية التي طُبعت في العام الرابع . . . وذات يوم طفح الكيل . فقد قام صفي بثورة ونفدت مني الذخيرة الكفيلة بمساعدتي على مواجهة العصيان . لا أزال أرى نفسي في مقعدي وأنا أتخبّط وسط الصراخ والدموع والزمجرات والصفير : « إخرج ! . . . كوكوريكو ! . . . لا نريد طُغاة ! . . . هذا ظلم ! . . . . » فأنهالت عليَّ المحابر وانهالت الأوراق الممضوغة على طاولتي . وجميع أولئك الوحوش الصغار

، وبحجة السعي وراء مطالبهم ، تعلَّقوا بمقعدي جماعاتٍ جماعات وهم يصرخون كالقرود .

أحياناً ، وعندما استنفد كل الوسائل ، أنادي السيد فيو ليأتي إلى نجدتي . وذلك كان إهانة لي . لم يغفر لي الرجل ذو المفاتيح منذ حادثة القديس تيوفيل ، وشعرت بأنه سعيد بتعاستي ... دخوله المفاجىء إلى قاعة الدرس ومفاتيحه بيده له وقْعَ حجر قُذِف به في مستنقع مليء بالضفادع ، ففي لمحة بصر يعود الجميع الى أماكنهم ويابشرون الدرس . فكأن الطير وقف على رؤوسهم ، ثم يتمشى السيد فيو طولاً وعرضاً وهو يهزُّ رُزيمة حدائده ووسط صمت شامل . ثم ينظر إليَّ بسخرية وبعد ذلك ينسحب دون أن يتفوه بكلمة .

كنت حزيناً جداً . فزملائي المدرّسون يسخرون مني ، ورئيس المدرسة عندما أصادفه لا يُرحِّب بي . لا بُدَّ ان يكون السيد فيو وراء كل ما يحدث لي ... ثم وقعت حادثة « بوكواران » التي قضت عليَّ .

أوه ! أنا أكيد من ان قضية « بوكواران » محفوظة في سجلات المدرسة وإن أهالي سارلاند ما زالوا يتكلمون عنها الى الآن ... أنا أيضاً أريد أن أتحدث عن تلك القضية الرهيبة . لقد حان الوقت ليعلم الجمهور الحقيقة ...

له من العمر خمسة عشر عاماً ، قدماه كبيرتان ، عيناه

كبيرتان ، ويداه كبيرتان ، ليس له جبين ويبدو كخادم مزرعة : هكـذا كان السيـد المركيـز دو بكواران الـذي يُرعب تـلاميذ الصفـوف التكميليـة ، وهـو الممِّثـل الـوحيـد لـطبقـة النبـلاء « السفينوليين » في مدرسة سارلاند . ورئيس المدرسة يهتم بـه كثيراً نسبة الى الصبغة الارستقراطية التي يُضفيها وجوده على المدرسة ، ولا ينادونه إلا « المركيز » . الكلُّ يهابه ، وأنا أيضاً تأثرت بالجو العام فكنت دوماً أكلمه بتحرُّز .

ظلّت علاقاتنا جيدة بعضاً من الوقت ، مع ان السيد المركيز كان يكلمني أحياناً أو ينظر إليَّ أو يجيبني بوقاحة تُذكّر بالعهد الملكي القديم ، ولكنني تظاهرت بعدم التنبّه الى تصرفاته القليلة الأدب ، ذلك انني شعرت بأنه أقوى منيّ .

ولكن ذات يوم ، سمح لنفسه ذلك المركيز المتعجـرف ، وخلال الدرس ، بأن يردَّ علي بوقاحة مُتناهية لدرجة عِيْلَ فيها صبري .

قلت له وأنا أحاول أن أحافظ على رباطة جأشي :

ـ يا سيد دو بوكواران خُذ كتبك وأخرج حالاً .

فعل الأمر هذا بدأ غـريباً جـداً لهذا المُضحـك . فوقف مشدوهاً ونظر إليَّ بعينين جاحظتين ودون أن يبرح مكانه .

أدركت للحال انني توغَّلت في قضية ليست لمصلحتي ولكن التراجع أصبح مستحيلاً .

فأمرته من جديد قائلاً :

ـ أخرج يا سيد دو بوكواران ! . . .

ولأول مرة ساد الصمت صفّي ، ذلك ان التلامذة ينتظرون بقلق . . .

بعدما أصدرت أمري في المرة الثانية إستفاق المـركيز من دهشته وأجابني ، ليتكم رأيتم بأي طريقة :

ـ لن أخرج !

عند ذلك سَرَتْ همسات إعجاب بين التلامذة . فـوقفت غاضباً وقلت له :

ـ لن تخرج يا سيد ؟ . . . سنرى .

ثم نزلت من علي اِلمنبَر ، والله وحده يعلم اني تلك اللحظة لم تُساورني أي فكرة عنف . أردت فقط أن أضع المركيز عند حدّه بالتشدُّد في موقفي . ولكن عنـدما رآني أنـزل من على مِنبري بدأ يضحك عليَّ بازدراء شديد لدرجة اني أردت أمساكه بياقته لكي أخرجه من مكانه .

ولكن هذا اللئيم كان قد خبّأ تحت سترته مِسطرة كبيرة من الحديد . فما كدتُّ أرفع يدي حتى ضربني على ذراعي ضربة رهيبة . فصرخت من الألم وصفّق جميع التلامذة :

ـ أحسنت يا مركيز !

وللمرة الوحيدة فقدت عقلي . ثم بقفزة أولى أصبحت على الطاولة وبقفزة ثانية بتُّ على المركيز . حينذاك أمسكت بعنقه وضربته برجلّي وبيديّ ، ثم نهشته بأسناني ، فأنهال عليه كل عضو من أعضائي ، مّما ساعدني على قلعِهِ من مكانـه ورمْيه خارجاً ، فظلّ يتدحرج لغاية مُنتصف الملعب . . . جرت الحادثة بسرعة هائلة . لم أكن أعتقد انني أملك كل تلك القوة .

حل الذعـر بالـطلاّب . فتوقّفـوا عن تكرار تلك الجملة عالياً : « أحسنت يا مركيز ! » . إنهم خائفون . فبوكواران أقوى الأقوياء قد أخضعه ذاك الناظر الركيك ! يا لها مُغامرة! . . . لقد ربحت بالقوة الإعتبار الذي خسره المركيز .

عنـدما صعـدت عـلى المنبـر وأنـا شـاحبٌ ومرتعش من الانفعال ، إنحنت بسرعة جميع الوجوه نحو الطاولات . لقد سيطرتُ على الصف . ولكن رئيس المدرسة والسيد فيو مـاذا سيكون رأيهما في هذه القضية ؟ كيف تجرأت وضربت تلميذاً كالمركيز دو بوكواران ، الرفيع الشأن الأوحد في المدرسة ! هل أريد حقاً أن أُطرد !

تلك الأفكـار التي راودتني بعـد فـوات الأوان ، جعلتني أضطّرب رغم انتصاري . فخفت أنا أيضاً وقلت في نفسي : « من المؤكد أن المركيز قد ذهب ليشكو أمره ، وتـوقّعت ان يزورني بين دقيقة وأخرى رئيس المدرسة . بقيت أرتجف حتى نهاية الدرس . ولكن لم يأتِ أحد .

في فترة الإستراحة ، دُهشتُ جداً عندما رأيت بوكواران يضحك ويلعب مع الآخرين . ذلك سكّن روعي قليلاً . وبما أن النهار قد مرَّ دون مشاكل ظننت أن تلميذي القليل الأدب سيلزم حدّه وانتهى الأمر .

لسوء الحظ فالخميس التالي سُمِحَ فيه للطلّاب الذين ينامون في المدرسة بالذهاب إلى منازلهم . في المساء لم يَعُد السيد المركيز إلى غرفة المنامة . فحدَّثني قلبي بما سيأتي ولم أنم طوال الليل .

في اليوم التالي وفي الحصة الأولى ، بدأ التلاميذ بالتهامس وهم ينظرون الى مكان بوكواران الذي بقي شاغراً . ودون ان أظهر ما يدور في ذهني بدأ القلق يقتلني .

نحو الساعة السابعة ، فُتح الباب بقوة فوقف جميع الأولاد .

لقد قُضِيَ عليَّ . . .

دخل أولاً رئيس المدرسة ، وتَبِعه السيد فيو ، ودخل أخيراً عجوز طويل القامة يرتدي سترة طويلة مزرورة لغاية ذقنه ويضع ياقةً جامدةً علوها مقدار أربع أصابع . لم أكن أعرف هذا الشخص ولكنني أدركت حالاً أنه السيد دو بوكواران الأب . وهو يُفتِّل بشاربه الطويل ويتذمر بصوت مُنخفض .

لم أجد الشجاعة الكافية لأنزل من علي مِنبري وأرحِّب

بأولئك السادة ، وهم أيضاً عندما دخلوا لم يحُيُّوني . إتخذ الثلاثة مراكزهم في منتصف القاعة . ولم ينظروا إلى ناحيتي ولو مرّة واحدة لغاية خروجهم . وفتح النار رئيس المدرسة فقال مُتوجِّهاً إلى التلامذة :

ـ أيها السادة ، أتينا إلى هنا للقيام بمهمة مؤلمة ومؤلمة جداً . أحد أساتذتكم اقترف ذنباً خطيراً للغاية ، لذلك فواجبنا يُملي علينا أن نؤنِّبه علناً .

وأعقب حديثه مباشرةً بتأنيب استمر ربع ساعة على الأقل ، شُوِّهت جميع الوقائع : فالمركيز أصبح أفضل تلميذ في المدرسة ، وأنا عنّفته دون سبب ودون عذر مقبول . حاصل الحديث : لقد أخلَيت بجميع واجباتي .

بماذا أُجيب على تلك الإتهامات ؟

ومن حين إلى آخر ، حاولت أن أدافع عن نفسي : « عذراً يا سيدي الرئيس ! . . . » لكن رئيس المدرسة لم يسمعني بل أكمل توبيخه للنهاية .

وبعده ، تكلم السيد دو بوكواران الأب ، ويا له من أسلوب ! . . . قدَّم شكوى كالتي تُقدَّم في المحاكم . الأب البائس ! لقد أوشك ولده أن يُقتل . لقد انهالوا على هذا الإنسان الصغير المسكين والذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، إنهالوا عليه كـ . . . . كـ ! كيف يُعبِّر عن هذا ؟ . . . .

كجاموس ، كجاموس مُتوحِّش . والولد يلزم فراشه منذ يومين ، ومنذ يومين تسهر عليه والدته الباكية .

آه ! لو ان القضية تتعلّق برجلٍ ، لكان هو بنفسه ، السيد دو بوكواران الأب ، قد أخذ على عاتقه مسألة الإنتقام لولده ! ولكن الأمر يتعلَّق بمسكين يستحق الشفقة . ولكن ، وليكن معلوماً لدى الجميع ، إذا حصل أن مُسَّت شعرة واحدة من شعر ابنه ستُقطعُ أذنا الفاعل بقساوةٍ . . . وفيما كان يُلْقَيْ هذا الخطاب الجميل ، راح الطلاب يضحكون خفية واهتزَّت مفاتيح السيد فيو من الحبور . أما « الشيء الصغير » فقد استمع الى كل تلك الشتائم وهو واقف على منبره شاحباً من الغضب ، وابتلع كل تلك الاهانات دون ان يجيب . لو أجاب لطُرِد من المدرسة ، وأين سيذهب ؟ .

أخيراً ، بعد مرور ساعة وبعدما نضبت بلاغتهم ، إنسحب أولئك السادة الثلاثة ، بعد ذهابهم عمَّت الصف جَلَبَة كبيرة . حاولت ، ولكن دون جدوى ، أن أهدئهم قليلاً . فالأولاد قد سخروا مني علناً . لقد قضت قضية بوكواران على سُلطتي .

آه ! كانت تلك القضية مُرعبة ! تأثرت المدينة بأجمعها بعد سماعها . . . فغدت محور الحديث في النادي الصغير ، في النادي الكبير ، في المقاهي واماكن الموسيقى . الأشخاص الذين هم على بيِّنة من الأمر يعطون عن القضية تفاصيل تجعل شعر

الرأس ينتصب . يبدو ان هذا الناظر وحش ، بل هو غول
لقد عَذَّب الولد بقساوة فظيعة ، وغير معقولة . عندما يتحدَّثون
عن « الشيء الصغير » لا يعطونه سوى لقب واحد :
« الجلاَّد » .

عندما ملَّ بوكواران الشاب البقاء في الفراش ، وضعه أهله
على كرسي طويل في أجمل مكان في غرفة الإستقبال . وخلال
ثمانية أيام ، مرَّ في غرفة الإستقبال هذه تطواف إحتفالي لا نهاية
له . والضحية المهمّة كانت مِحْوَرْ جميع الإهتمامات .

طُلِبَ منه عشرين مرة متتالية أن يخُبرهم قصّته، وفي كل
مرة أضاف الّلعين تفصيلاً جديداً . كانت الأمهات يرتعشن لدى
سماعه ، وأطلقت عليه العوانس لقب « الملاك المسكين » !
ودَسَسْنَ له الحلوى . إستفادت جريدة المُعارضة من الحادثة
ونشرت مقالاً صاعقاً دانت فيه المدرسة واستفادة منه مؤسسة
دينية في الجوار . . .

غضب رئيس المدرسة . . . واذا هو لم يطردني فذلك يعود
الى حماية رئيس الكلية . . . للإسف ! كان من الأفضل لي ان
اطرد حالاً . أصبحت حياتي في المدرسة جحيمًا . فالأولاد لا
يستمعوا إليّ بتاتاً . عند أقل مُلاحظة يهدِّدونني بأنهم سيحتذون
ببوكواران وسيشتكون لدى أبائهم . إنتهى بي الأمر إلى إهمالهم
تماماً .

وبينما أنا أتخبط في كل ذلك لم تساورني سوى فكرة واحدة :

الانتقام من آل بوكواران . ما زلت أتذكر وجه المركيز العجوز الوقح ، وبقيت أذناي حمراوين من التهديد الذي وُجِّه إليهما . على كل حال ، حتى لو أردت أن أنسى تلك الإهانات لما استطعت . مرتين في الأسبوع ، أيام النزهات وعندما تمر وحدات التلاميذ أمام مقهى الأسقفية ، كنت أكيداً من مشاهدة السيد دو بوكواران الأب واقفاً أمام الباب وسط مجموعة من ضبّاط الحامية ، جميعهم رؤوسهم مكشوفة وعصيّ البلياردو في أيديهم . ينظرون الينا من بعيد ويضحكون بسخرية ، ثم عندما تمر الوحدات قربهم ، يصرخ المركيز بقوة وهو يرمقني بنظرة تحدٍ : « صباح الخير يا بوكواران ! » .

فيجيب الفتى الكريه بصوته الحاد ومن قلب الصفوف : « صباح الخير يا أبي » . حينذاك يضحك الجميع : الضباط ، الطلّاب ، وخدام المقهى . . .

أصبحت تلك الجملة : « صباح الخير يا « بوكواران ! » عذاباً أليمًا لي ولا أجد سبيلاً إلى تلافيها . للذهاب الى الحقل من الضروري المرور أمام مقهى الأسقفية ، ولم يتخلّف مضطهدي مرة واحدة عن موعده .

أحياناً تنتابني رغبة لامعقولة ألا وهي التقدُّم من المركيز وحثّه على مبارزتي . ولكن سببين يمنعانني من ذلك : أولاً خوفي الدائم من أن أطرد ، ثم سيف المركيز الكبير الذي قضى على بضعة ضحايا عندما كان في الجيش .

ولكن ذات يوم ، وبعدما طَفح الكيل ، ذهبت لأرى روجيه مُدرِّب الشيش . ومن دون أي مقدمة أعلنت له عزمي على مبارزة المركيز ، روجيه الذي لم أكلمه منذ زمن ، إستمع إليَّ في البداية بتحفُّظ ، وعندما فرغت من كلامي . فتح قلبه وصافحني بحرارة قائلاً :

ـ أحسنت يا سيد دانيال ، كنت أعلم جيداً أنه لا يمكن أن تكون واشياً . ولكن قل لي بربِّك لماذا كنت دائمًا مُلتصقاً بالسيد فيو؟ . ولكن لندع الماضي جانباً ، المهم انك رجعت الينا . لقد أمحى كل شيء . إعطني يدك لكي نتصافح ! أنت رجل شهم ! والآن لنناقش قضيتك ! لقد أُهِنَت ؟ حسناً ! تريد أن تغسل العار؟ عظيم ! إنك تجهل قانون المُبارزة ؟ حسناً ، حسناً ! عظيم ! عظيم ! تريد أن أمنعك من أن يطعنك هذا الديك الهندي ؟ عظيم ! تعال الى قاعدة التدريب وبعد مرور ستة أشهر أنت ستطعنه .

عندما سمعت روجيه اللاَّمثيل له يوافقني الرأي وكلّه حماسة إحمرَّ وجهي من الغبطة . إتَّفقنا على الدروس : ثلاث ساعات في الأسبوع . واتفقنا أيضاً على السعر الذي سيكون سعراً خاصاً (إنه خاص بالفعل ! علمت في ما بعد انني أدفع مرَّتين أكثر من الآخرين) . عندما بُتَّ أمر تلك الشروط ، تأبط روجيه ذراعي بتدلل وقال لي :

ـ يا سيد دانيال لا نستطيع اليوم أن نأخذ الدرس الأول

لأن الوقت أصبح مُتأخراً . ولكن في وسعنا أن ننهي الصفقة في مقهى « باربيت » . . . هيا ! هـذه الحركـات الصبيانيـة ! هل يخيفك مقهى « باربيت » ؟ . . . هيّا تعال ، اللعنـة ! أخرج قليلاً من جُحْرِ أولئك المتباهين . . ستجد هنـالك أصـدقاء ، فتيـاناً ذوي قلَوب طيبـة ، أشخاصـاً نزيهـين ، يملكون جميـع الصفـات الحسنة . وعنـدما تعـاشرهم ستتخـلى بسـرعـة عن تصرّفاتك الضعيفة التي تؤذيك .

لـلأسف الشديـد ، غرَّني بكـلامـه ، فـذهبنـا الى مقهى « باربيت » الذي بقي على حاله ، مليئاً بـالأصوات والـدخان والسّراويل الحمـراء . ما زالت القلنسـوات العسكريـة نفسها والحمائل نفسها مُعلقة على المشاجب نفسها .

إستقبلني أصدقاء روجيه بالترحاب . انه محق فالنزاهة من خصالهم ! عندما علموا بقصتي مع المركيز وبالقرار الذي اتخذته ، أتوا الواحد تلو الآخر وصافحوني قـائلين : « أحسنت أيها الشاب ، عظيم » .

أنا أيضاً نزيه ، قدَّمت للجميع كأساً على حسابي فشربوا نخب انتصاري . وأتخذنا القرار بيننا نحن النزهاء ، بأنني سأقتل المركيز بوكواران في نهاية السنة المدرسية .

X

الأيّام الرديئة

حلَّ الشتاء ، شتاء جاف رهيب وأسود كشتاء تلك المناطق الجبلية . ويصعب على المرء رؤية ملاعب المدرسة ، ذلك بأن أشجارها الكبيرة قد تعرَّت من أوراقها وأرضها التي يكسوها الجليد أصبحت أقسى من الحجر . نستفيق قبل بزوغ الفجر : الأنوار مضاءة ، الطقس بارد ، والمياه جليد . . . أصبح التلامذة بطيئين ، ويضطرُّ الجرس الى مناداتهم اكثر من مرة . والمدرّسون يصرخون : « إسرعوا أيها السادة ! » . وهم يمشون طولاً وعرضاً ليتدفؤا . . . يقف التلامذة بانتظام وهم صامتون ويراعون الأنظمة نوعاً ما . ثم ننزل على الدرج الكبير الذي هو بالكاد مُضاء ، ونمرّ في الأروقة الطويلة حيث تهبُّ رياح الشتاء الباردة والُمميتة .

مرَّ « الشيء الصغير » في شتاء سيء !

لم أعُدْ أعمل . في الصف ، حرارة المدفأة اللاصحيّة تحثُّني

على النوم . اثناء الدروس أحبس نفسي في مقهى « باربيت » ولا أغادره إلا في آخر لحظة ، ذلك ان البرد قارس في غرفتي الحقيرة . وهنا بدأ روجيه بإعطائي الدروس ، فقساوة الطقس أبعدتنا عن قاعة السلاح ، وكنا نتدرّب على المبارزة بالشيش في وسط المقهى مُستعينين بعصيّ البلياردو ونشرب الكحول في الوقت نفسه ، والضباط يسجلون النقاط . جميع هؤلاء النزيهين قَبلوا بي كصديق حميم وبدأوا بتلقيني يوماً بعد يوم ضربات سيف جديدة لا تخطىء لأقتل المركيز دو بوكواران المسكين . وعلّموني أيضاً كيف يُحلَّ مشروب الشِيْح . وأنا بدوري كنت أعدُّ النقاط عندما يلعب أولئك السادة بالبلياردو . . .

شتاء سيىء « للشيء الصغير » !

ذات صباح من ذلك الشتاء الحزين ، وفيما أنا داخل الى مقهى « باربيت » ـ لا زلت أسمع ضجيج البلياردو وهدير المدفأة الكبيرة المطِليَّة بالخزف ـ أقبل روجيه نحوي بسرعة وقال لي :

ـ أريد أن أقول لك كلمتين يا سيد دانيال !

ثم أخذني الى قاعة في أقصى المقهى فيما بَدَتْ عليه ملامح الغموض .

الأمر يتعلق بمسارَّة غرامية . . . كم كنت فخوراً لكوني مؤتمناً على أسرار رجل في ذلك الحجم . فهذا يزيد من حجمي ولو قليلاً .

إليكم القصة . ذلك المدّعي مدرب الشيش التقى في المدينة ، وفي مكان لا يستطيع ان يسميه ، امرأة ، وهام بها وتحتل هذه المرأة في سارلاند مركزاً مرموقاً جداً ـ أتفهم ما أعني ! ـ مركزاً خطيراً . حتى إن مدرِّب الشيش لا يزال يتساءل كيف تجرأ وفكر فيها . لكن رُغم مركز هذه المرأة والذي هو في غاية الأهمية ، وفي غاية . . . ألخ ، هو يأمل في أن تحبُّه ، حتى إنه يعتقد أن الوقت قد حان لإرسال تصريحات خطية إليها . لسوء الحظ فمدرِّبوا الشيش ليسوا مَهَرَة في الكتابة . كان الأمر يسيراً لو انه يتعلق بعاملة ولكن بما ان المرأة المعنية لها مركز هو في غاية . . . لذا لا تليق مراسلتها بأسلوب حانوتي ، فالأمر يتطلب شاعراً ممتازاً .

قال « الشيء الصغير » مظهراً تفهمّه للوضع : « فهمت ما تعني . أنت في حاجة الى بعض الرسائل الأدبية لإرسالها الى المرأة ، وقد فكرّت فيَّ .

فأجاب مدرّب الشيش :

ـ تماماً .

ـ حسناً ، ! في إمكانك الاعتماد عليَّ ، سنبدأ حينما تشاء ، لكن لكي لا تبدو رسائلنا وكأنها أُخِذت من كتاب «الكاتب الكامل » يجب ان تعطيني بعض المعلومات عن تلك المرأة . . .

نظر مدرب الشيش حوله بحذر ، ثم قال لي بصوت خافت وقد أدخل شاربيه في أذني :

- إنها شقراء من باريس ، رائحتها جميلة كالوردة ، وتُدعى « سيسيليا » .

لم يتمكن من إئتماني على معلومات أخرى بسبب « مركز المرأة المعنية » ، وهو مركز في غاية الخ . . . لكنني اكتفيت بتلك المعلومات ، وفي المساء نفسه خلال أوقات النظارة كتبت رسالتي الأولى الى الشقراء « سيسيليا » .

استمرت تلك المراسَلَة الغريبة بين « الشيء الصغير » وتلك المرأة الغامضة قُرَابَةَ شهر . وطيلة شهر كتبت بمعدَّل رسالتين غراميتين في اليوم الواحد ، بعضها كان حنوناً ، ومعانيه مُبطّنة كرسائل لامارتين لألفير ، والبعض الآخر شهواني وعنيف كرسائل ميرابو لصوفي . بعضها يبدأ : « آه يا سيسيليا . مرات وعلى صخرات وحشية . . . » وينتهي : « يُقال ان الحب يُميت . . . فلنجرِّب ! » . ومن حين الى آخر يضيف ما تُلهمه به ربة الشعر :

شفتاك ، شفتاك المتأججتان
إعطني إياهما ، ! إعطني إياهما ! »

أتكلم اليوم عن تلك الرسائل وأنا أضحك . ولكن أقسم لكم أنه في ذلك الوقت لم يكن « الشيء الصغير » يضحك بل كل ذلك أخذ طابعاً جدِّياً . عندما انتهي من كتابة رسالة

أعطيها « روجيه » ليكتبها من جديد بخطّه الجميل الذي يشبه خط الرّتباء . وهو بدوره ، حالما يتسلم الأجوبة (لأن تلك التعيسة كانت تردّ على رسائله) يجلبها لي بسرعة فأدعم بها رسائلي .

تلك اللعبة أعجبتني إجمالاً ، بل أعجبتني أكثر من اللزوم . . أصبحت تلك الشقراء اللامنظورة والمعطّرة كالليلك الأبيض ، لا تفارق عقلي . وأحياناً أتخيّل نفسي اكتب لمصلحتي الشخصية . فأملأ رسائلي بنجاوى شخصية بَحْتَة ، وبلَعْنات ضدَّ القدر وضدَّ أولئك الأشخاص الخسيسين والأشرار الذين أنا مضطرٌّ إلى العيش بينهم : « آه يا سيسيليا ، لو تعلمين كم أنا بحاجة إلى حبك ! » .

أحياناً أيضاً ، عندما يأتي روجيه الضخم عاكفاً شاربيه وقائلاً : « ستقع في الفخ قريباً ! . . . تابع ! » تنتابني موجات من الغضب وأفكّر في سرّي : « كيف تُصدِّق ان هذا الضخم البشوش ، هذا الطفل المتهوِّر هو الذي يكتب لها تلك الروائع المفعمة بالعشق وبالحزن ؟ » .

رُغم ذلك تصدِّقه ، وهي مُقتنعة بأنه هو الذي يكتب تلك الروائع . وذات يوم جاء مدرِّب الشيش ظافراً وجلب لي ذلك الرَّد الذي تسلمه لتوّه : « مُلْتقانا في التاسعة من هذا المساء خلف مركز المديرية » .

أتساءل إلى ماذا يعود نجاح روجيه ، الى بلاغة رسائلي أمْ إلى طول شاربيه ؟ أترك لكُنَّ سيداتي القرار . وتلك الليلة ، في غرفة منامتهِ الحزينة ، كان « الشيء الصغير » مُضطّرباً جداً أثناء نومه . فحلمَ بأنه طويل القامة له شاربان وإن نساء باريسيات تشغِلْنَ مناصب خطيرة ، يضربن له مواعيد وراء مركز المديرية . . .

والُمضحِكَ في الأمر ، هو انه في اليوم التالي توجَّب عليَّ ان اكتب رسالة اشكر فيها سيسيليا على كل السعادة التي منحتني إياها : « أيها الملاك الذي قَبِلَ تمضية ليلة على الأرض . . . » .

أعترف بأن تلك الرسالة كتبها « الشيء الصغير » وهو ساخطٌ . لحسن الحظ توقفت المراسلة عند هذا الحد ، ولفترة من الزمن لم أعد أسمع شيئاً عن سيسيليا أو عن مركزها الخطير .

XI

صديقي الطيِّب مُدرِّب الشيش

ذلك اليوم في ١٨ شباط ، أثلجت السماء كثيراً ، لذا لم يتمكن الأولاد من اللعب في الملاعب . فور انتهاء الصف الصبَّاحي وضعناهم جميعاً بلا نظام في القاعة ليأخذوا فترة الإستراحة ، وهم بعيدون عن الطقس السَّيء وبانتظار إبتداء الصفوف . كنت أراقبهم . ما يُدعى « القاعة » كان قديماً صالة للرياضة في معهد البحرية . تخيّلوا أربعة جدران عالية مع نوافذ صغيرة ذات شبابيك ، وهنا وهناك كلاليب قُلعت نصفياً ، وأثار سلالم ما زالت واضحة ، ثم يتدلىَّ من خشبة السقف الأساسية حبلٌ متأرجحٌ وينتهي بحلقة حديدية ضخمة .

منظر الثلج الذي يملأ الطرقات ألهى الأولاد كثيراً . كانوا ينظرون أيضاً إلى الرجال المُزوّدين بالمجارف وهم يمضون بالثلج في عربات ذات دولابين .

ولكن كل تلك الضوضاء لم أكن أسمعها . كنت جالساً

بمفردي في زاوية أقرأ رسالة والدموع في عيني . كان في إمكان الأولاد في تلك اللحظة أن يهدموا قاعة الرياضة كُلياً ، دون ان ألاحظ ذلك . تلك الرسالة التي تسلمتها لتوّي كتبها جاك ، وعليها طابع بريدي باريسي ، يا إلهي ، أجل من باريس ، إليكم ما جاء فيها :

« عزيزي دانيال

رسالتي ستفاجئك . لم يخطر ببالك أطلاقاً ، أليس كذلك ؟ إنني في باريس منذ خمسة عشر يوماً . تركت ليون دون أن أُعلم أحداً ، فقراري كان إعتباطياً . . . لم يكن أمامي خَيَار ، فقد مللتُ تلك المدينة الرهيبة ، خاصة بعد رحيلك .

وصلت الى باريس ، ومعي ثلاثون فرنكاً وخمس أو ست رسائل من حضرة كاهن « القديس نيزيه » . لحسن الحظ خَمّتني العناية الإلهية فوراً ، فالتقيت مركيزاً عجوزاً وظّفني ككاتب عنده . إننا ننسّق مذكّراته ، ليس عليّ سوف ان اكتب ما يُمليه وأكسب من تلك الوظيفة مئة فرنك شهرياً . ليس هذا بالكثير كما ترى . ولكن بعد البحث المُدقّق آمل أن أتمكّن من إرسال شيء من مدخراتي إلى المنزل .

آه ! يا عزيزي دانيال ، باريس هي مدينة جميلة ! هنا على الأقل لا يحلُّ الضباب باستمرار . طبعاً تمطر أحياناً ، ولكنه مطر خفيف مرح وممزوجٌ بالشمس لم أر له مثيلاً في مكان آخر ، لذا

تغيـرّتُ كلياً ، لـو تعلم ! لم أعُدْ أبكي بتـاتـاً ، وهـذا غـير معقول » .

وصلتُ إلى هذا المقطع من الرسالة ، عندمـا دوّى فجأة تحت النّوافذ صـوت أبكم مصدره عـربة تمشي عـلى الثلج ، توقفت العربة أمام بـاب المدرسـة وسمعت الأولاد يصرخـون بصوت عالٍ جداً: « مُدير الناحية ! مدير الناحية ! » .

زيارة حضرة مدير الناحية تُنبىء حتمًا بشيء غير عادي ، لا يأتي إلاّ مرة أو مرّتين في السنة الى مدرسة سارلاند ، وكل مرة يُعدّ قدومه حدثاً كبيراً . لكن في الربع ساعة التي تبقّت فإن ما يهمّني ، بل ما هو أهم من مُدير ناحية سارلاند وأهم من كل سارلاند هي رسالة أخي جاك . لذا ، بينما دبّت الفرحة في قلوب الطلاب الذين بدأوا يتدافعون أمام النوافذ لرؤ ية حضرة مدير الناحية وهو ينزل من العربة ، رجعت الى زاويتي وعدتُ الى القراءة .

« إعلم يـا عزيـزي دانيال ان والـدنـا هـو في مقـاطعـة « البـروتانيـة » ، حيث يتعاطى تجـارة شراب التفـاح لحسـاب شركة . عندما علم بأنني كاتب لدى مركيز ، ارادني ان اقنعه بشراء بضعة براميل من شراب التفاح . لسوء الحظ ، لا يشرب المركيز إلا النّبيذ ، وفقط النبيذ الإسباني ! كتبت رسالة الى أبي لأعلمه بالأمر ؛ أتعلم بماذا أجابني : « جاك ، أنت حمـار ! .

كالعادة . لكن هذا لا يهم يا عزيزي دانيال ، أعتقد انه في الحقيقة يحبني كثيراً » .

بالنسبة لأمي أنت تعلم انها الآن وحيدة . يجب ان تكتب لها ، فهي تتشكّى من صمتك .

نسيت أن أقول لك شيئاً سيسرّك حتمًا : لديّ غرفة في الحي اللاتيني ! فكِّر قليلاً ! . . . غرفة شاعر عن حق ، تماماً كما في الروايات ، مع نافذة صغيرة وسطوح بعيدة جداً . السرير ليس عريضاً ، ولكن في إمكانِنا أن ننام سوية معاً عند الحاجة ؛ وهناك طاولة للعمل ، في زاوية حيث سنكون على أحسن حال لكتابة الشعر .

أنا أكيد من انك اذا رأيت ذلك سترغب بموافاتي في أسرع وقت . أنا أيضاً أرغب ان تكون قربي ، ولا أقول لك انه في يومٍ ما لن أشير إليك بالمجيء .

وبانتظار هذا الوقت ، أحببني جيداً ودائمًا ، ولا تعمل كثيراً في مدرستك مخافة أن تمرض .

أقبِّلك . أخوك جاك » .

جاك الشجاع ! يا له من وجع لذيذ أمَّ بي بعد ما قرأت رسالته ! ضحكت وبكيت في وقت واحد . فحياتي في الأشهر الأخيرة ، الكحول ، البلياردو ومقهى « باربيت » أضحت جميعها

كحلم بشِع ، قلت في نفسي : « هيا ! لقد انتهى الأمر . سأعمل الآن وسأكون شجاعاً كجاك .

في تلك اللحظة ، قُرِعَ الجرس . فوقف تلامذتي في الصف وهم يتحدثون كثيراً عن مدير الناحية ، وفي طريقهم أشاروا بعضهم البعض الى عربته الواقفة أمام الباب . سلّمت التلامذة إلى أساتذتهم . وبعدما تخلّصت منهم ، إنطلقت وصعدت السلّم ركضاً . كنت متشوقاً أن أكون بمفردي ، في غرفتي مع رسالة أخي جاك !

- يا سيد دانيال ، إنهم بانتظارُك عند رئيس المدرسة .

عند رئيس المدرسة ؟ . . . ماذا يمكن أن يقوله لي رئيس المدرسة ؟ . . . نظر إليّ البوّاب بطريقة غريبة . فجأةً طرأت لي فكرة وجود مدير الناحية . فسألته : « هل حضرة مدير الناحية هو فوق ؟ »

صعدت درجات السلّم بسرعة وقلبي يخفق بالأمل ، نمرُّ في لحظات نبدو فيها كالمجانين . هل تعلمون ماذا اعتقدت عندما علمت أن مدير الناحية ينتظرني ؟ إعتقدت انه لاحظ يوم توزيع الجوائز إن صحتي جيدة ، وإنه جاء الى المدرسة ليعرض عليّ وظيفة كاتب عنده . تلك الفكرة بَدَتْ لي طبيعية جداً ومن أبسط ما يكون . فرسالة جاك مع ما رَوَتْهُ من قصص عن المركيز العجوز قد شوّشت عقلي دون شك .

مهما يكن من أمر ، كلّما صعدت درجة من درجات السلّم زاد يقيني : كاتب مدير الناحية ؛ سعادتي لا توصف .

التقيت في الرواق بروجيه ؛ بدا شاحباً جداً . نظر إليَّ كأنه يريد أن يحدّثني ، ولكنني تابعت سيْري ، فمدير الناحية لا وقت عنده للإنتظار . أقسم لكم ان قلبي خفق بشدّة حينما وصلت أمام مكتب رئيس المدرسة . أنا كاتب عند حضرة مدير الناحية ! أضطررت أن أتوقّف مدة لأستعيد أنفاسي . صحّحتُ وَضْعَ ربطة عنقي ، صفصفتُ شعري بأناملي ، وأدرتُ مِقْبَض الباب بلطف .

لو علمتُ ماذا كان ينتظرني !

رأيت حضرة مدير الناحية واقفاً ومُتكّئاً بتراخٍ على رُخام المدخنة وفمه المُبتسم مُحاط بعارضين أشقرين . حضرة رئيس المدرسة الذي يرتدي مِبْذلِهِ وقف قربه بتواضع وقلنسوته المخمليّة في يده ، أما السيد فيو الذي استُدعي بعجلة فقد اختبأ في زاوية .

حالما دخلت ، بدأ مدير الناحية بالكلام قائلاً وهو يُشير إليَّ :

ـ إذاً ، هذا هو السيد الذي يلهو بإغواء وصيفاتنا ؟

لفظ تلك الجملة بصوتٍ واضح ساخر ودون ان يتوقف

عن الإبتسام . ظننت في باديء الأمر انه يريدَ ان يمزح ، ولكن مدير الناحية لم يكن يمزح . وبعد فترة صمت تابع حديثه وهو ما زال يبتسم :

ـ أوليس لي شرف التكلّم مع السيد دانيال أيسات الذي أغوى وصيفة زوجتي ؟ .

لم أكن أعلم عمّاً يتكلّم . لكن عند سماعي كلمة وصيفة التي إتهّموني بها للمرة الثانية ، شعرت بالإحمرار يعلو وجهي من الخجل فصرخت بغضبٍ ما بعده غضب : ـ وصيفة ! أنا! . . . لم أغوِ في حياتي أي وصيفة . .

بعدما سمعوا جوابي ، رأيت شرارة احتقار تنبعثُ من نظارات رئيس المدرسة وسمعت المفاتيح تتمتم في الزاوية : « يا للوقاحة ! » .

أما مدير الناحية فلم يتوقّف عن التبسُّم . فأخذ رزمة صغيرة من الأورق كانت موضوعة على صفيحة المدخنة ، ولم أرها في باديء الأمر ، ثم إلتفت نحوي ولوَّح بتلك الأوراق بتراخ قائلاً :

ـ سيدي ، تلك إثباتات خطيرة جداً وتتهّمك . وهي رسائل وجدناها فجأة عند الآنسة المعنيّة . في الواقع هي ليست مُوَقَّعة ، ومن جهة ثانية الوصيفة رفضت أن تسمِّي شخصاً مُعيناً . لكن في تلك الرسائل كلام كثير عن المدرسة ولسوء

حظَّك فالسيد فيو قد تعرَّف على خطك وعلى أسلوبك . . .

وهنا صرَّتْ المفاتيح بضراوة ، وأضاف مدير الناحية وهو يبتسم :

ـ ليس الجميع شعراء في مدرسة سارلاند .

عند سماعي تلك الكلمات ، مرّت ببالي فكرة شاردة ، وأردت رؤ ية تلك الأوراق عن كَثَبْ . هَمَمْتُ بأخذها ، فخاف رئيس المدرسة من وقوع فضيحه وحاول منعي بحركة منه . لكن مدير الناحية أعطاني الملف بهدوء ، ثم قال لي :

ـ أُنظر !

رُحماك يا إلهي ! فتلك مُراسلتي مع سيسيليا .

. . . كل الرسائل موجودة هنا ! منذ التي تبتدىء بِـ : « أوه سيسيليا ، أحياناً على صخرة وحشية . . . » حتى نشيد الشُكر : « أيها الملاك الذي قَبِل تمضية ليلة على الأرض . . . » . لقد ذهب تعبي سُدىً ، كل تلك الورود الجميلة العاشقة والبليغة قد نثرت أوراقها تحت قدمي وصيفة ! . . . وتلك المرأة التي مركزها في غاية الأهمية ، وفي غاية . . . تنظّف كل صباح قباقيب زوجة مدير الناحية من الوحل ! . . . بإمكانكم تخيُّل غيظي واضطرابي .

بعد فترة من الصمت ، قال مدير الناحية بسخرية :

ـ حسناً ما قولك يا سيدي الدون جوان ؟ هل تلك الرسائل كتبتها أنت ، أمْ لا ؟

عِوَض أن أجيب ، أحنيت رأسي . كلمة واحدة تكفي لتبرئتي . لكن تلك الكلمة لم ألفظها . كنت مستعداً أن أتحمّل كل شيء لكي لا أشي بروجيه . . . بإمكانكم أن تلاحظوا انه وسط تلك الكارثة لم يَشكّ « الشيء الصغير » لحظة واحدة في نزاهة صديقه . عندما تعرَّف على الرسائل ، قال في نفسه دون أن يتردَّد : « لا شك ان روجيه قد تكاسل » فلم يكتب رسائل جديدة بل فضّل القيام بجولة بلياردو اضافية ، ثم بعث برسائلي » كم هو بريء هذا « الشيء الصغير » !

عندما رأى مدير الناحية انني ارفض الإجابة ، وضع الرسائل في جيبه ، ثم التفت نحو رئيس المدرسة ونحو رفيقه المعتاد قائلاً :

ـ والآن أيها السيدان ، تعرفان ما هو واجبكما .

عند ذلك إهتزَّت مفاتيح السيد فيو بحزن ، وأجاب رئيس المدرسة وهو شديد الانحناء : «أن السيد أيسات يستحق الطرد في الحال ، لكن لتجنُّب الفضيحة ، سيُسمح له بالبقاء في المدرسة ثمانية أيام أخرى » . أي الوقت اللازم للمجيء بناظر جديد .

لدى سماعي تلك الكلمة الفظيعة « مطرود » خانتني

شجاعتي . فحيّيتهم دون أن أقول شيئاً ، ثم خرجت مُسرعاً . ما كدت أصل خارجاً حتى أنفجرت دموعي . . . فركضت دون أن أتوقّف لغاية غرفتي وأنا اكتم بكائي بمنديلي . . .

كان روجيه في انتظاري ، بدا قلقاً جداً وهو يتمشّى بخطوات كبيرة طولاً وعرضاً . . .

عندما رآني داخلاً أقبل نحوي قائلاً :

ـ سيّد دانيال ! . . .

وهو يستجوبني بنظره . أَلْقَيْتُ بنفسي على كرسيٍ دون أن أُجيب .

فتابع مُدرِّب الشيش بفظاظة قائلاً :

ـ دموع ، أعمال صبيانية ! كل ذلك لا يُبرهن شيئاً . هيا . . . بسرعة ! ماذا حصل ؟

حينئذٍ أخبرته عن مشهد المكتب الفظيع بكل تفاصيله .

كنت ، كلما تقدَّمت في حديثي ، أرى سِيْماء روجيه تصفو رويداً رويداً . لم يَعُدْ ينظر إليَّ بتباهٍ وفي النهاية عندما عَلِمَ كيف تركتهم يطردونني لكي لا أخونه ، مدَّ إليَّ يديه المفتوحتين وقال لي بكل بساطة :

ـ دانيال ، أنت شهم .

في تلك اللحظة سمعنا صوت عربة في الشارع . انه مدير الناحية ينصرف .

أضاف صديقي العطوف ، مُدرِّب الشيش ، وهو يضغط على رُسغيَّ بقوة : أنت رجل شهم ، أنت رجل شهم ، لا أقول لك غير ذلك . . . ولكن يجب أن تعلم أنني لا أسمح لأحد بأن يضحِّي بنفسه من أجلي .

فيما هو يتكلّم إقترب من الباب :

ـ لا تبكِ يا سيد دانيال ، سأذهب لمقابلة رئيس المدرسة ، وأقسم لك بأنك لن تكون أنت المطرود .

قام أيضاً بخطوة ليخرج ، ثم رجع نحوي وكأنه نَسِيَ شيئاً . ثم قال لي بصوت خافتٍ :

ـ لكن ، إسمع هذا جيداً قبل أن أذهب . . . روجيه الضخم ليس وحيداً في العالم . له في مكانٍ ما والدة عاجزة وقابعة في زاوية . . . أُمْ . . . مسكينة تلك المرأة القديسة ! . . . عِدْني بأن تكتب لها عندما ينتهي كل شيء .

قال ذلك بوقار ، بهدوء ، وبلهجة أخافتني . فصرخت قائلاً :

ـ ولكن ماذا تريد أن تفعل ؟ .

لم يَجِبْ روجيه عن سؤالي . لكنه فتح سترته قليلاً وتركني أرى في جيبه مسدساً يلمع .

إنطلقت نحوه وأنا متأثّرٌ جداً :

ـ ستقتل نفسك أيها البائس ؟ ستقتل نفسك ؟ .

فأجاب ببرودة تامة :

ـ يا عزيزي ، عندما كنت في الخدمة العسكرية ، قطعتُ وعداً على نفسي ، بأنه إذا حدث لي ، أثر نزوة من نزواتي ، أن تلوث شرفي ، أو سمعتي ، فلن أعيش في العار . لقد حان الوقت لكي أنفِّذ وعدي . بعد خمس دقائق سأُطرد من المدرسة أي انني سأهان . وبعد ساعة ، الوداع ! أنتحر .

حينما سمعت ذلك وقفتُ بحزم أمام الباب .

ـ لكن لا يا روجيه ! لن تخرج .. أفضّل أن أفقد عملي على أن أكون سبباً في موتك .

فقال لي بقساوة :

ـ دعني أقم بواجبي .

ورُغم جهودي توصَّل الى فتح الباب قليلاً .

حينذاك ، طرأت لي فكرة التحدُّث عن والدته ، عن أمه المسكينة التي هي في مكانٍ ما ، في زاوية . برهنت له انه يجب ان يعيش من أجلها ، أما أنا ففي وسعي إيجاد عمل آخر بسهولة ، وعلى كل حال ما زال أمامنا ثمانية أيام ويجب على

الأقل أن ننتظر حتى آخر لحظة قبل اتخاذ قرار فظيع كهذا. . .
ويظهر ان الحجة الأخيرة أثرّت فيه ، فوافق على تأخير زيارته الى رئيس المدرسة بضع ساعات ، كذلك بالنسبة إلى ما يتبعها.

أثناء ذلك ، قُرع الجرس ، فتعانقنا ونزلت الى المدرسة .

ما أكثر ضعفنا ! دخلت الى غرفتي يائساً وخرجت منها فرحاً تقريباً . . . « الشيء الصغير » فخورٌ جداً بنفسه لأنه أنقذ حياة صديقه الطيب العطوف مُدرِّب الشيش .

ولكن ، ويجب البوح بذلك ، بعدما جلست على مقعدي وبعدما انطفأت حرارة الحماسة ، بدأت أفكِّر . قبِل روجيه بأن يعيش ، لا بأس ، ولكن أنا ماذا سيحلُّ بي بعد أن أُطرد من المدرسة بسبب إخلاصي النبيل وشهامتي ! ؟

إن وضعي لا أُحْسَدُ عليه . بدأت أرى منزلنا مُهدَّداً ، ووالدتي باكية وسيد أيسات غاضباً جداً ، لحسن الحظ تذكّرت جاك . الحمد لله إن رسالته وصلت تماماً هذا الصباح ! . مه يكن بالقضية سهلة . أَوَلَمْ يكتب لي انه يوجد مكان لإثنين في سريره ؟ على كل حال ففي باريس يجد المرء دائمًا شيئاً يعتاش منه . . .

لكن فكرة رهيبة لَجَمَتْ خَيَالي ، للذهاب لا بُدَّ من المال . أولاً دفع ثمن بطاقة القطار ، ثم عليَّ أن أسدِّد ثمانية وخمسين فرنكاً إستدنتُها من البوّاب ، كذلك عشرة فرنكات أخرى أقرْضني إياها أحدهم ، ثم هنالك مَبَالِغ ضخمة مُسجَّلة بإسمي

على دفتر حساب مقهى « باربيت » . ما هو السبيل للحصول على كل هذا المال ؟

قلت وأنا أفكّر ملياً : « أجد نفسي حقاً ساذجاً لأنني أقلق بسبب شيء تافه . أوَلَيْسَ روجيه هنا ؟ روجيه ثريٌ فهو يعطي دروساً في المدينة ، وسيكون سعيداً للغاية بأن يؤمّن لي بضع مئات من الفرنكات . فلقد أنقذت حياته لتوّي .

بعدما رتبت اموري ، على هذا الشكل الافتراضي نسيت كل كوارث النهار وبدأت أفكّر في رحلتي الكبيرة إلى باريس . كنت سعيداً جداً ومضطرباً للغاية ، أما السيد فيو الذي جاء إلى القاعة ليتلذّذ بيأسي ، فقد خاب أمله عندما رأى وجهي المُشرق ، وقت العشاء أكلت جيداً وبسرعة . في الملعب الغيتُ عقوبات التلاميذ . وأخيراً جاء وقت الدرس .

أهم شيء مقابلة روجيه . وبقفزة واحدة دخلت غرفته . لكنني وجدتها خالية . فقلت في نفسي : « حسناً ! من المحتمل انه ذهب الى مقهى « باربيت » . ولم يُدهشني ذلك نظراً إلى الظروف المأساوية التي نمرُّ بها .

لكني لم أجده في مقهى « باربيت » ، وقِيْلَ لي : « ذهب روجيه إلى الحقل مع الرُّتباء » . اللعنة ، ماذا يفعلون هناك في هذا الطقس الرديء ؟ بدأت أقلق . لذا رفضت جولة بلياردو عُرضتْ عليَّ ، ثم رفعت طرف سروالي وانطلقت في الثلج نحو الحقل لأبحث عن صديقي الطيب ، مُدرِّب الشيش .

XII

الحلقة الحديديّة

من مداخل سارلاند لغاية الحقل ، مسافة نصف ميل . لكنني حثثت الخطى الى حد اني قطعت تلك المسافة بأقل من ربع ساعة . كنت أرتجف خوفاً على روجيه . وخشيتُ ان يكون الفتى المسكين رُغم وعْدِهِ ، قد أخبر رئيس المدرسة بكل شيء فيما كنت اقوم بنظارتي . وتراءى لي مسدَّسه اللامع . تلك الفكرة الحزينة جعلتني أسرع اكثر .

ولكن كلما تقدّمت في سَيْري أرى على الثلج آثار أقدام عديدة مُتّجهة نحو الحقل . مُدرِّب الشيش ليس وحده . وهكذا إطمأنيت قليلاً .

حينئذٍ خفَّفتُ من سرعتي وفكّرت في باريس ، في جاك ، وفي رحيلي . . . لكن بعد فترة وجيزة ، عاودتني مخاوفي .

سيقتل روجيه نفسه حتمًا ، وإلا ، فماذا جاء يفعل في هذا المكان المُقفر ، بعيداً عن المدينة ؟ لقد جاء برفاقه في مقهى « باربيت » ليودِّعهم ويشرب جُرعة قبل رحيله كما يقولون . . . أوه ! أولئك العسكريون ! . . . وها أنا من جديد أركض بسرعة هائلة .

دنوتُ من الحقل ورأيت أشجاره الكبيرة المُثقلة بالثلج . فقلت في نفسي : « الصديق المسكين ، المهم أن لا أصل مُتأخِّراً ! »

قادتني آثار الأقدام لغاية خمّارة « أسبارون » .

تلك الخمّارة هي مكان مشبوه وذو سمعة سيِّئة يرتاده كل من هم فاسقون في سارلاند فيشربون حتى الثمالة . أتيت الى تلك الخمّارة أكثر من مرّة برفقة ذوي الشهامة ، لكنني لم أرها قط مُقلقة كما رأيتها في ذلك اليوم . فهي صفراء ووسخة وسط السّهل الناصع البياض ، وتختبىء ببابها الوطيء ، وجدرانها التي فقدت طلاءها ونوافذها التي لم يُنظَّف زجاجها كما يجب ، تختبىء وراء غابة من أشجار الدرْدار الصغيرة . وبدا كأن المكان خجل بالاعمال التي تُمارس فيه .

فيما أنا أقترب سمعت دوياً فرحاً من الأصوات والضحكات والكؤوس المتلاطمة .

فقلت في نفسي وأنا أرتعش : «يا الهي ! انهم يشربون الكأس الأخيرة» . فتوقفت لأستعيد أنفاسي .

وجدت نفسي في الجهة الخلفية من الخمارة ، فدفعت بباب ذي شباك ودخلت الى الحديقة . بئس تلك الحديقة ! سياج كبير عار ، مجموعات من الليلك مجردة من أوراقها ، قُمام مكدس على الثلج وعرائش شديدة البياض تشبه أكواخ سُكان القطب الشمالي . انه لمنظر تعيس حتى البكاء ! .

تلك الجلبة مصدرها قاعة الطابق الأرضي، والافراط في الأكل والشرب وصل الى قمته في تلك اللحظة، ذلك انهم فتحوا النافذتين على مصراعيهما رغم البرد.

ما كدت أضع قدمي على الدرجة الأولى في المدخل حتى سمعت شيئاً أوقفني كلياً وجمد الدم في عروقي: ذاك الشيء كان اسمي الملفوظ وسط القهقهات العالية. كان روجيه يتكلم عني. والغريب في الأمر انه كلما تردد اسم دانيال أيسات يضحك الآخرون بشدة.

دفعني فضول موجع، وانا شاعر باني ساطلع على امر خارق. ارتددت الى الوراء ودون أن يسمعني أحد، بفضل الثلج الذي يصم صوت خطواتي كسجادة، دخلت بسرعة تحت احدى العرائش التي تقع تماماً تحت النوافذ.

لن أنسى تلك الخيمة ما دمت حياً، ولن أنسى طيلة حياتي ذلك الخضار اليابس الذي يكسوها وأرضها الموحلة والوسخة، كذلك طاولتها الصغيرة المطلية بالأخضر ومقاعدها الخشبية التي ينساب منها الماء... والضوء يكاد لا يدخلها من خلال الثلج الذي يعلوها. والثلج يدوب ببطء وينزل على رأسي نقطةً نقطة.

هنا في تلك الخيمة السوداء والباردة كالقبر، تعلمت كم يستطيع البشر أن يكونوا أشراراً وجبناء. هنا تعلمت الشك والإحتقار والحقد... أه! أنتم الذين يقرأون كتابي فليحمكم الله دوماً من الدخول الى تلك الخيمة!... استمعت الى ما يقال

عند « اسبارون » وأنا واقف كاتم أنفاسي وقد احمر وجهي من الغضب والخجل.

صديقي الطيب العطوف مدرب الشيش كان لا يزال يتكلم. ويخبرهم عن مغامرة سيسيليا، عن المراسلة العاطفية وعن زيارة حضرة مدير الناحية الى المدرسة. تكلم عن كل ذلك بتنميق وأضاف حركات لابد انها مضحكة لأن المستمعين كانوافي هيجان مستمر. سمعته يقول بصوته الساخر: تدركون يا اعزائي أن التمثيل خلال ثلاث سنوات على المسرح الجزائري أيام الخدمة العسكرية هو ذو فائدة. لقد اعتقدت للوهلة الأولى انه قضي علي وقلت في نفسي انني لن آتي بعد اليوم معكم لأشرب النبيذ الطيب عند الأب «اسبارون»... صحيح ان ايسات لم يكن قد باح بشيء بعد، ولكن كان لايزال امامه وقت للكلام اذا هو اراد ذلك. بيني وبينكم، كان يريد ان يترك لي شرف تسليم نفسي والاعتراف باني انا المذنب. فقلت في نفسي: «خذ حذرك يا روجيه ومثل دورك الكبير!»

حينئذٍ بدأ صديقي الطيب العطوف مدرب الشيش بتمثيل ما دعاه دوره الكبير، أي انه أخبرهم ماذا حصل صباحاً وفي غرفتي بيني وبينه. آه! الشقي! لم ينس شيئا... كان يصرخ بلهجة مسرحية: «أمي! أمي المسكينة!» ثم يقلد صوتي: «لا يا روجيه! لا! لن تخرج!...» المشهد الكبير كان فعلاً هزلياً والمستمعون قهقهوا أما أنا فقد شعرت بدموع غزيرة تنساب على وجنتي، وانتابتني رعشة، وطنت أذناي. لقد انكشفت أمامي مسرحية

الصباح البشعة، وفهمت بعض الحقائق ومنها أن روجيه قد بعث برسائلي عن قصد ليحمي نفسه من كل سوء، وإن والدته، والدته المسكينة قد توفيت من عشرين سنة، وانني حسبت كيس غليونه. . . مسدساً!

فقال رجل:

-وماذا حل بسيسيليا الجميلة؟

-سيسيليا لم تقل شيئاً، لقد حزمت حقائبها ورحلت. انها فتاة طيبة.

-وماذا سيحل بدانيال؟

أجاب روجيه:

-مَهْ!

ثم قام بحركة أضحكت الجميع. تلك القهقهة افقدتني صوابي. فرغبت الخروج من الخيمة والظهور فجأة كالشبح بينهم. لكنني تمالكت نفسي: لقد بدوت سخيفاً بما فيه الكفاية حتى الآن.

جاؤوا بالشواء والتطمت الكؤوس فصرخوا قائلين:

-نخب صحة روجيه! صحة روجيه!

لم أعُدْ أحتمل. لقد تألمت كثيراً. ودون أن أقلق فيما لو رآني أحد انطلقت وسط الحديقة. وبقفزة واحدة جاوزت الباب ذا الشباك وبدأت أركض كالمجنون في الجهة المعاكسة.

حل الليل بصمت. وحقل الثلج هذا، الشاسع، اتخذ في دغشة الغروب طابعاً حزيناً جداً.

ركضت على هذا النحو بعضاً من الوقت كجدي جريح. ومع ان القلوب التي تتحطم والتي تنزف ليست سوى طرق في الكلام يستعملها الشعراء، أقسم لكم انه كان في الامكان ايجاد أثر طويل من الدم خلفي على السهل الأبيض.

شعرت بالضياع. من أين آتي بالمال؟ ما العمل لكي أرحل؟ كيف سأوافي أخي جاك؟ وفضح أمر روجيه لا أجني منه أية فائدة. يستطيع أن ينكر بعدما رحلت سيسيليا.

أخيراً، ألقيت بنفسي على الثلج وعلى جذع شجرة كستناء، بعدما أنهكني التعب والألم. بكيتُ ولم أعُدْ أقوى على التفكير. وكان يمكن ان ابقى في هذا المكان حتى اليوم التالي. فجأة سمعت جرساً يُقرع بعيداً جداً ومن جهة سارلاند. كان جرس المدرسة. لقد نسيت كل شيء. ذلك الجرس دعاني الى الحياة من جديد. يجب أن أعود لأراقب الطلاب في القاعة خلال فترة الاستراحة. عندما فكرت في القاعة طرأت لي فكرة فجائية، فتوقفت دموعي. شعرت اني أصبحت أقوى وأكثر هدوءاً فوقفت وسلكت من جديد طريق سارلاند، كرجل واثق من نفسه اتخذ لتوه قراراً لا رجوع عنه.

إذا أردتم أن تعرفوا ما هو هذا القرار الذي لا رجوع عنه

والذي اتخذه «الشيء الصغير» لتوه، اتبعوه الى سارلاند وسط ذلك السهل الكبير الأبيض. اتبعوه في طرقات المدينة المظلمة والموحلة، اتبعوه حتى مدخل المدرسة، اتبعوه في القاعة خلال فترة الاستراحة، ولاحظوا كيف انه ينظر باصرار غريب الى الحلقة الحديدية الكبيرة التي تتمايل في وسط القاعة. عند انتهاء فترة الاستراحة اتبعوه أيضاً لغاية الصف واصعدوا معه على منبره، واقرأوا من فوق كتفه تلك الرسالة المؤلمة التي يكتبها وسط الجلبة وبين الأولاد المهيجين:

«حضرة السيد جاك أيسات
شارع بونابرت- باريس

سامحني يا عزيزي جاك لأنك ستتألم بسببي. أنت الذي لم يعد يبكي، سأبكيك مرة أخرى فقط، ستبكي للمرة الأخيرة... عندما ستتسلم هذه الرسالة سيكون دانيال المسكين قد مات...»

هنا تضاعفت الجلبة في الصف، فتوقف «الشيء الصغير» عن الكتابة ووزع بضع عقوبات هنا وهناك بوقار ودون غضب. ثم تابع رسالته:

«أتعلم يا جاك؟ كنت تعيساً جداً، فلم أستطع سوى قتل نفسي. لقد قضي على مستقبلي بعدما طردت من المدرسة-

القضية تتعلق بامرأة، أشياء كثيرة للغاية لا وقت لاخبارك بها، ولقد تراكمت علي الديون، لم أعد أعرف كيف أعمل، انني خجل بنفسي، أمل، ولقد كرهت كل شيء، فالحياة تخيفني... أفضل أن أذهب...».

اضطر «الشيء الصغير» أن يتوقف مرة أخرى عن الكتابة: «خمسمئة بيت شعر الى التلميذ «سوبايرول»! «فوك» «ولوبي» ستبقيان في المدرسة نهار الأحد!»

بعد ذلك أنهى رسالته:

«وداعاً يا جاك! أريد أن أقول لك أشياء كثيرة، ولكن أشعر اني سأبكي، والطلاب ينظرون اليّ. قل لوالدتي أنه خلال نزهة زلقت من أعلى صخرة، أو انني غرقت فيها أنا أتزحلق على الجليد. المهم أن تخترع قصة لكي تجهل دائمًا المرأة المسكينة الحقيقة!... قبلها عني تلك الوالدة العزيزة، قبل أيضاً والدنا وحاول أن تعيد بسرعة بناء منزل جميل... الوداع! أحبك. تذكر دائمًا: دانيال».

بعد انتهاء تلك الرسالة، بدأ «الشيء الصغير» حالاً كتابة رسالة أخرى على النحو الآتي:

«حضرة الأب جرمان، أرجوك أن توصل الى أخي جاك الرسالة التي أتركها له. وفي المناسبة، خذ خصلة من شعري وارسلها الى والدتي.

أطلب منك أن تسامحني من أجل الازعاج الذي أسببه لك. لقد قتلت نفسي لاني كنت هنا تعيساً جداً. أنت وحدك، حضرة الأب، كنت دوماً عطوفاً جداً نحوي، وأشكرك على ذلك.
دانيال أيسات»

وضع «الشيء الصغير» تلك الرسالة ورسالة جاك في ظرفٍ كبير كتب عليه: «أول شخص سيجد جثتي، أرجو منه أن يسلم هذا الظرف الى الأب جرمان» وبعدما أنهى كل أعماله، انتظر بهدوء نهاية الصف.

انتهى الصف، تناولوا العشاء، صلوا، ثم صعدوا الى غرفة المنامة. نام الطلاب. تمشى «الشيء الصغير» طولاً وعرضاً في انتظار أن يغفو الطلاب ها هو الآن السيد فيو يقوم بجولته.

تسمع قعقعة مفاتيحه الغامضة ويسمع حفيف قلشينه فيما هو يلامس الأرض الخشبية. فتمتم «الشيء الصغير»: «مساء الخير يا سيد فيو!» أجابه الناظر بصوت خافت: «مساء الخير سيدي!» ثم ابتعد فتاهت خطواته في الرواق.

أصبح «الشيء الصغير» وحيدا فتح الباب على مهل، ثم توقف لحظة في العتبة ليتأكد من أن الطلاب لم يستفيقوا. لكن كل شيء هادىء في غرفة المنامة.

حينئذٍ نزل، ومشى بخطوات صغيرة صامتة في ظل الجدران.

الـريح الشمالية القـارسة تهب من تحت الأبـواب. في أسفل السلالم، عندما مر أمام الرواق الداخلي، رأى الملعب مكسواً بالثلج ومحاطاً بأربعة دور كبيرة ومظلمة.

وفوق، قرب السطوح، ضوء يسهر: ذلك هو الأب جرمان الذي يعمل على انجاز كتابه الكبير. فأرسل «الشيء الصغير» من أعماق قلبه وداعاً أخيراً وصادقاً الى رجل الدين الـطيب هذا، ثم دخل الى القاعة...

صالة الرياضة القديمة في مدرسة البحرية سابقاً، يهيمن عليها ظل بارد ومشؤوم. من خلال شعرية نافذة نزل قسم صغير من القمر وسطع نور على الحلقة الحديدية الكبيرة- آه! تلك الحلقة الحديدية لا يفكر «الشيء الصغير» الا فيها منذ ساعات. تلك الحلقة الحديدية الكبيرة تلمع كالفضة تحت ضـوء القمر. في احدى زوايا القاعة تغفو مرقاة ذات ثلاث قـوائم، فأتى بهـا «الشيء الصغـير» ووضعها تحت الحلقـة ثم صعد عليهـا. لم يخـطىء في تقديراته لأن تلك المـرقـاة تعلو تمـامـاً الى الحـد الضروري. حينئذٍ حل ربطة عنقه. ربطة عنق طويلة من الحرير الليلكي، يضعها حول عنقه وهي متجعدة كما لو كانت شريطاً. ثم علق ربطة العنق بالحلقة وصنع ربقـة... دقت السـاعـة الواحدة. هيا! آن الأوان للموت... وبيد مرتجفة فتح «الشيء الصغير» الربقة، كما لو ان الحمى قد سلبت عقله.

وداعاً يا جاك! وداعاً يا سيدة أيسات!...

فجأة، هوت عليه يد قوية. فشعر بأنه التقط في منتصف جسمه ونصب على رجليه في أسفل المرقاة. وفي الوقت نفسه قال له صوت قاس وساخر هو يعرفه جيداً: «يا لها من فكرة غريبة! تمارس الجمباز في هذه الساعة المتأخرة من الليل!»

فالتفت «الشيء الصغير» مذهولاً.

انه الأب جرمان، الأب جرمان دون ثوبه الكهنوتي، مرتدياً فقط سروالاً قصيراً وياقته متدلية على صدرته. وجهه الجميل البشع يبتسم بحزن وقد أضاءه القمر نصفياً... اكتفى بيد واحدة ليضع المنتحر على الأرض وباليد الثانية كان ما زال ممسكاً بقنينته التي عبأها لتوه من حوض الملعب.

لم يعد الأب جرمان يبتسم حين رأى وجه «الشيء الصغير» المرتعب وعينيه المغرورقتين بالدموع، بل ردد بصوتٍ ناعم ومتحنن تقريباً:

-يا لها من فكرة غريبة يا عزيزي دانيال بأن تمارس الجمباز في هذه الساعة المتأخرة من الليل!

-حضرة الأب المحترم، لا أمارس الجمباز، بل أريد أن أموت.

-ماذا تقول!... تريد أن تموت؟... هل أنت حزين الى هذ الحد؟

أجاب «الشيء الصغير»:

ـآه! . . .

وانهمرت دموع غزيرة ومحرقة على وجنتيه.

فقال رجل الدين:

ـستأتي معي يا دانيال.

أجابه «الشيء الصغير» بالنفي وأشار الى الحلقة الحديدية والى ربطة العنق. . . أخذه الأب جرمان بيده قائلاً:

ـكف عن هذه الحركات واصعد الى غرفتي. اذا اردت أن تقتل نفسك حسناً ستقتل نفسك فوق حيث المكان دافىء لأن النار مشتعلة في المدخنة.

لكن «الشيء الصغير» قاوم:

دعني امت يا محترم. ليس لك الحق أن تمنعني من ان أموت.

فلاحت ومضة من الغضب في عيني الكاهن وقال:

ـآه! هكذا اذاً!

ثم امسك فجأة «الشيء الصغير» بحزامه وذهب به بعدما وضعه تحت ذراعه كرزمة، رغم مقاومته ورغم توسلاته. . .

. . . ها نحن الآن عند الأب جرمان: ففي الموقدة تبرق نار متأججة، وقرب النار طاولة ومصباح مشتعل، وثمة أيضاً غلايين ومجموعة من الأوراق التي كتب عليها بخطٍ لا يقرأ بسهولة.

«الشيء الصغير» جالس قرب الموقدة. انه مضطرب جداً،

يتكلم كثيراً، يروي قصة حياته، وتعاساته ولماذا اراد ان ينتحر. يستمع اليه الكاهن وهو يبتسم. وبعدما تكلم «الشيء الصغير» كثيراً، وبكى كثيراً وفرج عن هموم قلبه المسكين، أمسك الرجل الطيب بيديه وقال له بهدوء:

-كل ذلك لا شيء يذكر يا ولدي، وكنت حقاً ستكون غبياً لو قتلت نفسك من أجل أمور تافهة كهذه. قصتك بسيطة للغاية: طردت من المدرسة. وهذا، بصرف النظر عن الأمور الأخرى، هو من حسن حظك... حسناً، يجب أن تذهب، وأن تذهب حالاً دون أن تنتظر الثمانية أيام الباقية... اللعنة!... أنت لست بطاءٍ. لا تقلق بشأن رحلتك وبشأن ديونك! أنا سأهتم بذلك... والمال الذي أردت أن تستدينه من ذلك الخبيث، أنا سأقرضك إياه... سنبت غداً كل تلك الأمور... والآن لا تتفوه بكلمة! يجب أن أعمل ويجب أن تنام... لكن لا أريدك أن ترجع الى غرفتك القبيحة لأنك «ستبرد وستخاف». ستنام في سريري، فشراشفه البيضاء الجميلة وضعت هذا الصباح!... أما أنا فسأكتب طول الليل، وإن غلبني النعاس فسأستلقي على هذه الأريكة... عمت مساءً! لا تكلمني بعد الآن.

نام «الشيء الصغير» ولم يقاوم... كل ما يحصل له يمر عليه كالحلم. كم من أحداث وقعت خلال نهار واحد! لقد كان قريباً جداً من الموت، ثم وجد نفسه في سرير مريح وفي تلك الغرفة

الهادئة الدافئة! كم يجد «الشيء الصغير» نفسه مرتاحاً!... من وقتٍ الى آخر وحين يفتح عينيه، يرى تحت ضوء المصباح الناعم، وجه الأب جرمان الطيب الذي ينقل ريشته بصوت خفيف من أعلى الأوراق البيضاء الى اسفلها، وهو يدخن.

... أيقظني صباح اليوم التالي الأب جرمان الذي ربت على كتفي. قمت من النوم ناسياً كل شيء مما أضحك منقذي كثيراً فقال لي:

ـهيا يا ولدي! فالجرس يقرع، أسرع، لن يلحظ أحد شيئاً، اذهب الى تلاميذك كالعادة. وخلال استراحة الظهيرة سأنتظرك هنا لنتحدث.

تذكرت فجأة ما حصل لي. أردت أن أشكره، لكن الكاهن الطيب أخرجني من الغرفة.

لا لزوم أن أقول لكم ان وقت دوامي قد بدا طويلاً... ما كاد الطلاب ينزلون الى الملعب حتى وجدت نفسي أطرق باب غرفة الأب جرمان. وجدته وراء مكتبه، الجوارير مفتوحة على مصراعيها، وهو منهمك بعد قطع نقدية ذهبية بجمعها في كوم صغيرة وضعت بدقة الواحدة تلو الأخرى. أدار رأسه حين دخلت، ثم عاد الى عمله دون أن يقول لي شيئاً. عندما انتهى أقفل جواريره، وباشارة من يده، قال لي وهو يبتسم بعطف:

ـكل هذا المال هو لك. نظمت حساباتك. فهذه الكمية

للرحلة، وهذه للبواب، وهذه لمقهى «باربيت»، وهذه للتلميذ الذي أقرضك عشرة فرنكات. . . لقد وضعت هذا المال جانباً لكي أدفع مصاريف الشخص الذي سيحل مكان شقيقي «كاديه» في الخدمة العسكرية لكن «كاديه» لن يبارح المدرسة الا بعد ست سنوات. ولذلك الحين نكون قد التقينا من جديد.

أردت أن أتكلم، لكنه لم يفسح لي المجال:

ـ والآن يا ولدي ودعني. . . لقد قرع جرس صفي، وعندما سأنتهي من حصتي لا أريد أن أراك هنا، فالهواء في هذا السجن لا يلائمك. . . ارحل بسرعة الى باريس، اعمل جيداً، صلّ لله، دخن الغليون وحاول أن تكون رجلاً. . . هل تسمعني، حاول أن تصبح رجلاً. . . لأنك يا ولدي دانيال ما زلت طفلاً، حتى انني أخشى أن تبقى طفلاً طول حياتك.

حينئذٍ فتح لي ذراعيه وارتسمت على شفتيه بسمة الهية. أما أنا فقد ارتميت على قدميه منتحباً. فأنهضني وقبلني على الخدين.

دق الجرس للمرة الأخيرة.

فقال وهو يلملم بسرعة كتبه ودفاتره:

ـ حسناً! ها قد تأخرت.

وفيما هو يهم بالخروج، التفت نحوي مرة أخرى قائلاً:

ـ أنا ايضاً لي أخ في باريس وهو كاهن شجاع، بامكانك أن تقابله. . . ولكن! في حالتك الحاضرة حتماً ستنسى عنوانه. . .

ودون أن يضيف شيئاً، نزل السلالم بخطوات كبيرة وثوبه الكهنوتي طفا خلفه. أمسك بقبعته الصغيرة في يده اليمنى، ووضع تحت ذراعه اليسرى رزمة كبيرة من الأوراق ومن الكتب... الأب جرمان! يا له من رجل طيب. قبل أن أرحل، ألقيت نظرة أخيرة على غرفته. فتأملت للمرة الاخيرة المكتبة الكبيرة، الطاولة الصغيرة، النار التي انطفأت نصفياً، الكرسي الذي بكيت عليه كثيراً والسرير الذي نمت فيه براحة تامة. وحين فكرت في تلك الحياة الغامضة التي استشفيّت فيها شجاعة فائقة، وطيبة كبيرة مخبأة، واخلاصاً وقناعة لا حدود لها، حين فكرت في كل ذلك لم أتمكن من ردع نفسي عن الخجل بجبني. وعاهدت نفسي أن أتذكر دائمًا الاب جرمان.

وفي انتظار ذلك الحين، مر الوقت... فعلي ان أحزم حقيبتي، أن أدفع ديوني وأن أحجز مكاناً لي في عجلة المسافرين... وفيما أنا خارج رأيت في احدى زوايا المدفأة غلايين عدة قديمة يغلفها السواد. فأخذت الغليون الاقدم والأكثر سواداً والأقصر، ووضعته في جيبي كذخيرة، ثم نزلت.

في الطابق الأول مازال باب صالة الرياضة القديمة مفتوحاً قليلاً. فلم أتمكن من ردع نفسي عن القاء نظرة وأنا مارٌ، وما رأيته جعلني أرتعش. رأيت الصالة الكبيرة المظلمة والباردة، ورأيت الحلقة الحديدية اللماعة وربطة عنقي الليلكية بربقتها وهي تتمايل في مجرى الهواء فوق المرقاة المقلوبة.

XIII

مفاتيح السيد فيو

فيما أنا خارج من المدرسة بخطوات كبيرة ، كنت لا أزال مُتأثراً بالمشهد المرعب الذي رأيته لتوّي ، وفجأة فُتِح باب مسكن البواب وسمعت أشخاصاً ينادونني : « يا سيد أيسات ! يا سيّد أيسات ! » .

انهما صاحب مقهى « باربيت » وصديقه الـوقور السيـد « كسانيو » وبدوا مشدوهين ، يكادان يقاربان الوقاحة . فتكلم أولاً صاحب المقهى :

ـ أحقاً أنت راحل يا سيد أيسات ؟

ـ اجبته بهدوء :

ـ نعم يا سيد باربيت ، إنني راحل اليوم بالذات .

فقفز السيد باربيت وكذلك السيد كسانيو . لكن قفـزة السيد باربيت كانت أقوى بكثير من قفزة السيد كسانيو لأنني أدين له بمبلغ أكبر من المال .

ـ ماذا ! اليوم بالذات !

ـ اليوم بالذات ، سأسرع بالذهاب في هذه اللحظة لأحجز مكاناً لي في عربة المسافرين .

تهيّأ لي انهما سيمسكان بعنقي . فقال السيد باربيت :

ـ أين مالي ؟

ـ وصرخ السيد كسانيو:

ـ اين مالي أنا ايضاً .

ودون أن أُجيب دخلت الى مسكن البواب ، وبعدما سحبت بوقار وبكلتا يديّ قطع الذهب الجميلة التي أعطاني إياها الأب جرمان ، بدأت أعُدُّ على طرف الطاولة ما أدين به للإثنين .

حينئذٍ وقع انقلاب فجائي ! الوجهان العابسان إنفرجت أساريرهما بطريقة سحرية . . . لقد كانا خجولين من المخاوف التي ابدياها امامي ، وفي الوقت نفسه فرحين لأنني سددت لهما ديوني . وبعدما وضعا المال في جيوبهما ، أغدقا عليّ أقوالاً تبجيلية قدما لي فيها تعزيتهما وعرضا إحتجاجهما كصديقين :

ـ حقاً ستتركنا يا سيد أيسات؟ . . . أوه! إنها لخسارة كبيرة! خسارة لا تعوض بالنسبة الى المدرسة!

وتوالت تعابير التعجب والتأسف والتنهدات والمصافحات والدموع المكبوتة . . .

لغاية البارحة كان من الممكن أن أخدع بتلك الصداقة المتزلفة. أما الآن فقد أصبحت فاقد الحس تجاه القضايا التي تتعلق بالشعور. فالربع ساعة الذي امضيته تحت الخيمة علّمني طريقة كشف حقائق البشر، أو على الأقل كنت أعتقد ذلك، وكلّما أبدى لي هذان الطباخان القبيحان ودهما، زاد اشمئزازي منهما. لذا وضعت حداً لعاطفتهما السخيفة، فخرجت من المدرسة وذهبت بسرعة لأحجز مكاناً لي في عربةالمسافرين المباركة التي ستقلني بعيداً عن جميع أولئك الوحوش.

عندما رجعت من مكتب وكالة عربات السفر، مررت أمام مقهى «باربيت» ، لكنني لم أدخل إليه. إني أشمئز من هذا المكان. اكتفيت بالنظر إلى الداخل من خلال النوافذ، ودفعني إلى هذا التصرف حشرية فاسدة. . . المقهى يعج بالناس المتحلقين حول طاولة البلياردو. فالرابح في ذلك اليوم هو الذي يتغلّب على جميع اللاعبين. وبين دخان الغلايين تلمع عهنات القلنسوات العسكرية وتبرق الأحزمة المعلقة على المشاجب. فجميع ذوي الشهامة كانوا موجودين ولم يكن غائباً سوى مدرب الشيش.

نظرت إلى تلك الوجوه السمينة والحمراء التي تتضاعف في المرايا، وإلى الكحول المثلومة على طرفها. شعرت بالخجل عندما فكّرت أني عشت في هذا المكان الموبوء. . . تراءى لي الشيء الصغير وهو يدور حول طاولة البلياردو، يعد النقاط، يدفع ثمن

المشروب، مهان، محتقر، يفسد يوما بعد يوم وهو يمضغ باستمرار بين أسنانه ماسوره غليون أو لازمة ثكنات. تلك الرؤ يا أرعبتني أكثر من التي حصلت لي في قاعة الرياضة، عندما رأيت ربطة العنق الصغيرة الليلكية تتمايل في الهواء.... فهربت...

وفيما كنت ذاهباً إلى المدرسة وقد تبعني سائق عربة المسافرين ليأخذ حقيبتي، رأيت مُدرب الشيش مقبلاً إلى الساحة، نشيطاً وفرحاً، ممسكاً بعصا في يده، وواضعاً قبعة من اللبد على رأسه، متباهياً بشاربيه الدقيقين وناظراً إليهما في مرآة جزمته الململعة المطلية بدهان صيني «من المؤسف حقاً أن يملك رجل بهذا المقدار من الجمال روحاً شريرة للغاية!...». هو أيضاً رآني وأقبل نحوي، راسماً على شفتيه بسمة طيبة، نزيهة جداً، وفاتحاً ذراعيه الكبيرتين... أوه! لقد تذكرت حادثة الخيمة!

قال لي:

ـكنت أبحث عنك... أصحيح ما سمعت؟ أنت...

ثم توقف فجأة عن الكلام. لقد سمرت نظرتي كلماته الكاذبة على شفتيه ومن خلال تلك النظرة التي تحدق به مباشرةً، لابد ان ذلك اللئيم قد قرأ أشياء كثيرة. ذلك انني رأيته فجأة يشحب، يتمتم ثم يضطرب وانتهى بفقدان ثقته بنفسه. لكنه لم يبق على هذه الحال سوى لحظة واحدة. بعدها إستعاد مباشرة

حيويته المعهودة، ونظر إليّ بعينين باردتين وبراقتين كالفولاذ. ثم أخفى يديه في قعر جيبيه بحزم وابتعد وهو يتمتم قائلاً ان الذين غير راضين عن تصرفه ما عليهم سوى أن يصارحوه بذلك...

أيها الوغد!

عندما رجعت إلى المدرسة وجدت التلامذة في الصف. صعدت إلى غرفتي الحقيرة مصطحباً معي السائق. ثم حمل الرجل الحقيبة على كتفيه ونزل. أما أنا فقد أمضيت بضع ثوانٍ أخرى في تلك الغرفة الباردة، أنظر إلى الجدران العارية والمتسخة، وإلى المنضدة السوداء المجرحة. ثم ألقيت نظرة من النافذة الضيقة على الملاعب حيث تطل رؤوس أشجار الدلب المغطاة بالثلج... وفي نفسي قلت وداعاً لكل ذاك العالم.

في تلك اللحظة، سمعت صوتاً جهورياً يدوي في الصفوف ذلك كان صوت الأب جرمان الذي دفأ قلبي وادمع عيني على الأثر، نزلت السلّم ببطء وأنا أتأمل حولي ملياً، كانني أردت أن أخبىء في عيني صورة تلك الأماكن بكل تفاصيلها، تلك الأماكن التي لن أراها بعد اليوم. وعلى هذا النحو إجتزت الأروقة الطويلة ذات النوافذ المغلقة بشعريات وحيث ظهرت لي صاحبة العينين السوداوين للمرة الأولى!... ومررت أيضاً أمام مكتب رئيس المدرسة ذي الباب المزدوج الغامض، ثم على بعد خطوات أمام مكتب السيد فيو... في هذا المكان توقفت فجأةً

يا للفرح، يا لها من لذة! فالمفاتيح، المفاتيح الرهيبة تتدلى من القفل والهواء يحركها بلطف. نظرت إلى تلك المفاتيح المخيفة، نظرت إليها برهبة دينية، ثم خطرت لي فجأة فكرة الإنتقام. وبيد مدنسة سحبت غدراً رزيمة المفاتيح من قفل الباب وخبأتها تحت سترتي، بعد ذلك نزلت السلم بسرعة هائلة.

كانت في قصاء ملعب الصفوف التكميلية بئر عميق جداً ذهبت إليها مباشرةً... فالملعب في تلك الساعة مقفر، والساحرة ذات النظارات لم ترفع ستارتها بعد. الجو ملائم لإتمام جريمتي. حينذاك أخذت المفاتيح المخبأة تحت ثيابي، تلك المفاتيح اللعينة التي طالما عذبتني، ورميت بها بكل قواي في البئر.... سمعتها تتدحرج وتثب بعد أن تلتطم بجانب الجدران الداخلي، ثم وقعت بثقلٍ في الماء الذي غمرها. بعدما قمت بذلك الجرم ابتعدت وأنا أبتسم.

وفي المدخل، حين كنت خارجاً من المدرسة، آخر شخصٍ إلتقيت به كان السيد فيو، ولكن دون مفاتيحه على غير عادته، شرساً، مرتعباً، راكضاً، يميناً وشمالاً. عندما مرَّ بقربي نظر إليّ بقلق. كان بود هذا التعيس أن يسألني إذا كنت قد رأيت المفاتيح. ولكنه لم يجرؤ... في تلك اللحظة، سمعت البواب يصرخ من أعلى السلم وهو ينحني قائلاً: «يا سيد فيو لم أجدها!» فسمعت الرجل يقول بصوت خافت: «أوه! يا إلهي!»، ثم ذهب كالمجنون ليبحث عنها.

وددت أن أتمتع أكثر بـذاك المشهد، لكن بـوق عربـة المسافرين قد صات في « ساحة السلاح »، فلم أرد أن يقلعوا من دوني.

والآن، وداعاً للأبـد أيتها المـدرسة المسـودة بالـدخان، والمصنوعة من الحديد القديم والحجارة السوداء؛ وداعاً أيهـا الاولاد الاشرار وداعاً أيها النظام المفترس فالشيء الصغير سيطير ولن يعود أبداً. وأنت أيها المركيز دو بوكواران، إعتبر نفسك محظوظاً؛ سأذهب دون أن أسدد لك ضربـة السيف تلك، العظيمة التي طالما فكرت فيها ملياً مع زبائن مقهى «باربيت» الذين يتحلون بالشهامة....

إضرب بسوطك أيها السائق! أنقر أيها البوق! ويا عربة المسافرين القديمة والرحومة، إستعملي كل إمكانات عجلاتك الأربع، وارحلي بالشيء الصغير بسرعة واستعيني بـأحصنتك الثلاثة... امضي به بسرعة إلى مسقط رأسه ليقبّل والدته المقيمة عند الخال «باتيست»، وليتجه بعد ذلك إلى باريس ليلتقي بأسرع وقت ممكن شقيقه جاك أيسات الذي يسكن غرفة في الحي اللاتيني.

XIV

الخال « باتيست »

الخال باتيست ، شقيق السيدة أيسات ، رجل فريد من نوعه ! ليس طيباً ولا شريراً ، تزوج باكراً من إمرأة مُتسلطة ، بخيلة ، نحيلة ، ترعبه . ذاك الطفل العجوز لا يمارس سوى هواية واحدة : هواية التلوين . فهو يعيش منذ أربعين سنة تقريباً محاطاً بأقداح ، بمناقش وبألوان ، ويمضي وقته في تلوين صور يأخذها من صحف مُزْدانة بالرسوم والمنزل مليء « بالرسوم » القديمة ، « بالأشياء » القديمة ، و « بالمخازن » القديمة والجديرة بأن تُصوَّر ! ومليء أيضاً بالخرائط الجغرافية ! وكل ذلك مُلوَّن تلويناً قوياً . حتى في أيام العَوَزْ ، أي حينما ترفض زوجته أن تعطيه مالاً لكي يشتري صُحُفاً مزدانة بصور ، فإن خالي يلوِّن كتباً . وأتفق لي ان رأيت كتاب قواعد إسبانية لوّنه خالي بأكمله ، النعوت باللون الأزرق ، والأسماء باللون الوردي ، الخ . . .

منذ ستة أشهر ، والسيدة أيسات تعيش بين هذا العجوز المهووس وزوجته القاسية القلب ، تمضي أيامها في غرفة أخيها ،

جالسة قربه ، تعمل وسعها لتكون ذات فائدة . فتنشف المناقش وتملأ الأقداح بالماء . . . والمحزن في الأمر هو انه منذ إفلاسنا راح الخال باتيست يحتقر بشدة السيد أيسات .

هكذا حُكم على والدتي أن تسمع ، من الصباح [illegible] القول التالي : « ليس أيسات رزيناً في عمله ! أيسات ليس رصيناً » . يا له من عجوز معتوه ! ليتكم رأيتموه يتكلم وكأنّه يتفوه بحكم وهو مقتنع تماماً بما يقول وفي الوقت نفسه يلوّن كتاب القواعد الأسبانية ! ومنذ ذلك الحين صادفت مراراً في حياتي رجالاً يدعون الوقار بينما هم يمضون وقتهم في أشياء ساذجة ، ويجدون ان الآخرين ليسوا رصينين .

جميع تلك التفاصيل المتعلقة بالخال باتيست وبطريقة العيش الحزينة التي فُرضت على السيدة أيسات في منزله ، لم أعرفها إلا لاحقاً . ورغم ذلك ، حالما وصلت الى المنزل ، لاحظت ان امي لم تكن سعيدة رغم ادعائها العكس . . . عندما دخلت ، كانوا قد جلسوا لتوهم الى المائدة لتناول العشاء . حالما رأتني السيدة ايسات قفزت من الفرح ، وكما حزرتم ولا شك ، فقد قبلت « الشيء الصغير » بكل قواها . لكن أمي المسكينة بدت منزعجة ، تتكلم قليلاً بصوتها الخافت ، الناعم ، والمرتجف ودون ان ترفع ناظريها عن صحنها . ان مظهرها وهي مرتدية فستانها الضيق الشديد السواد ، مؤلم . استقبال خالي وزوجته كان بارداً جداً ، سألتني الخالة بهلع اذا كنت قد تناولت العشاء . فأجبت بسرعة قائلاً : نعم . . . فتنفست

الخالة الصعداء . لقد خافت ان ينقص عشاؤها . عشاء جميل ! حمص وسمك مملح .

أما الخال باتيست فقد اراد أن يعرف اذا كنت في عطلتي الصيفية . . . اجبت بأنني تركت الجامعة وبأنني ذاهب الى باريس لألتحق بأخي جاك الذي وجد لي عملاً جيداً . اختلقت تلك الأكذوبة لأطمئن السيدة ايسات الى مستقبلي ولكي أبدو رصيناً أمام خالي .

عندما علمت الخالة باتيست بأن « الشيء الصغير » قد وجد عملاً لائقاً جحظت عيناها قائلة :

ـ يا دانيال ، عليك أن تأخذ والدتك الى باريس . . . فالعزيزة المسكينة تملّ وهي بعيدة عن ولديها ، وكما تعلم فهي عبء علينا ، وخالك لا يستطيع ان يبقى دائماً بقرة العائلة الحلوب .

قال الخال باتيست وفمه مليء بالطعام :

ـ الواقع انني البقرة الحلوب .

عبارة « البقرة الحلوب » تلك ، سحرته ، فردّدها مراراً وبالوقار نفسه . . .

استغرق العشاء طويلاً ، كما هي الحال عادةً ، عندما يأكل العجائز . أكلت أمي قليلاً ، وجهت اليّ بضع كلمات وهي تنظر إليّ خفيةً . راقبتها خالتي طول الوقت ، وقالت لزوجها :

ـ أنظر الى اختك ! ففرحة لقائها بدانيال قطعت شهيتها للطعام . لقد أكلت بالأمس قطعتين من الخبز ، أما اليوم فقد أكلت

قطعة واحدة .

آه ! ايتها السيدة أيسات العزيزة ! كم وددتُ ذلك المساء ان آخذك بعيداً ، ان أخلصك من تلك « البقرة الحلوب » الفاقدة الرحمة ، ومن زوجته . ولكن للأسف الشديد ! أنا نفسي ذاهب الى المجهول ، ومعي ما يكفي فقط لدفع اجرة العربة ، واني اعرف ان غرفة جاك ليست واسعة بالقدر الكافي لتحوينا نحن الثلاثة . ولم أستطع أن أتكلم معك وأن أقبلك كما أشاء . لا ! لم يدعونا وحدنا ولو دقيقة واحدة . . .

فوراً بعد العشاء رجع الخال الى القواعد الاسبانية ، ورجعت الخالة الى تنشيف أواني الفضة . راقبنا الإثنان بطرف ناظريهما . . . . حان وقت الرحيل دون ان نتبادل الكلام . . .

لذا ، عندما خرج « الشيء الصغير » من منزل الخال باتيست ، انفطر قلبه من الحزن . . . وفيما هو ذاهب بمفرده في الشارع الكبير الذي يؤدي الى سكة الحديد ، أقسم مرتين أو ثلاثاً بأن يتصرف من الآن فصاعداً كرجل همّه الوحيد إعادة بناء المنزل العائلي .

القسم الثاني

I

جلودي المرنة

لو قُدّرَ لي أن أعيش قدر ما عاش الخال باتيست الذي لا بد أن يكون في هذا الوقت عجوزاً مثل رئيس قبيلة عجوز في افريقيا الوسطى ، لن انسى أبداً رحلتي الأولى الى باريس في الدرجة الثالثة في القطار .

كنا في الأيام الأخيرة من شباط ، والطقس باردُ جداً . في الخارج السماء مكفهرة ، الريح ، البرد الدقيق ، التلال الجرداء ، الحقول المغمورة بالسيول ، وصفوف طويلة من الدوالي التي فقدت الحياة . وفي الداخل ، بحارة سكارى يغنون ، ومزارعون سمينون يغفون وأفواههم مفتوحة كأسماك ميتة ، عجائز . نحيلات ، يحملن قففهن ، أطفال ، براغيث ، مُرضعات ، وكل عناصر قاطـرة الفقراء ، من رائحة الغليون والكحول ، والإمعاء المحشوة بالثوم ، الى رائحة التبن المعفنّ . كأنني ما زلت في ذلك القطار .

عندما انطلق القطار جلست في زاوية قرب النافذة لأرى

السماء . ، ولكن ، وعلى مسافة ميلين في منقطتنا ، جلس مكاني ممرض عسكري ، وحجته انه يريد ان يجلس قبالة زوجته ، و«الشيء الصغير» لم يجرؤ أن يتشكى من فرط خجله ، فحكم عليه ان يمضي مئتي ميل بين ذاك الرجل السمين الكريه والذي تفوح منه رائحة بزر الكتان ورئيس طبالين ضخم في « شامبو نواز » نام على كتفه طوال الوقت وهو يشخر .

استمرت الرحلة يومين . قضيت هذين اليومين في المكان نفسه دون حراك بين جلاديَّ ، رأسي ثابت ، وفمي مطبق . وبما انني كنت أفتقر الى المال والمؤ ن لم آكل شيئاً طوال الرحلة . يومين بلا أكل ، كم يبدو الوقت طويلاً ! لقد تبقى معي أربعون قرشاً ، لكنني احتفظت بها بحرص شديد ، في حال احتجت اليها عند وصولي الى باريس دون ان اجد الصديق جاك في المحطة . ورغم الجوع واتتني الشجاعة الكافية لعدم صرف تلك القروش . ولسوء الحظ فإن كل من حولي في القاطرة يأكلون بوفرة . وقرب رجليَّ سلة كبيرة خبيثة وثقيلة جداً ، يخرج منها جاري الممرض انواع اللحوم يتقاسمها مع زوجته . وجودي قرب تلك السلة أحزنني كثيراً ، خصوصاً في اليوم الثاني . لكن مصدر ألمي لم يكن فقط الجوع خلال تلك الرحلة الرهيبة . لقد تركت سارلاند دون حذاء منتعلاً فقط جلوداً صغيرة دقيقة جداً استعملتها لأقوم بجولتي في غرفة المنامة . ان الجلد المرن شيء جميل جداً ! لكن الوضع معكوس تماماً في الشتاء وفي الدرجة الثالثة . . . يا إلهي كم شعرت بالبرد ! أوشكت أن أبكي من جراء ذلك . . خلال

الليل عندما نام الجميع ، وضعت بلطف قدمي بين يديَّ . وبقيت على هذا الوقت ساعات كاملة محاولاً تدفئتهما . آه ! لو رأتني السيدة ايسات !.

ولكن رغم الجوع الذي يمزق أحشاءه ، ورغم البرد القاسي الذي يدمع عينيه ، فإن « الشيء الصغير » كان في غاية السعادة ، ولو أعطوه العالم لما قبل التخلي عن ذلك المكان ، النصف مكان الذي يشغله بين « الشامبونواز » والممرض . ففي نهاية تلك الأوجاع هناك « جاك » وهنالك باريس .

ليل اليوم الثاني ، وحوالي الساعة الثالثة ، بعد منتصف الليل ، أفقت مذعوراً ، لقد توقف القطار فجأةً ، فعمت البلبلة القاطرة برمتها .

وسمعت الممرض يقول لزوجته :

ـ وصلنا .

فسألته وأنا أفرك عينيَّ :

ـ وصلنا إلى أين ؟

ـ اللعنة ، وصلنا الى باريس !

اسرعت نحو الباب ، فلم أجد أي منزل ، ولم أر سوى ريف قاحل ، بضعة مصابيح هنا وهنالك ، كوم كبيرة من الفحم الحجري . وهناك في البعيد ضوء أحمر كبير ، ودحرجة مبهمة شبيهة

بصوت البحر . ورجل ينتقل من باب الى آخر في يده مصباح صغير وهو يصرخ قائلاً : « باريس ! باريس ! تذاكركم » . رغمًا عني ارجعت رأسي الى الوراء بحركة ملؤها الرعب . لقد وصلنا بالفعل الى باريس . آه منك ايتها المدينة الكبيرة المفترسة ! له كل الحق « الشيء الصغير » بأن يخشاك !

بعد مرور خمس دقائق دخلنا الى المحطة . كان هناك جاك ، ينتظرني منذ ساعة . رأيته من بعيد بقامته الطويلة المحنيّة قليلاً وذراعيه الكبيرتين اللتين تلوحان لي من وراء السياج . وبقفزة واحدة ، اصبحت قربه .

ـ جاك ! أخي ! . . .

ـ آه ! ايها الولد العزيز !

وتعانقت روحانا بكل ما أوتيت أذرعنا من قوة . لسوء الحظ لا يوجد مكان في جدول اعمال المحطات لتلك اللقاءات الجميلة . فهنالك قاعة المسافرين ، قاعة الحقائب ، ولكن لا يوجد قاعة للخوالج ، ولا يوجد قاعة للأرواح ، وكان المسافرون يدفعون بنا ، وكادوا ان يسحقونا . وصرخ بنا رجال الجمارك :

ـ إمضوا ! أمضوا ! .

قال لي جاك بصوت خافت : هيا

ـ هيا بنا ، سأجيء بحقيبتك غداً .

وذهبنا كتفاً الى كتف ، أخف من مدخراتنا المالية ، واتجهنا نحو الحي اللاتيني .

حاولت مراراً منذ ذلك اليوم ان اتذكر الإنطباع الصحيح الذي تركته باريس في نفسي ، تلك الليلة : لكن الأشياء ، كما الأشخاص يأخذون للوهلة الأولى طابعاً خاصاً لا نجده فيهم في ما بعد . فباريس التي رأيتها لدى وصولي اليها للمرة الأولى ، لم أستطع اعادة بنائها . انها مثل مدينة ضبابية عبرتها قبل سنوات وأنا طفل ، ولم أعد مذ ذاك أمر فيها .

أتذكر جسراً خشبياً فوق ساقية شديدة السواد ، واتذكر أيضا رصيفاً كبيراً خالياً وحديقة شاسعة تحاذي هذا الرصيف . توقفنا لحظة أمام تلك الحديقة ، ومن خلال القضبان المشتبكة التي تحيط بها رأينا بغير وضوح أكواخاً ، أراضي مخضرة ، بُقع ماء ، واشجاراً تلمع من الصقيع الذي يغطيها .

قال لي جاك :

ـ ها هي حديقة النباتات ، هنا عدد لا يستهان به من الدببة البيض ، والقرود ، والأفاعي ، ووحيدي القرن . . .

كنا نشعر فعلاً بوجود الحيوانات المفترسة ، وأحياناً يخترق تلك الظلمة صوت حاد ، أو زئير أبح .

فيما كنت ملتصقاً بأخي ، نظرت بإمعان من خلال القضبان

المشبكة ، واختلطت في نفسي باريس المجهولة حيث وصلت ليلا وتلك الحديقة الغامضة ، ذلك انني كنت تحت تأثير الشعور بالرعب . تهيأ لي انني حللت لتوي في مغارة كبيرة سوداء مليئة بالحيوانات المفترسة التي هي علي وشك ان تنقضّ عليّ . لحسن حظي لم اكن وحدي ، فجاك هو الى جانبي ليدافع عني . . . آه ! جاك ! جاك ! لم أكن دائمًا معك ؟ .

مشينا أيضاً وقتاً طويلاً ، طويلاً للغاية في شوارع سوداء لانهاية لها . ثم توقف جاك فجأة في ساحة صغيرة تقوم فيها كنيسة . قال لي :

ـ وصلنا الى « سان جرمان دي بريه » ، وغرفتنا هي فوق .

ـ كيف يا جاك ! . . . في برج الجرس ؟ . . . .

ـ في برج الجرس بالذات . . . فتلك طريقة سهلة لمعرفة الوقت .

كان جاك يبالغ قليلا ، فهو يسكن في المنزل الذي هو قرب الكنيسة ، وهو عبارة عن غرفة حقيرة في الطابق الخامس أو السادس ، ونافذته تطل على برج جرس « سان جرمان » وعلى مستوى وجه الساعة . فيما أنا داخل أطلقت صرخة فرح : « نار ! إنها لسعادة كُبرى ! » . وحالاً ركضت نحو المدخنة ، وضعت رجلي أمام النار وكدتُ أن أُذيب حذائي المصنوع من الكاوتشوك . حينئذٍ فقط لاحظ جاك غرابة حذائي ، وذلك أضحكه كثيراً .

وقال لي :

ـ يا عزيزي ، هنالك العديد من الرجال المشهورين الذين وصلوا الى باريس وهم ينتعلون القباقيب ، ويفخرون بذلك . أما أنت ، ففي وسعك أن تقول أنك وصلت مُنتعلاً حذاء من الكاوتشوك فأنت فريد من نوعك حقاً . وبانتظار تلك الساعة ، البس هذا البابوج ولنُباشر أكل اللحم .

فيما هو يقول ذلك ، وضع جاك الطيّب طاولة صغيرة أمام النار ، كانت مُحضَّرة في زاوية .

II

من كاهن « سان نيزيه »

يا إلهي ! كم كنّا مرتاحين تلك الليلة في غرفة جاك ! وكم هي فرحة تلك الإنعكاسات الضوئية التي ترسلها المدخنة على غطاء طاولتنا ! وذلك النبيد المُعتق المختوم رائحته شبيهة بالبنفسج ! وذلك اللحم . كم هي جميلة قشرته الخارجية الذهبية اللون ! اه ! ذلك النوع من اللحم ، فُقِدَ من السوق . لن تشرب بعد اليوم من تلك الأصناف من النبيذ يا أيسات المسكين ! . .

في الجهة المقابلة من الطاولة ، إزائي تماماً ، يسكب لي جاك لأشرب . وكلما رفعت عيني ، رأيت نظرته العطوفة كنظرة الأم تبتسم لي بلطف . . كنت سعيداً للغاية لكوني في هذا المكان حتى انني اصبتُ بالحمى . فتكلمت دون انقطاع .

مما حدا أخي جاك وهو يملأ صحني ، أن يقول لي : « يجب ان تأكل » . لكنني استمريت في الكلام دون أن أمس الطعام . لذلك ، وليمنعني عن الكلام ، بدأ يثرثر هو ايضاً فأخبرني مُطوّلاً ، دون ان يتوقف ، عن كل ما قام به منذ افتراقنا ، أي منذ أكثر من سنة .

فقال لي :

ـ حينما ذهبت . وكان ، حتى الأشياء الحزينة جداً ، يرويها لي والبسمة لا تفارق وجهه ـ حينما ذهبت أصبح المنزل مُفجعاً تماماً ، فالوالد لم يَعُد يعمل ، يمضي كل وقته في المخزن وهو يلعن الثوار ، ويصرخ بي قائلاً : اني حمار ، لكن ذلك لم يحسّن من أحوالنا . كل صباح كنا نتسلم سندات غير مدفوعة ، وكل يومين يزورنا مُرسْلون من المحكمة ! كل قرعة جرس تُرجِف قلوبنا . آه ! لقد رحلت في الوقت المناسب .

« بعد مرور شهر على تلك المحنة الرهيبة ، سافر أبي الى « البروشانيه » على حساب شركة تصنيع النبيذ ، وسافرت السيدة أيسات عند الخال باتيست . لقد رَحَلتُ الإثنين معاً . ذرفت دموعاً كثيرة . . . بعد ذهابهما ، بِعْت جميع مفروشاتنا المسكينة ، أجل يا

عزيزي ، بيعت في الشارع ، أمام ناظريَّ وأمام منزلنا . إن رؤ ية المنزل يضمحل قطعةً قطعة ، هو شيء مؤلم . قبل أن نخسرها لا نعلم تماماً كم هي عزيزة على قلوبنا تلك الأشياء المصنوعة من الخشب أو من القماش التي في منازلنا ، والتي أضحت جزءاً من كياننا . عندما أخذوا مثلاً خزانة البياض ، تعرفها جيداً تلك الخزانة التي على مصراعيها تماثيل ، تمثال الحب ، زهرية اللون وتحمل كمنجات - وددتُ أن أركض وراء الشاري ، وأن أصرخ بقوة : « **أوقفوه!** » ، أنت تفهمني أليس كذلك ؟ .

من جميع قطع أثاث منزلنا ، لم احتفظ إلا بكرسيّ ، وفرْشة ومكنسة . تلك المكنسة **إستفدتُ** منها كثيراً ، سترى ذلك بنفسك . وضعت تلك الثروة في زاوية من مزلنا في شارع « لانتيرن » والذي دُفع إيجاره سلفاً عن شهرين . وها أنا أسكن بمفردي تلك الشقة الكبيرة المُجرَّدة ، الباردة ، ودون ستائر . آه ! يا صديقي ! كانت أيام حزينة ! كل مساء عندما أعود من مكتبي ، كان حزن جديد يُضاف الى احزاني وتنتابني الدهشة من جديد حين أجد نفسي وحيداً بين تلك الجدران الأربعة ، أتنقل من غرفة الى أخرى ، وأقفل الأبواب بقوة لكي أُحْدِث جلبة . أحياناً يتهيأ لي انهم ينادونني في المخزن ، فأصرخ : « أنا آت ! » . وعندما أدخل الى غرفة والدتي يخيل إليَّ دائمًا انني سأجدها تُحيكُ الصوف بحزن فيما هي جالسة في مقعدها قُرب النافذة . . .

ما زاد الطين بلة هو ظهور الصراصير من جديد ، تلك الحيوانات

الصغيرة المُقرفة ، التي عانينا الأمرين منها عندما حاولنا مكافحتها لدى وصولنا الى لَيون . لا شك انها علمتْ برحيلك ، فحاولت القيام بغزو جديد أفظع بكثير من الغزو الأول . حاولت في بادىء الأمر أن أقاوم . فقضيت سهراتي في المطبخ مُمسكاً بشمعة في يد ، وبمكنسة في اليد الأخرى ، قاتلت كأسد ، لكن دون أن أتوقف عن البكاء . لسوء الحظ كنت بمفردي ، ومهما حاولت ، لم يَعُدْ الأمر كما كان عليه في السابق ، يوم كانت أنو تعيش معنا . ثم الصراصير هي بدورها أصبحت تأتي بعدد أكبر . أنا أكيد من أن جميع صراصير ليون ، والله وحده يعلم كم يوجد منها في تلك المدينة الكبيرة ، الرطبة ! ، قد قامت بهجوم جماعي لكي تحاصر منزلنا . غدا المطبخ بسببها أسود ، فأضطررت أن أتركه لها . أحياناً أنظر اليها من خلال فُتحة قِفل الباب ، كان هنالك ألوف المليارات من الصراصير . . . ربما تعتقد أن تلك الحيوانات اللعينة قد اكتفت بما احتلته ! آه ! إنك لا تعرف سكان الشمال على حقيقتهم . فهم يحتلون كل ما يجدونه في طريقهم . . . رُغم الأقفال والأبواب ، انتقلت الصراصير من المطبخ الى غرفة الطعام حيث وضعت سريري . فنقلته الى المخزن ، ثم الى غرفة الإستقبال . أنت مضحك ! أودُّ أن أراك مكاني .

« ومن غرفة الى غرفة ، دفعت بي تلك الصراصير الملعونة لغاية غرفة نومنا الصغيرة في قصاء الرواق . في هذا المكان دعتني الصراصير وشأني مدة يومين أو ثلاث . وذات صباح ، فيما أنا استيقظ ، رأيت مئات من الصراصير تتسلق مكنستي بصمت ، بينما فرقة اخرى

توجهت بنظام نحو سريري . وبعد ما جُردت من سلاحي وحُوصرت في آخر معقل لي ، لم يعد أمامي سوى سبيل واحد وهو الفرار . وهربت بالفعل ، تركت للصراصير فراشي ، والكرسي ، والمكنسة وخرجت من ذلك المنزل الرهيب في شارع « لانتيرن » وفي نيتي أن لا أعود إليه أبداً .

قضيت أيضاً بضعة اشهر في ليون ، بدت لي طويلة ،حزينة جداً ، وبكيت خلالها كثيراً. وفي المكتب ما عادوا يسمونني إلا بالقديسة مادلين . ولازمت المنزل . لم يكن لي أي صديق ، ورسائلك كانت الهيتي الوحيدة . . . آه ! يا دانيال كم هو جميل أسلوبك في الكلام ! انا متأكد من أن في وسعك أن تكون محرراً في الصحف لو شئت ذلك . أما أنا فيختلف وضعي عنك تماماً .

« أتصدق انه لكثرة ما اكتب ما يُملى عليّ اصبحت درجة الذكاء عندي في مستوى ماكينة الخياطة ؟ لذا يتعذر عليَّ ان اكتسب شيئاً شخصياً . والسيد أيسات لديه كل الحق بأن يقول لي : « أنت حمار يا جاك » وان تبصّرنا في الأمر ، نرى انه ليس من العيب ان يكون الانسان حماراً . فالحمير حيوانات جسورة ، صبورة ، قوية ، نشيطة ، قلبها طيب وتتحمل الأعباء الثقيلة . . . . لكن لنُعد إلى سيرة حياتي .

« حدثتني في جميع رسائلك عن اعادة بناء المنزل العائلي ، وبفضل بلاغتك في الكلام تحمست أنا أيضاً لتلك الفكرة العظيمة .

لسوء الحظ ما كنت اكتسبه في ليون كان يكفيني بالكاد لما احتاجه في مصاريفي الحياتية . في تلك الفترة الزمنية بالذات خطرت لي فكرة الذهاب الى باريس . تهيأ لي انه في هذا المكان سيكون في وسعي مساعدة العائلة ، وإنني سأجد الأشياء اللازمة لانجاز مشروعنا العظيم . لقد تقرر إذاً سفري . لكنني اتخذت جميع احتياطاتي . لم أرغب في ان اتجول في شوارع باريس كشخص ضعيف . لحسن حظك يا عزيزي دانيال فالدولة تكافىء الشبان الموهوبين ، أما أنا بصفتي بكّاء كبيراً فلم أكن أدري تماماً ماذا سأعمل ! .

« لذلك طلبت رسائل توصية من صديقنا كاهن رعية القديس « نيزيه » . فذلك الرجل له مقام رفيع في فوبور « سان جرمان » ، اعطاني رسالتين واحدة لكونت وأخرى لدوك . كما ترى احسنت التصرف . بعد ذلك ذهبت عند خياط قَبل بعدما رأى مظهري اللائق ، أن يُخيط لي ديناً بذلة سوداء جميلة وتوابعها ، صُدرة ، سروال ، الخ . . . وضعت رسائل التوصية في جيب بُذلتي ، ووضعت بذلتي في حقيبة ، سافرتُ وفي حوزتي ستون فرنكاً . خمس وثلاثون للرحلة وخمس وعشرون لأسيرّ أعمالي فور وصولي الى باريس .

في اليوم التالي من وصولي الى باريس وفي الساعة السابعة صباحاً ، جُبْت الشوارع ببذلتي السوداء وبقفازي الأصفر ، وليكن معلوماً لديك يا صغيري دانيال ، ان ما فعلته ذلك اليوم كان سخيفاً . ففي السابعة صباحاً وفي باريس جميع الذين يرتدون

البذلات السوداء يكونون نياماً ، أو يجب ان يكونوا كذلك : وهذا ما كنت اجهله فتنزهت بفخار في الشوارع الكبيرة وأنا مرتدٍ بذلتي السوداء ومزهو بحذائي الجديد . اعتقدت ايضاً اني بخروجي باكراً اكون أوفر حظاً للحصول على الثروة ، فذلك خطأ ثانٍ ، الثروة والحظ في باريس لا ينهضان باكراً .

وها أنا اتنقل في ضاحية سان جرمان ومعي رسائل التوصية . في البداية ذهبت الى منزل الكونت ، شارع «ليل » ، ثم ذهبتِ عند الدوك شارع سان «غليوم » . وفي المكانين وجدت الخدم ينظفون الباحات ويلمعون نحاس الجريسات . عندما قلت لأولئك المزهويين بأنفسهم انني اتيت لأكلم معلميهم من قبل كاهن رعية « سان نيزيه » سخروا مني وطردوني بعدما قذفوا بسطول الماء على قدمي . . . . ماذا أقول لك يا عزيزي ! فالذنب ذنبي أيضاً ، ذلك ان الذين يتعاطون بشفاء أدواء القدمين يأتون فقط في وقت مبكر كهذا . فحفظيت الأمثولة .

« كما اعرفك فأنني متأكد من انك لو كنت مكاني لما تجرأت وعدت الى تلك المنازل ولما تحملت نظرات الخدم الساخرة ، لكنني عدت بعد الظهر في النهار نفسه وأنا واثق من نفسي ، وطلبت من الخدم بأن يقدموني الى معلميهم من قبل كاهن « سان نيزيه » . لقد أفادتني جرأتي كثيراً ، فحظيت بمقابلة هذين السيدين وقدمت اليهما في الحال . وجدت رجلين مختلفين . فكونت شارع « ليل » استقبلني بجفاء . لقد اخجلني كثيراً بوجهه الطويل النحيل ، والرصين

للغاية ، لذا لم اجرؤ ان اقول له شيئاً ، وهو من جهته لم يتكلم معي كثيراً . قرأ رسالة كاهن « سان نيزيه » ، ووضعها في جيبه ، ثم طلب مني ان اترك له عنواني ، بعد ذلك صرفني بحركة جافة ، وهو يقول لي : « سأهتم بوضعك ، ليس ضرورياً ان تعود مرة ثانية ، سأكتب لك في حال توصلت الى شيء » . اللعنة على ذلك الرجل ! خرجت من منزله وقد اجتاحني برد عارم . لحسن الحظ فإن الاستقبال الذي حظيت به في شارع « سان غليوم » قد اعاد الدفء الى قلبي ، وجدت دوكاً شديد المرح والتألق ، بطناً ، وتصرفه لائق للغاية ، فهو يحب كثيراً كاهن « سان نيزيه » العزيز ! وان كل من يأتي من قبله هو ضيف مكرم في شارع « سان غليوم » ! . . . آه ! يا له من رجل طيب ! تصادقنا للحال ، قدم لي شيئاً من التبغ المعطّر بالليمون ، ثم شدني بأذني وصرفني بعدما ربت على خدي وبعدما زودني بكلمات ممتازة : « انني اتكفل بقضيتك . بعد وقت ليس ببعيد سأحصل على ما تحتاج اليه . وحتى ذلك الوقت عد إلّي ساعة تشاء » .

تركت منزله مبتهجاً . امضيت يومي دون ان اراجعه تحفظاً مني . وفي اليوم الثالث فقط ذهبت الى فندق شارع « سان غليوم » . استقبلني رجل ضخم يرتدي بذلة زرقاء ومذهبة وسألني عن اسمي ، فأجبته بفخر : « قل لمعلمك إنني آتٍ من قبل كاهن سان نيزيه » . فرجع بعد هنيهة قائلاً : « سيد الدوك مشغول جداً ويرجو السيد أن يعذره ويتفضل بالرجوع في يوم آخر » . طبعاً عذرتُ الدوك المسكين . وفي اليوم التالي عدت في الساعة نفسها ، فوجدت الرجل

الضخم ذا البذلة الزرقاء والذي رأيته في البارحة واقفاً في المدخل كببغاء . حالما استطعت سماعه قال لي بوقار : « لقد خرج سيدي الدوك » . فأجبته : « آه ! حسناً ! سأعود من جديد . ارجوك قل له أنني الشخص الذي جاء من قِبل كاهن « سان نيزيه » . عدت أيضاً في اليوم التالي ، وفي الأيام التي تلته أيضاً ، لكنني لم أفلح قط . وجدته مرة في الحمام ، ومرة أخرى في القداس ومرةٍ في لعبة الطابة ويوماً مشغولاً مع ضيوفه . لديه ضيوف ! يا لسخافة تلك العبارة ، أولست أنا أيضاً من الناس ؟ .

وفي النهاية وجدت نفسي سخيفاً وأنا أردد دوماً : « من قبل كاهن سان نيزيه » . حتى اني لم اعد أجرؤ ان اقول من قِبل من أنا آتٍ . لكن الببغاء الضخم الأزرق والواقف في المدخل لم يدعني يوماً أذهب دون ان يصرخ في وجهي بوقار ثابت : « ان سيدي هو دون شك الشخص الذي يأتي من قِبل كاهن « سان نيزيه » ! فهذا المشهد المتكرر كان يُضحك بشدة ببغاوات أخرى زرقاء اللون تمشي دون هدف في الباحات . يا لكم من أنذال ، لو استطعت لضربتهم ضربات عدة بالعصا من قِبلي أنا وليس من قِبل كاهن « سان نيزيه » .

« بعد مرور عشرة أيام تقريباً على وجودي في باريس ، وفيما أنا راجع ذات مساء من احدى تلك الزيارات في شارع « سان غليوم » مطأطأ الرأس ، وكنت قد أقسمت ان اعود الى ذلك المكان لغاية أن أُطرد ، وجدت عند البواب رسالة صغيرة . إحزر من أرسلها ؟ . . . رسالة من الكونت يا عزيزي ، من كونت شارع ليل الذي يتعهد لي

بتقديمي في أقرب وقت ممكن الى صديقه مركيز دكوفيل . هم في حاجة الى كاتب . . . شعرت بفرح كبير ! وتعلّمت على حسابي أمثولة لا تُنسى ! فذلك الرجل العبوس الجاف ، والذي لم أكن آمل أن أحصُل منه على الشيء الكثير ، كان وحده يهتم بمصيري ، بينما الآخر الذي **استقبلني بكل حفاوة ارغمني طيلة ثمانية أيام على الانتظار وقوفاً امام** مدخل منزله فعرّضني بتلك الطريقة ، كما عرّض كاهن « سان نيزيه » ، الى قهقهات الببغاوات الزرقاء المذهبة ، الساخرة . . . هكذا هي الحياة يا عزيزي ، تلك الأمثولة يتعلمها المرء بسرعة في باريس .

« دون ان أضيّع ولو دقيقة واحدة ذهبت عند « مركيز دكوفيل » . وجدت عجوزاً قصيراً ، دائم الحركة ، جافاً ، عصبيّ المزاج ، متنبهاً ومرحاً كنحلة . سترى كم هو لطيف هذا الشخص . رأسه ارستقراطي الطابع ، ونحيل وشاحب ، شعره مستقيم كالعُصيّ ، ولا يملك سوى عين واحدة ، اما الأخرى فقد نحرتها ضربة سيف منذ أمد بعيد . وأما العين التي تبقّت فهي برّاقة جداً ، كلها حياة قد تظنها ستتكلم ، والنظرة الاستفهامية لا تبارحها ، من اجل كل ذلك لا نستطيع ان نقول أن المركيز أعور . هنالك عينان في عين واحدة ، هذا كل ما في الأمر .

« حينما وصلت أمام هذا العجوز القَصير القامة والفريد من نوعه ، بدأت بالمجاملات ، لكنه قاطعني قائلاً : « دعنا من الكلمات المُنمّقة ! فأنا لا استسيغُها . لِنطرق الموضوع مباشرة ، هاك ما

عندي . لقد صممت ان اكتب مذكراتي ، لكن لسوء الحظ جاء مشروعي متأخراً بعض الشيء ، ولا أملك الوقت الكافي لأضيعه إذ بدأت أهرم . بعد دراسة مشروعي وجدت انه يلزمني ثلاث سنوات عمل متواصل لأنجز مذكراتي . عمري سبعون سنة ، و معي اضطرابات في ساقيّ . لكن رأسي ما زال ثابتاً لذا في وسعي ان آمل المضي خلال تلك السنوات الثلاث لكتابة مذكراتي حتى النهاية . لكن مُشكلتي تكمُن في ضيق الوقت . وهذا ما لم يُدركه الكاتب الذي عَمِل عندي . ذلك الأحمق ، وهو لعمري ذكي وكان يسرني أن يعمل معي ، أُغرم بفتاة وأراد الزواج بها . حتى الآن كل هذا طبيعي ، لكن ذات صباح ، جاء ذلك المُضحك وطلب مني يومين عطلة ليتزوج . آه ! اجل يومي عطلة ! ولا دقيقة ! .

ـ « لكن يا سيدي المركيز . . .

ـ « لا تقل لي « لكن يا سيدي المركيز » . إذا رحلت مدة يومين ، سترحل نهائياً .

. « انني راحل يا سيدي المركيز .

ـ « مع السلامة !

« وهكذا رحل ذلك النذل . . . انني اعتمد عليك ايها الفتي العزيز لتَحُل مكانه . هاك شروطي : يأتي الكاتب الى منزلي في الساعة الثامنة صباحاً ويجلب معه فطوره . أُملي عليه لغاية الظهر . يتغذى الكاتب ظهراً بمفرده ، لأنني لا أتناول الغداء مطلقاً . بعد ان يتناول الكاتب غداءه ، (ويجب ان يُسرع في الأكل) نعود للعمل .

عندما اخرج يرافقني الكاتب الذي يحمل قلماً وورقة . أُملي طول الوقت : في السيارة ، في النزهة ، خلال الزيارات ، وفي كل مكان ! في المساء يتناول الكاتب العشاء معي . بعد العشاء نعيد قراءة ما أمليته خلال النهار . أُخلد الى النوم الساعة الثامنة ، ويبقى الكاتب حراً الى اليوم التالي . أدفع مئة فرنك في الشهر علاوة على العشاء . هذا ليس بالكثير ، ولكن عند انتهاء كتابة المذكرات بعد ثلاث سنوات ، سأقدم هدية ،.هدية ثمينة وشرف « اكوفيل » ! كل ما أطلبه هو التقيد بالمواعيد ، عدم الزواج والكتابة بسرعة تحت الاملاء . هل تجُيد الإملاء ؟

فأجبته بعدما تمالكت نفسي لكي لا أضحك : « أُوه ! أُجيد الإملاء تماماً يا سيدي المركيز »

« إنه القدر الذي يُلاحقني ويُرغمني على الكتابة تحت الإملاء طيلة حياتي ، فعناد القدر ذلك هو بالفعل مُضحك للغاية ! . . .

تابع المركيز قوله قائلاً : « حسناً إذاً ، إجلس هنا ، هاك ورقاً وحبراً . سنبدأ بالعمل حالاً . وصلت الى الفصل الرابع والعشرين : « خلافاتي مع السيد « دوفيلال » أُكتب. . . . » .

« ها هو يملي عليّ بصوته الخافت الشبيه بصوت الزيز ، وهو يروح ويجيء في الغرفة من جانب إلى آخر .

وهكذا يا عزيزي دانيال ، تسلمت العمل عند ذلك الرجل الغريب الذي هو في الحقيقة شخص ممتاز . لغاية الآن لا نزال

على أتمّ وفاق ، وقد أرغمني على أن أَجْلُب كل هذا النبيـد المعتّق ، الذي يُقدّم لنا مِثله كل يوم على العشاء ، هذا برهان عـلى جودة العشـاء الذي نتنـاوله . في الصبـاح مثـلاً أجلب فطوري ، وستضحك حتمًا عندما ستراني وانا آكل القليل من الجبن الايطالي في صحنٍ فاخر يحمل ماركة « موستيه »وعلى غطاء طاولة تحملٍ علائم النسّب الرفيع . لا يتصرف الرجل الطيب هكذا بُخلاً بل ليُجنّب طبّاخه العجوز السيـد « بيلوا » مشقّة اعداد فطوري . . . . اجمالاً الحياة التي اعيشها لا بأس بها . فمذكرات المركيز « » مُثقفة للغاية ، وحصلت على معلومـات شتى في شأن السيد« كاز . والسيد « دوفيلال » ستفيدني حتمًا في يوم من الأيام . في الساعة الثامنة مساءً أغدو حراً . فأذهب لقراءة الصحف في مكان لإعارة الكتب أو أذهب لأُحيي صديقنا جيداً « السفيني » شقيق والدتي في الرضاعة . حالياً لم يعد بياروت بياروت الذي كنا نعرفه : لقد اصبح السيد بياروت وهو سمين جداً . لديه مخزن جميل يبيع فيه الخـزف الصيني على مفترق طريق « سومون » . وبما انه كان يحب كثيراً السيدة ايسات فلقد شرّع لي أبواب منزله . غدا مورداً لي خلال امسيات الشتاء . . . ولكن الآن بما انك اصبحت الى جانبي لم أعُد اقلق بشأن أُمسياتي . . . وانت ايضاً اليس كذلك يا اخي الصغير؟ آوه دانيال ، يا عزيزي دانيال كم انا سعيد ! وكم سنكون سعيدين ! . . . » .

III

والدتي جاك

فرغ جاك من الحديث عن مغامراته وجاء دوري في الكلام عن سيرة حياتي. والنار المحتضرة حاولت مراراً ان تقول لنا: « اذهبا للنوم يا ولدي » ولطالما صرخت الشموع: «هيا إلى السرير! هيا إلى السرير! لقد احترقنا حتى آخر رمق» قال لها جاك وهو يضحك: «لن نصغي إلى أقوالك» وتابعنا سهرتنا.

ما اخبره لأخي جاك يهمه كثيراً. حدثته عن حياة «الشيء الصغير» في مدرسة سارلاند. تلك الحياة الحزينة التي يتذكرها القارىء دون شك . دار الحديث على الاولاد القبيحين والمتوحشين، الاضطهادات، الاحقاد، الاهانات، مفاتيح السيد فيو الغاضبة دوماً، الغرفة الصغيرة الحقيرة حيث كنت اشعر بالاختناق، الخيانات والليالي التي امضيتها باكياً. تكلمت ايضاً، لأن جاك طيب للغاية وبوسعي ان أفضي له بكل شيء، تكلمت عن الأيام الفاسقة التي قضيتها في مقهى «باربيت»، وعن الكحول التي تناولتها مع الرتباء، الديون، التخلي عن الذات وعن كل

شيء حتى عن محاولة الانتحار وعن نبوءة الاب جرمان المرعبة: «ستبقى طفلاً طيلة حياتك».

بعدما وضع مرفقيه على الطاولة ورأسه بين يديه، استمع جاك إلى اعترافي حتى النهاية دون أن يقاطعني... من وقت إلى آخر رأيته يرتعش وهو يقول: «أيها الصغير المسكين! أيها الصغير المسكين».

عندما انتهيت من الكلام وقف واخذ يدي بيديه، ثم قال لي بصوت ناعم مرتجف:

ـ كان معه حق الأب جرمان، انك يا دانيال طفل، صغير عاجز عن المضي بمفرده في الحياة، ولقد احسنت باللجوء إليَّ. من الآن فصاعداً لم تعُد فقط اخي بل ابني ايضاً، بما ان والدتنا بعيدة سأحل أنا مكانها: قل يا دانيال اترغب بذلك؟ أتريد أن أكون والدتك جاك؟ سترى انك لن تملني كثيراً. كل ما اطلبه منك هو ان تتركني اسير دائماً الى جانبك وأمسك بيدك. وهكذا تطمئن وتواجه الحياة كرجل، وكن على ثقة من ان الحياة لن تأكلك!

أجبته بعدما طوقت عنقه بذراعي: «آه يا والدتي جاك كم أنت طيب!» وها أنذا أبكي بدموع سخية دون توقف تماماً كما كان يفعل جاك الأمس في ليون. فجاك اليوم لم يعد يبكي! لقد فرغ الصهريج كما يقول. ومهما حصل فلن يبكي ابداً.

ايسات! ماذا اجيب؟ فاسم السيدة ايسات قد دحض كل اعتراضاتي. يجب ان اقبل بارتداء الثوب الأخضر. حسناً فقد قبلت بدخول الاكاديمية!

وإذا مللت زملائي احذو حذو «مريمة»[1]. بأن اقاطع الجلسات.

خلال تلك المناقشة حلّ الليل، وقرعت بفرح اجراس «سان جرمان» كأنها تحتفل بدخول دانيال إلى الاكاديمية الفرنسية. فقال والدتي جاك:

- «هيا إلى العشاء!». وأخذني معه إلى مكان يباع فيه اللبن والجبنة والزبدة في شارع سان «بونوا» وهو فخور بالظهور بمعية اكاديمي.

المكان كناية عن مطعم صغير للفقراء، تتصدره طاولة كبيرة في القصاء للزبائن. تناولنا الطعام في أول غرفة بين اشخاص يرتدون ثياباً بالية وهم جياع، يأكلون صامتين طعامهم بنهم. قال لي جاك بصوت خافت: «معظم أولئك الاشخاص هم من أهل القلم». وقد تعددت، بيني وبين نفسي، بعض الملاحظات الحزينة تعليقاً على قوله هذا، الا اني احتفظت بها لنفسي كي لا اثبط عزيمة جاك.

تناولنا العشاء بمرح. فالسيد دانيال ايسات (من الاكاديمية الفرنسية) اظهر حماسة بالغة واكل بشهية. بعد الانتهاء من تناول

«سان جرمان دي بري» كنقطة التقاء. خلال غفوتي تأثرت خاصة ببرج اجراس «سان جرمان». فتخيلت برجين، خمسة، عشرة أبراج أجراس في «سان جرمان» مصطفة حول سريري كزكائز شبيهة بالتي توضع على جانبي الطريق. وبين تلك الأبراج يذهب شخص ويجيء في الغرفة، يوقد النار، يغلق ستائر النوافذ، ثم اقترب مني ووضع معطفاً على رجلي، قبلني على جبيني ثم ابتعد بلطفٍ بعدما اقفل الباب وراءه..

مضت عليّ ساعات وأنا نائم، واعتقد انني كنت بقيت نائمًا إلى حين عودة أمي جاك، لو لم أستفق فجأة على صوت جرس. ذلك هو جرس سارلاند، ذلك الجرس الحديدي الرهيب الذي يقرع كالسابق: «دغ! دونغ! إستيقظوا! دونغ! إرتدوا ثيابكم!» وبقفزة واحدة أصبحت في وسط الغرفة وفمي مفتوح ليصرخ كما كان يفعل في غرفة المنامة: «هيا، أيها السادة!». ثم حين لاحظت انني عند جاك، قهقهت عالياً وبدأت أقفز كالمجنون في انحاء الغرفة. إن ما سمعته معتقداً أنه جرس سارلاند، لم يكن سوى جرس مشغل مجاورٍ، وهو يقرع بجفاء وبوحشية كذاك الجرس هنالك. لكن جرس المدرسة كان شريراً وجهنمياً أكثر من جرس المشغل وهو لحسن الحظ يبعد مئتي ميل، فمهما قرع لن أسمعه.

ذهبت إلى النافذة وفتحتها. فتوقعت أن أرى في الأسفل ملعب الكبار بأشجاره الحزينة، وأن أرى الرجل ذا المفاتيح يمشي في محاذاة الجدران...

حينما فتحت النافذة، دقت الساعة الثانية عشرة ودقت في كل مكان فبرج «سان جرمان» الضخم قرع أولاً دقاته الإثنتي عشرة المبشرة على التوالي، وخلت انها قرعت في أذني لشدة قربها مني، ومن خلال النافذة المفتوحة، دخلت النوطات الضخمة الثقيلة عند جاك ثلاثاً ثلاثاً وانفقأت خلال نزولها كفقاقيع رنانة ثم ملأت كل الغرفة بصوتٍ مدوٍ. بعد بشارة «سان جرمان» قرعت جميع أجراس باريس بأصوات مختلفة... في الأسفل، زأرت باريس اللامنظورة... فوقفت لحظة أنظر إلى القُبب، وإلى الأبراج وهي تلمع تحت الضوء. وصعدت إلَّي أصداء المدينة، فخطرت لي فجأة رغبة مجنونة بالغوص وبالتمرغ في ذاك الضجيج، في تلك الجموع، في تلك الحياة، في تلك الشهوات، فقلت بنشوة: «لنذهب ونرَ باريس!»

IV

مناقشة الموازنة

لابد ان يكون اكثر من باريسي قد قال ذلك اليوم، بعدما رجع إلى منزله مساءً ليجلس إلى المائدة: «يا للرجل الصغير الذي

التقيته اليوم، ما اعجب شكله!» ذلك ان «الشيء الصغير» لابد وانه قد بدا مضحكاً تماماً بشعره الطويل اكثر من اللزوم، وسرواله القصير، وحذائه المصنوع من الكاوتشوك، وجواربه الزرقاء، ومظهره القروي، ومشيته المتعاظمة التي يتميز بها قصيرو القامة.

ذلك النهار صادف في آخر أيام الشتاء، نهار دافىء يشعشع بالنور كتلك الأيام التي غالباً ما تشير في باريس إلى حلول الربيع اكثر من الربيع نفسه. الشوارع ملأى بالجموع. سرت دون أن التفت حولي في محاذاة الجدران، خجلاً وتائهاً بعض الشيء بفعل الازدحام وجلبة الشارع. انهم يدفعون بي من كل جانب وأقول: «المعذرة!» واحمر من الخجل. تحاشيت التوقف امام واجهات المخازن، رغم احساسي بالضياع تحاشيت الاستفسار عن وجهة طريقي. أسلك شارعاً، ثم شارعاً آخر سائراً دوماً في خط مستقيم كان المارة ينظرون إلّي بامعان وذلك ازعجني كثيراً. والبعض حدّق بي حتى بعد مروري، والبعض الآخر نظر إلّي بسخرية عند مروره ألى جانبي. ومرة سمعت إحدى السيدات تقول لسيدة اخرى: «انظري كم هو غريب ذلك الشخص». تلك الكلمات جعلتني ارتبك... ما كان يزيد في ارتباكي ايضاً هو نظرة رجال الشرطة المستقصية. ففي كل زوايا الشارع تركزت علي تلك النظرة اللعينة الصامتة، بطريقة تدعو إلى القلق. وحينما امر بجانب شرطي اشعر انه ما زال يتبعني من بعيد باصرار، كأنه يحرقني في ظهري. في الواقع كنت قلقاً بعض الشيء.

مشيت على هذا النحو مدة ساعة تقريباً، حتى وصلت إلى شارع عريض تحيط به اشجار نحيلة. هنا وجدت عدداً وفيراً من الناس ومن العربات وضوضاء مصمة، فتوقفت عن السير مرتعباً.

فكرت في نفسي: كيف أتخلص من هذا المكان؟، كيف أعود إلى المنزل؟ وان استفسرت عن مكان برج اجراس «سان جرمان دي بريه» سيسخرون مني. سأبدو كابله تائه وراجع من روما يوم عيد الفصح.

لذا، ولكي اعطي نفسي مهلة للتفكير، توقفت امام اعلانات المسار كرجل كثير الاشغال يستوضح عن المسرحيات التي ستعرض مساء. لكن لسوء الحظ، فتلك الاعلانات المفيدة جداً لا تعطي اية معلومات عن «برج اجراس سان جرمان» ولكن من المحتمل ان ابقى في ذلك المكان حتى يقرع نفير الدينونة، فجأة ظهرت الأم جاك إلى جانبي فكان جاك مندهشاً اكثر مني.

ـ هذا انت يا دانيال! بربك ماذا تفعل هنا؟

اجبت بطريقة لا مبالية:

ـ كما ترى أتنزه.

نظر أليّ جاك الطيب باعجاب قائلاً:

ـ لقد أصبح بالفعل باريسياً!

في الواقع سررت جدا بوجوده معي وتمسكت بذراعه كطفل،

كما حصل في ليون عندما جاء السيد ايسات الأب ليأتي بنا من على متن الباخرة. قال لي جاك:

ـ حظنا كبير اننا التقينا. فالمركيز الذي اعمل عنده فقد صوته، وبما انه ولحسن حظي لا يستطيع ان يملي عليّ الكلمات بالحركات، فقد اعطاني عطلة لغاية الغد... سنستفيد من تلك الفرصة لنقوم بنزهة كبيرة.

بعدما فرغ من كلامه، اخذني بيدي وها نحن نتجول في باريس، ملتصقين جيداً الواحد بالآخر فخورين بالتنزه معاً.

الآن بوجود أخي قربي لم اعد اخشى الشارع. سرت مرفوع الرأس جريئاً كنفير يُقرع في المغارب، والويل لمن سيسخر مني!. لكن شيئاً واحداً اقلقني. ففيما نحن سائران، نظر اليّ جاك مراراً بشفقة. لم اجرؤ ان اسأله لماذا. وبعد هنيهة قال لي:

ـ اتعلم ان حذائك المطاطي لطيف للغاية؟

ـ اليس كذلك يا جاك؟

ـ لعمري اجل! لطيف جداً...

ثم اضاف وهو يبتسم:

ـ ليس مهم، عندما اصبح غنياً سأشتري لك حذاءً جيداً لتنتعله.

مسكين عزيزي جاك! قال ذلك دون اي سوء نية، لكن تلك

الملاحظة كانت كافية لتجعلني مرتبكاً. فرجعت بي الذاكرة إلى كلّ مخازيّ. في ذلك الشارع العريض الذي تسطع فيه شمس وضاحة، رأيت نفسي سخيفاً وانا مرتد حذائي المطاطي، ورغم كل الكلمات اللطيفة التي قالها جاك في حذائي، اردت ان ارجع حالاً إلى المنزل:

رجعنا، وجلسنا قرب النار. امضينا ما تبقى من النهار بسرور وتحدثنا معاً كبلبليّ مزراب... في المساء قرع بابنا. كان ذلك احد خدام المركيز جالباً معه حقيبتي. قال جاك:

ـ حسناً! سنرى ان كانت جميع اغراضك موجودة.

اللعنة! ثيابي!...

بدأ التفتيش. فيما نحن نقوم بالتدقيق في لائحة اغراضي التي لا تذكر كان منظرنا مضحكاً ومشفقاً. جثا جاك على ركبتيه امام الحقيبة وبدأ بسحب الأغراض الواحد تلو الآخر وهو يعلن عنها عالياً في الوقت نفسه:

ـ قاموس... ربطة عنق... قاموس آخر... ماذا! غليون... إنك إذن تدخن!... غليون آخر... يا الهي! يوجد عدد كبير من الغلايين! لوكنت تملك فقط عدداً مماثلاً من الأحذية... عما يتكلم هذا الكتاب الكبير؟... اوه... اوه!... دفتر العقوبات... بوكواران خمسمائة سطر... سوبارول اربعمئة سطر... بوكواران خمسمائة سطر...

بوكواران... بوكواران... اللعنة! لم تكن لطيفاً مع ذلك المدعو بوكواران... هذا لا يهم، فدزينة أو ثلاث دزينات من القمصان ستفي بالغرض.

صرخ والدتي جاك من الدهشة حينما وصل إلى تلك النقطة من اللائحة...

ـ رحماك يا الهي! ماذا ارى يا دانيال؟ ابيات شعر! تلك ابيات من الشعر... انك مازلت تنظم الشعر؟... يا لك من كتوم! لماذا لم تحدثني بهذا الشأن في رسائلك؟ انت تعلم جيداً انني لست كسائر الناس... لقد نظمت انا ايضاً قصائد في السابق... تذكر ذلك الديوان الذي يحمل عنوان «ديانة! ديانة! قصيدة من اثني عشر نشيداً؟ لنر قليلاً قصائدك أيها الشاعر!...

ـ اوه! لا يا جاك ارجوك. ليس فيها شيء مهم.

فقال جاك وهو يضحك:

ـ كلهم يتشابهون أولئك الشعراء. هيا! اجلس إلى جانبي واقرأ لي تلك الأبيات والا سأقرأها بنفسي، وانت تعرف كم ان قراءتي رديئة!

ذلك التهديد جعلني أصمم على القراءة فبدأت تلاوتها.

تلك الأبيات نظمتها في مدرسة سارلاند، في الحقل وتحت اشجار البلوط، فيما انا اراقب الطلاب... أهي لطيفة ام شريرة؟

انني لا اتذكر البتة، لكنني تأثرت جداً وانا اقرأها!... هل تقدرون ان تتخيلوا ذلك، قصائد لم يرها احد قبل الآن... ومؤلف «ديانة! ديانة» ليس بناقد عادي. ماذا لو سخر مني؟ لكن خلال قراءتي اسكرتني موسيقى القوافي وأصبح صوتي اوضح. استمع إلّي جاك دون أن يحرك ساكناً وهو جالس امام النافذة، ووراءه في الأفق تغيب شمس كبيرة حمراء احرقت نوافذنا. على حافة السطح تثاءب قط نحيل ومد ذراعيه وهو ينظر الينا بوجه مكفهر كمساهم في فرقة« الكوميدي فرانسيز» يستمع إلى تراجيديا... رأيت كل ذلك بطرف عيني ودون ان اقطع قراءتي.

انتصار غير متوقع! ما كنت انتهي من القراءة حتى عانقني جاك متحمساً بعدما ترك مكانه وقال لي:

ـ اوه! يا دانيال! ابيات جميلة جداً!

نظرت إليه بحذر قائلاً:

ـ احقاً ما تقول يا جاك؟...

ـ رائع يا عزيزي رائع!... غير معقول ان تخبىء كل تلك الثروات في حقيبتك دون ان تصرح عنها!...

ها هو والدتي جاك يمشي بخطى كبيرة في الغرفة، يتكلم وحده ويؤشر بيديه. توقف فجأة وقال بعظمة:

ـ لا يجب ان تتردد يا دانيال فأنت شاعر، ويجب ان تبقى

شاعراً وتشق طريقك في الحياة عن طريق الشعر.

- اوه يا جاك هـذا صعب جداً... خـاصة في البـداية فالمكسب زهيد للغاية.

- لا عليك! سأكسب لكلينا.

- والمنزل يا جاك، المنزل الذي صممنا على اعادة بنائه؟

- المنزل انا سأتكفل بذلك. اشعر ان في وسعي اعادة بنائه وحدي. اما انت فستكسبه الشهرة، تخيل قليلاً كم سيفخر والدانا بالانتماء إلى منزل ذي شهرة!...

حاولت ان ابدي بعض الاعتراضات، لكن جاك وجد حلاً لكل شيء. الحق اني لم اعترض بقوة. لقد بدأت حماسة جاك تنتقل بالعدوى الي فالايمان الشعري اعطاني الثقة بنفسي، وبدأت اشعر برغبة قوية عارمة لكتابة الشعر... لكننا لم نتفق جاك وانا على نقطة معينة. فقد اراد جاك ان ادخل إلى الاكاديمية الفرنسية في الخامس والثلاثين من العمر. اما انا فقد رفضت ذلك الاقتراح بقوة. اف من الاكاديمية! لقد اصبحت قديمة الطراز، ولم تعد تجاري ذوق العصر، فهي هرم مصري بالتمام والكمال. فقال لي جاك:

- لذا عليك ان تدخل إلى الاكاديمية. ستزود بروح شابة أولئك الاكاديمون العجائز... فكر قليـلاً في سعادة السيـدة

ايسات! ماذا اجيب؟ فاسم السيدة ايسات قد دحض كل اعتراضاتي. يجب ان اقبل بارتداء الثوب الأخضر. حسناً فقد قبلت بدخول الاكاديمية!

وإذا مللت زملائي احذو حذو «مريمه»[1]. بأن اقاطع الجلسات.

خلال تلك المناقشة حلّ الليل، وقرعت بفرح اجراس «سان جرمان» كأنها تحتفل بدخول دانيال إلى الاكاديمية الفرنسية. فقال والدتي جاك:

- «هيا إلى العشاء!». وأخذني معه إلى مكان يباع فيه اللبن والجبنة والزبدة في شارع سان «بونوا» وهو فخور بالظهور بمعية اكاديمي.

المكان كناية عن مطعم صغير للفقراء، تتصدره طاولة كبيرة في القصاء للزبائن. تناولنا الطعام في أول غرفة بين اشخاص يرتدون ثياباً بالية وهم جياع، يأكلون صامتين طعامهم بنهم. قال لي جاك بصوت خافت: «معظم أولئك الاشخاص هم من أهل القلم». وقد تعدت، بيني وبين نفسي، بعض الملاحظات الحزينة تعليقاً على قوله هذا، الا اني احتفظت بها لنفسي كي لا اثبط عزيمة جاك.

تناولنا العشاء بمرح. فالسيد دانيال ايسات (من الاكاديمية الفرنسية) اظهر حماسة بالغة واكل بشهية. بعد الانتهاء من تناول

الطعام عدنا بسرعة إلى البرج. وفيما راح السيد الاكاديمي يدخن غليونه وهو جالس إلى النافذة كراكب خيل، جلس جاك وراء طاولته مشغولاً بعمل حسابي مهم يظهر انه اقلقه كثيراً. فهو يقضم اظافره، ويهتز بقلق على كرسيه، يعد على اصابعه، ثم يقف فجأة صارخاً صرخة النصر: «احسنت!... لقد وصلت إلى الحل»

ـ اي حل يا جاك؟

ـ لقد نظمت موازنتنا يا عزيزي. وأقول لك صراحة ان ذلك لم يكن سهلاً. تخيل انه لدينا ستون فرنكاً لنعيش نحن الاثنين!...

ـ ماذا تقول؟ ستون فرنكاً؟... ظننت انك تكسب مئة فرنك عند المركيز.

ـ اجل! لكنني اسحب منها اربعين فرنكاً في الشهر وارسلها إلى السيدة ايسات التي تدخرها لاعادة بناء المنزل العائلي... يبقى إذاً ستون فرنكاً. خمسة عشر تدفع ايجار غرفة، كما ترى ليس هذا الثمن باهظاً، لكن عليّ ان ارتب السرير بنفسي.

ـ سأرتبه انا ايضاً يا جاك.

ـ لا، لا. هذا ليس عملاً لائقاً برجل اكاديمي. لكن لنعد من جديد إلى الموازنة... قلت خمسة عشر فرنكاً إيجار غرفة،

خمسة فرنكات ثمن الفحم الحجري، فقط خمسة فرنكات لأنني اجلبه بنفسي من المعامل كل شهر. يبقى اربعون فرنكاً. لنقل انك بحاجة إلى ثلاثين فرنكاً لدفع ثمن طعامك. ستتناول العشاء في المطعم الذي ذهبنا إليه هذا المساء، فثمن الوجبة خمسة عشر قرشاً دون الفاكهة، وكما رأيت فذلك المكان لا بأس به يبقى خمسة قروش لوجبة الغداء. ايكفيك ذلك؟

ـ اعتقد يكفي.

ـ يبقى معنا عشرة فرنكات. سبعة منها لتنظيف الثياب... ليته كان لذي الوقت لأذهب بنفسي إلى المغسل... بقيت ثلاثة فرنكات تصرف كالاتي: ثلاثون قرشاً لوجبات الغداء التي اتناولها في عملي... تدرك طبعاً ان هذا المقدار من المال يكفيني، لأنني اتناول وجبة جيدة عند المركيز، ولست بحاجة إلى فطور دسم كالذي تتناوله. اما الثلاثون قرشاً المتبقية فهي للمصاريف الزهيدة كالتبغ، ـ الطوابع البريدية والمصاريف غير المتوقعة. وهكذا يكون مجموع مصاريفنا ستين فرنكاً... اتعتقد انني احصيت المصاريف جيداً؟

وتحمس جاك وبدأ يقفز في الغرفة، ثم توقف فجأة مبغوتاً قائلاً:

ـ هيا! حسناً علي اعادة التدقيق في الموازنة... لقد نسيت شيئاً.

ماذا نسيت؟

ـ الشمع!... كيف ستعمل في المساء دون شمعة؟ انه مصروف لا غنى عنه ويتطلب خمسة فرنكات على الأقل في الشهر... كيف سنحصل عليها تلك الخمسة فرنكات؟... ان المال المخصص للمنزل مقدس ومهما كان السبب لن نصرفه... لكنني وجدت الحل. لقد اقترب شهر آذار جالباً معه الربيع، الدفء، والشمس.

ـ حسناً! ماذا بعد يا جاك؟

ـ عندما يكون الطقس حاراً يصبح الفحم الحجري غير ضروري: وهكذا فأن الخمسة فرنكات المخصصة للفحم الحجري سنخصصها لشراء الشموع. وهكذا فقد حُلّت المشكلة... لا شك اني خلقت لأن أكون وزيراً للاقتصاد... ما رأيك؟ هذه المرة أصبحت الموازنة كما ينبغي، واعتقد اننا لم ننس شيئاً. هناك أيضاً مسألة الأحذية والثياب، لكنني اعرف ماذا عليّ أن أفعل... انني حر كل نهار اعتباراً من الساعة الثامنة، وسأبحث عن عمل كمسؤول عن الكتب عند بائع ذي تجارة محدودة. أنا متأكد من ان الصديق بياروت سيجد لي بسهولة عملاً مماثلاً

ـ هكذا إذاً! هل انت صديق حميم يا جاك للصديق بياروت ؟ هل غالباً ما تزوروهم ؟

ـ اجل غالباً جداً . وفي المساء نعزف الموسيقى .

ـ هل بياروت موسيقي ؟

ـ لا ، ليس هو، بل ابنته هي التي تعزف .

ـ ابنته ! . . . لديه ابنة إذاً ؟ . . . ماذا اسمع يا جاك ؟ . . . هل هي جميلة الانسة بياروت ؟

ـ أوه ! تسألني اشياء كثيرة دفعة واحدة يا صغيري دانيال . . . سأجيب عن تلك الاسئلة مرة اخرى . اما الآن فقد أصبح الوقت متأخراً ، هيا إلى النوم .

ولكي يخفي الارتباك الذي سببته اسئلتي ، راح جاك بتحضير السرير للنوم بنشاط وبدقة كعانس.

كان ذلك السرير الحديدي يتسع لشخص واحد ، وهو مطابق للسرير الذي كنا ننام عليه نحن الاثنين ، في ليون ، شارع « لانترن » .

ـ هل تتذكر يا جاك سريرنا الصغير في شارع « لانترن » عندما كنا نقراء الروايات خفية وكان السيد ايسات يصرخ بصوته الضخم وهو نائم : « اطفئوا النور وإلا اتيت بنفسي لاطفئه » !

ان جاك يتذكر ، ويتذكر اشياء أخرى . ومن ذكر إلى آخر ، دقت الثانية عشرة ليلاً في « سان جرمان » دون ان نخلد إلى النوم . فقال لي جاك بجدية : « هيا ! . . . عُمت مساءً ! » .

ولكن بعد مرور خمس دقائق سمعته يقهقه تحت الغطاء .

ـ تضحك يا جاك ؟ . . .

ـ انني اسخر من الأب ميكو ، تذكر الأب ميكو في مدرسة

الكنيسة ؟ تتذكره . . .

ـ اللعنة ! . . .

ـ فقهقهنا من الضحك معاً ، ثم ثرثرنا مطولاً . . . هذه المرة تعقّلت بدوري وقلت :

ـ يجب ان ننام .

لكن بعد هنيهة عدت إلى الثرثرة قائلاً :

ـ وروجيه يا جاك ، تتذكره ؟ . . .

وهنا ، دوت قهقهات جديدة ، واحاديث مسهبة . . .

فجأة اهتز بعنف الحائط الذي هو من جهتي ، من جهة الشارع الضيق ، من جراء لكمة كبيرة . ذهول شامل . قال لي جاك في اذني وبصوت خافت :

ـ هذا العصفور الأبيض . . .

ـ العصفور الأبيض ! . . . ما هذا ؟

ـ صه ! . . . لا تتكلم عالياً ! العصفور الأبيض هو جارتنا . . . لا بد انها تتشكى لأننا لا ندعها تنام .

ـ جاك ، اسم تلك الجارة كم هو غريب ! . . . العصفور الأبيض ! هل هي شابة ؟ . . .

ـ بوسعك ان تحكم بنفسك يا عزيزي . لابد وان تلتقيا في يوم من الأيام على السلم . . . وبأنتظار ذلك اليوم ، فلننم بسرعة . . . والا فأن العصفور الأبيض سيغضب ثانية .

ثم اطفأ جاك الشمعة ، ونام السيد دانيال ايسات من الاكاديمية الفرنسية على كتف شقيقه كما كان يفعل عندما كان في سن العاشرة .

V

العصفور الأبيض وسيدة الطابق الأول

في ساحة « سان جرمان دي بريه » ، في زاوية الكنيسة ، من اليسار وعلى حافة السطوح ، نافذة صغيرة ، ينقبض قلبي كلما نظرت إليها . فتلك نافذة غرفتنا القديمة . مازلت حتى اليوم ، حينما أمر في هذا المكان ، يتهيأ لي أن دانيال الأمس ما زال فوق ، جالساً وراء طاولته قبالة النافذة ، يبتسم شفقة عندما يرى دانيال الحاضر حزيناً ومسناً.

آه ! يا ساعة « سان جرمان » القديمة ، كم أهديتني من ساعات جميلة ، حين كنت أسكن فوق مع « والدتي جاك » ! . . . الا تقدرين أن تقرعي لي بعد إحدى تلك الساعات المليئة بالشجاعة والفتوة ؟ كنت في ذلك الوقت ! . . . كنت اعمل من كل قلبي . . .

كنا في الصباح نستيقظ مع بزوغ الفجر .فيهتم جاك فوراً بتنظيف الغرفة . فيجيء بالماء ، يكنس ، ويرتب الأغـراض الموجودة على طاولتي . أما أنا فلم يكن لي الحق في أن أعمل شيئاً من هذا . قلت له : « أتريد يا جاك أن أساعدك ؟ » « يبدأ بالضحك قائلاً » « : هل أنت جادٌ في ما تقول ؟ أنسيت سيدة الطابق الأول ؟ » كان يسكتني بمجرد أن يتفوه بهاتين الكلمتين المليئتين بالتلميحات . وإليكم السبب :

في الأيام الأولى من حياتنا المشتركة ، كنت مسؤولاً عن جلب المياه في الصباح من الباحة الداخلية . حين ما كنت لاجرؤ على القيام بذلك في أي ساعة أخرى من النهار . لكن في الصباح يكون جميع سكان المبنى نياماً ، وهكذا لا اعرض كرامتي فيما انا اصعد السلم وابريق الماء في يدي . حالما استيقظ انزل إلى الباحة دون ان ارتدي ثيابي بكاملها .

فالباحة في تلك الساعة مقفرة . أحياناً التقي سائساً يرتدي عباءة حمراء وهو ينظف عدة فرسه قرب مضخة الماء. فهو سائق سيدة الطابق الأول ، وهي سيدة شابة انيقة جداً، ولدت في المستعمرات ، يهتم بها جميع سكان المبنى . وحضور ذلك الرجل كاف لازعاجي . حينما التقيه ، اخجل وارتبك ، فأضخ الماء بسرعة واصعد بأبريقي الذي لم يمتلىء تماماً . حالما أدخل الغرفة ، اجد نفسي سخيفاً للغاية ، لكن ذلك لا يمنعني من ان اكون منزعجاً في اليوم التالي إذا صادفت العباءة الحمراء في

الباحة . . . ولكن ذات صباح لحسن حظي لم التقي تلك العباءة الفظيعة. صعدت بخفة بعد ما ملأت ابريقي جيداً ، لكن ما ان وصلت إلى الطابق الأول حتى التقيت وجهاً لوجه بسيدة تنزل السلم . تلك هي سيدة الطابق الأول . . .

رأيتها تسير على مهل في خضم من الأقمشة الناعمة ، مستقيمة ، مزهوة بنفسها ، وهي تقرأ في كتاب . بدت لي جميلة للوهلة الأولى رغم شحوبها . ما حفظته ذاكرتي خاصة بعد رؤيتها هو وجود ندبة صغيرة بيضاء في طرف وجهها تحت شفتها . لما مرت امامي رمقتني السيدة بنظراتها. كنت ملتصقاً بالحائط ، ابريقي في يدي ، محمراً وخجولاً بنفسي . تخيلوا ان يفاجأ المرء كما لو كان سقاء ، شعره غير مسرح ، يتصبب منه العرق ، عنقه عار ، وقميصه قد فكّت بعض ازرارها . يا للاهانة ! وددت ان ينشق الحائط ليبتلعني . . . نظرت إليّ السيدة بأمعان كملكة رحومة ، بعدما تبسمت قليلاً ، ثم ذهبت . . . عندما صعدت كنت غاضباً . اخبرت جاك بالحادثة التي حلت بي ، فسخر جداً من عنفواني المجروح . لكن في اليوم التالي اخذ الابريق دون ان يقول شيئاً ونزل بنفسه . منذ ذلك اليوم اصبح ينزل كل صباح . وانا رغم تأنيب ضميري تركته بتلك المهمة ، لشدة خوفي من ان اعود فالتقي ثانية سيدة الطابق الأول .

بعد الانتهاء من التنظيفات ، يذهب جاك عند المركيز ومن

جديد التقيه في المساء . اقضي ايامي بمفردي اناجي ربة الشعر أو ما ادعوه ربة الشعر . من الصباح حتى المساء تبقى نافذتي مفتوحة وامامها طاولتي ، والنظم على تلك الطاولة القوافي طيلة النهار . من حين إلى آخر يأتي بلبل ويشرب من مزراب غرفتي فينظر إليّ بوقاحة ، ثم يذهب ويخبر الأخرين بما افعله ، ثم اسمع صوت ارجلهم الصغيرة الحاد على صفائح السطوح . . .
كنت اتلقى ايضاً زيارات اجراس سان جرمان مراراً في النهار . كنت استسيغ تلك الزيارات . تدخل الأجراس من النافذة محدثة جلبة كبيرة فتملأ الغرفة بالموسيقى . فتأتي احياناً دقاتها كانغام فرحة ومجنونة ، وتقرع احياناً انغاماً حزينة ، متشائمة تهوي نوطاتها واحدة واحدة كما لو كانت دموعاً . ثم يأتي دور اجراس التبشير عندما تقرع اجراس الظهيرة ، يدخل رئيس الملائكة بثيابه المشرقة إلى غرفتي وهو يشع بالنور . وعندما تقرع اجراس المساء ينزل ساروفيم حزين على شعاع قمري فيرطب اجواء الغرفة وهو يهز جناحيه الكبيرين . . . لم اكن اتلقى زيارات ماعدا ربة الشعر والبلابل والأجراس . ومن سيجيء لزيارتي ؟ لم يكن يعلم بوجودي احد . في المطعم ، شارع «سان بنواه» ، كنت دائماً اجلس إلى طاولة صغيرة بعيداً عن الجميع . آكل بسرعة دون ان ارفع ناظري عن صحني . بعد الانتهاء من الطعام آخذ قبعتي خفيةً واعود بأقصى سرعة ممكنة . لا الهو بشيء ولا اتنزه ولو مرة واحدة . حتى انني لا استمع إلى

الموسيقى في « اللوكسومبور » . ذاك الحياء المرضي الذي ورثته من السيدة ايسات ازداد بفعل بذلتي الرثة وحذائي المطاطي المسكين والذي لم اتوصل إلى استبداله . فالشارع يخيفني ويجعلني خجولاً بنفسي . وابيت أن اغادر برجي . ولكن احياناً ، في تلك الامسيات الربيعية الباريسية الجميلة والمبتلة ، كنت التقي وانا عائد من المطعم بأسراب من التلامذة الفرحين ، وحين أراهم متأبطين بعضهم ذراع بعض ، مرتدين قبعات كبيرة ، يدخنون الغليون ويرافقون خليلاتهم ، كانت تراودني افكار غريبة . . . حينئذ اصعد بسرعة الطوابق الخمس ، أشعل شمعتي ، وابدأ بالعمل حانقاً لغاية وصول جاك .

عندما يصل جاك تتخذ الغرفة طابعاً جديداً . تمتلىء بالفرح ، بالضجة وبالحركة . فنغني ونضحك ونخبر بعضنا البعض عن احداث النهار . فيقول لي جاك : « هل عملت جيداً ؟ هل تقدمت في كتابة القصيدة ؟ » ثم يخبرني عن اختراعات المركيز الغريب ، يسحب من جيبه سكاكر كان قد وضعها جانباً من اجلي ، ويلهو برؤيتي وانا التهمها . بعد ذلك ، اعود إلى طاولتي وإلى نظم الشعر. يقوم جاك في ذلك الوقت بجولتين أو ثلاث في أرجاء الغرفة ، وحين يطمئن إلى انني اعمل بجد ، ينسحب قائلاً : « بما انك تعمل ، سأقضي هناك ، بعضاً من الوقت» . يعني بكلمة هناك منزل بياروت واذا لم تحزروا لماذا يذهب جاك غالباً الى هناك ، فذلك لأنكم لستم حاذقين . أنا فهمت كل

شيء منذ اليوم الأول ، عندما رأيته يسرح شعره أمام المرآة قبل ذهابه ، ويعيد ثلاث أو أربع مرات تنسيق عقدة ربطة عنقه . ولكي لا ازعجه ، تظاهرت بالغباء ، واكتفيت بالضحك في سري وانا أفكر بأشياء عديدة . . .

بعد ذهاب جاك انكب على نظم الشعر ! في تلك الساعة لا اسمع اي صوت ، فالبلابل ، الاجراس ، وكل اصدقائي قد ناموا . ومناجاتي مع ربة الشعر هي كاملة . . . نحو الساعة التاسعة ، اسمع وقع خطوات على السلم ، وهو سلم صغير خشبي تابع للسلم الكبير . تلك هي الانسة « العصفور الأبيض » جارتنا تعود إلى منزلها . منذ تلك الساعة اتوقف عن العمل . يرحل رأسي بوقاحة عند الجارة ويستقر هناك . . . من هي « العصفور الأبيض » الغامض ؟ ! من المستحيل تقصي اية معلومات بشأنها ! . . إن اتيت على ذكرها مع اخي جاك ، ينظر بترفع قائلاً : « كيف ! . . . الم تلتق بعد جارتنا الرائعة ؟ لكنه لم يضف يوماً شيئاً إلى ما قاله . وانا كنت اعتقد أنه لا يريد ان اتعرف إليها . . . لا شك انها فتاة مرحة من فتيات الحي اللاتيني . وتلك الفكرة استحوذت على عقلي . فأتخيلها كشيء ندي ، فتيّ ومرح ، بكلمة واحدة فتاة مرحة ! يكفي ذلك الاسم ، « العصفور الأبيض » ، الذي بدا لي مفعمًا بالنكهة كمشروب الحب اللذيذ وله الوقع الذي نجده في اسم « موزيت » أو « ميمي بنسون » انها في جميع الأحوال رزينة

وعاقلة . تلك الجارة الآتية من « نانتير » تعود كل مساء في الساعة نفسها ودائمًا بمفردها . اعلم ذلك لأنني راقبتها اياماً متتالية ، بعدما وضعت اذني على حائط غرفتها ساعة وصولها . . . كنت اسمع دائمًا الشيء نفسه اسمع في اول الأمر صوتاً يشابه صوت زجاجة تفتح وتسد مراراً ؛ بعد مرور وقت قصير اسمع وقع جسم ثقيل على الأرض ، بعد ذلك مباشرة يعلو صوت نحيف ، حاد جداً ، شبيه بصوت جدجد مريض يرندح نغمًا اجهله وبايقاع ثلاثي حزين ويدعو للبكاء . على ذاك النغم صدرت كلمات ،لكنني لم افهمها ولم اسمعها جيداً بأستثناء بعض المقاطع غير المفهومة : « تولوكوتوتينيان » ! . . . « تولوكوتوتينيان » ! . . . التي اعيد قولها من وقت إلى آخر في الأغنية كلازمة ركز عليها خلافاً لما بقي من الأغنية . تلك الموسيقى الفريدة من نوعها تدوم ساعة تقريباً . ثم بعد ترداد « تولوكوتوتينيان » لآخر مرة يتوقف الصوت فجأة عن الغناء . حينئذٍ لا اسمع سوى تنفس بطيء وعميق . . . كل ذلك يثير الحيرة في نفسي كثيراً .

ذات صباح ، بعدما جلب « امي جاك » الماء ، دخل إلى الغرفة بحيوية ، والغموض مرسوم على وجهه ثم اقترب مني وقال لي بصوت خافت :

- إذا اردت ان ترى جارتنا . . . صه ! . . . فهي هنا .

اصبحت على سطح الدرج بقفزة واحدة . . . فجاك لم

يكـذب . . . « العصفور الأبيض » كـان في غرفتـه ، وبابـه مشرعاً . توصلت اخيراً إلى تأملها ملياً . . . اوه ! يا الهي ! لم تكن سوى رؤ يا ، يا لها من رؤ يا ! . . . تخيلوا غرفة حقيرة صغيرة عارية تماماً ، وعلى الارض كومة من التبن ، على المدخنة زجاجة كحول ، فوق التبن علقت في الحائط ، كأنها جرن للماء المقدس ، نضوة ضخمة وغامضة . والآن في وسط هذا المرقد للكلاب ، تخيلوا زنجية مرعبة ذات عينين عاجيتين ، شعر قصير اشعث شبيه بالصوف كفروة نعجة سوداء ، ولا ترتدي سوى صدرة بالية وفستان قديم احمر من الشعر ولا تضع شيئاً فوقهما . وهكذا ظهرت لي لأول مرة جارتي « العصفـور الأبيض » ، عصفور احلامي ، شقيقة « ميمي بنسون » و«برنزيت» . . . آه من بلاد الخيال ، فليكن ذلك درساً لي ! . . .

قـال لي جـاك بعـدمـا رآني داخـلاً : « حسناً كيف وجدتها ؟ . . » عندما رآني مكفهراً لم يكمل جملته وقهقه من الضحك . وبروح طيبة فعلت مثله ، وها نحن نضحك بقوة دون ان نتكلم . في تلك اللحظة اطل من الباب المفتوح قليلاً رأس كبير اسود واختفى بعد ذلك مباشرة بعد ما صرخ قائلاً : « لا يجوز ان يسخر البيض من الزنوج » . فضحكنا بقوة من جديد . . .

عندما هدأت فرحتنا قليلاً ، اعلمني جاك بأن الزنجية الملقبة « بالعصفور الأبيض » هي في خدمة سيدة الطابق الأول .

يتهمونها في المبنى بالشعوذة : والدليل على ذلـك هو نضـوة الحصان ، التي هي رمز الطقوس الدينية عند « الفودو » . يقال أيضاً أنها كل مساء ، وحينما تخرج معلمتها ، تحبس « العصفور الأبيض » نفسها في غرفتها الحقيرة ، تشرب الكحول بكثرة حتى لتخالها ميتة ، وتغني اغاني زنجية قسمًا من الليل . وذلك يفسر تلك الأصوات الغامضة التي تأتي من عند جارتنا : الزجاجة المفتوحة ، الوقوع أرضاً ، ونغم الايقاع الثلاثي الرتيب . اما بالنسبة «للتولوكوتوتينيان » ، فيظهر انها نوع من الفاظ مماثلة للاصوات منتشرة جداً بني زنوج « الكاب » ، شبيهة تقريبـاً « بلون ، لان ، لا » عندنا ، والشعراء القوالون الزنوج ، كبيار دوبون ، يضعون عبارات مماثلة في جميع اغنياتهم .

منذ ذلك اليوم ، لم يعد قربي من « العصفور الأبيض » مصدراً لتشيت افكاري . في المساء عندما تصعد لم يعد قلبي يخفق بسرعة ولم اعد ازعج نفسي لاذهب والصق اذني على الحائط . . . احياناً ورغم ذلك في سكون الليل ، حينما تأتي نغمات « التولوكوتوتينيان » إلى طاولتي ، اشعر بنوع من الضيق فيها انا اسمع تلك اللازمة الحزينة ؛ كانني شعرت سلفاً بالدور الذي ستلغبه في حياتي . . . في غضون ذلك ، وجد « امي جاك » عملاً كمسؤول عن دفاتر الحسابات عند تاجر حديد اي تجارة محدودة . راتبه الشهري خمسون فرنكاً ، وعليه ان يؤمن هذا العمل كل مساء بعد ان ينتهي من عمله عند المركيز .

اعلمني الفتى المسكين بذلك النبأ السار وهو فرح حزين معاً . قلت له فوراً : « كيف ستفعل لتذهب إلى هناك ؟ » اجابني وعيناه مغرورقة بالدموع : « بامكاني الذهاب نهار الأحد » ومنذ ذلك الحين كما سبق وقال ، لم يذهب إلى هناك سوى يوم الأحد ، لكن ذلك كلفه كثيراً بالطبع . لما هو جذاب للغاية ، ذلك المكان ، ومهم جداً بالنسبة إلى « والدتي جاك » ؟ . . . سأرضي فضولي ان علمت ذلك. لسؤ الحظ لم يعرض علي يوماً الذهاب معه ؛ وانا كنت شديد الاعتزاز بنفسي فأبيت ان اطلب منه هذا المعروف . على كل حال كيف السبيل للذهاب إلى مكان ما بحذائي المطاطي ؟ . . . ولكن ذات احد ، وفيما هو ذاهب عند بياروت ، قال لي جاك بشيء من الارتباك :

ـ الا ترغب بمرافقتي إلى هناك يا دانيال الصغير؟ سيسرون حتماً بوجودك .

ـ انك تمزح يا عزيزي . . .

ـ اجل انني اعرف ذلك جيداً . . . فمنزل بياروت لا يليق ابداً بشاعر . . . الجميع هناك مبتذلون . . .

ـ اوه ! ليس هذا السبب يا جاك ؛ لكنني اخجل من بذلتي . . .

قال جاك :

آه لقد نسيت ، معك حق .

ذهب منشرحاً بعدما وجد سبباً وجيهاً لكي لا يأخذني معه .

ما كاد يصل إلى اسفل السلم ، حتى صعد من جديد منهوك القوى وقال لي :

ـ لو حصلت يا دانيال على حذاء وعلى سترة لائقين ، هل كنت ترافقني عند بياروت ؟

ـ ولما لا ؟

ـ حسناً ! هيا إذا . . . سأشتري لك كل ما يلزم وسنذهب إلى هناك .

نظرت إليه مذهولاً . فأضاف قائلاً لكي يقنعني : « نحن في نهاية الشهر ، ولدي ما يكفي من المال » .

فرحت جداً بالحصول على ثياب جديدة ، لذا لم الاحظ تأثر جاك ولا لهجته الغريبة بينما هو يكلمني . لم افكر ملياً في ذلك الا في ما بعد . الآن عانقته وذهبنا عند بياروت ، بعدما مررنا امام «البالي روايال» ، حيث لبست ثياباً جديدة من عند بائع ثياب بالية .

VI

رواية بياروت

لو حصل ان تنبأوا لبياروت حين كان بالعشرين من عمره ، بأنه سيخلف يوماً السيد « لالوات » في تجارة الخزف ، وبأنه سيكون له مئتا ألف فرنك عند كاتب العدل ، (كاتبعدل لبياروت تصورا!) وسيحظى بمخزن عظيم في زاوية ممر « سومون » ، لكان أصيب بالدهشة .

فبياروت في سن العشرين ، لم يكن قد خرج بعد من قريته ، كان ينتعل قبقاباً كبيراً مصنوعاً من خشب الصنوبر « السفيني » ، لا يتقن أية كلمة فرنسية ، ويكسب من تربية دود القز مئة درهم سنوياً . وهو رفيق ممتاز ، يجيد الرقصة ذات الإيقاع الثلاثي ، يحب الضحك والتغني بالأمجاد ، يفعل ذلك دوماً بطريقة شريفة ودون أن يؤذي الخمارين . ولجميع الفتيات الذين في سنه ، كان لبياروت صديقة حميمة ينتظرها كل يوم أحد بعد مراسم القداس ، ويأخذها معه لترقص على نغم ذي إيقاع

مزدوج تحت أشجار التوت . صديقة « بياروت » الحميمة تدعى « روبرت » ، روبرت الكبيرة التي تربي دود القز ايضاً . لها من العمر ثمانية عشر عاماً ، يتيمة الأبوين مثله ، فقيرة مثله ، لكنها تجيد القراءة والكتابة ، وتلك الصفة ، في القرى « السفينولية » ، يندر اكثر من المهر وجودها . كان بياروت فخوراً جداً بحبيبته روبرت وصمم على الزواج منها بعد الإقتراع . ورغم انه غطس يده ثلاث مرات في جرن المياه المقدسة قبل ان يذهب لسحب رقمه من الأناء الذي توضع فيه ورقة الحظ عندما جاء يوم السحب ، حصل السفنولي المسكين على الرقم ٤ . . . فتوجب عليه الذهاب إلى الخدمة العسكرية . كاد أن ييأس ! . . . لحسن الحظ ، السيدة أيسات ، التي ربتها تقريباً والدة « بياروت » ، أنجدت شقيقها بالرضاعة بعدما أعارته ألفي فرنك ليدفعها إلى البديل الذي سيذهب مكانه . في ذلك الوقت كان آل أيسات أغنياء ! . لم يرحل إذن السعيد الحظ بياروت واستطاع أن يتزوج حبيبته روبرت . لكن بما ان أولئك الأشخاص الطيبين أرادوا ، مهما كلف الأمر ، ان يعيدوا المال إلى اصحابه ، وبما انه من المستحيل أن يتوصلوا إلى تلك الغاية لو ظلوا في قريتهم ، فقد جاءتهم الشجاعة الكافية ليتغربوا ، فذهبوا ألى باريس للبحث عن الثروة.

لم يصلنا أي خبر عن قروينا طيلة سنة . وذات صباح ، تلقت السيدة أيسات رسالة مؤثرة وموقعة كالآتي : « بياروت

وزوجته » وهي تحوي ثلاثمئة فرنك هي ثمرة ادخاراتهم . في السنة التالية ، وصلت رسالة جديدة من بياروت وزوجته وفي داخلها خمسمئة فرنك. في السنة الثالثة لا شيء لابد ان الأعمال قد ساءت . في السنة الرابعة ، وصلت رسالة ثالثة من بياروت وزوجته وفي داخلها الف ومئتا فرنك مع مباركات لجميع أفراد العائلة . لسوء الحظ ، عندما وصلتنا تلك الرسالة ، كنا في خضم الأزمة : لقد بعنا لتونا المصنع ، وكنا نحن بدورنا على أهبة التغرب . . . من فرط ألمها نسيت السيدة أيسات أن تجيب على رسالة بياروت وزوجته ومنذ ذلك اليوم ، لم يصلنا أي نبأ عنهما ؛ حتى جاء اليوم الذي وصل فيه جاك إلى باريس ووجد بياروت الطيب ، لكن للأسف الشديد ، وجد بياروت دون زوجته ، وقد ثبت أعماله في مكتب مخزن « لالوات » القديم .

ما من قصة أقل شاعرية وأكثر تأثيراً من قصة تلك الثروة . فور وصولهم إلى باريس عملت زوجة بياروت بشجاعة في تنظيف المنازل . وأول منزل دخلت إليه كان منزل لالوات . فآل لالوات تجار اغنياء بخلاء وغريبو الاطوار . لم يقبلوا يوماً بتوظيف عامل أو خادمة ، لأنهم يقومون بأنفسهم بكل الأعمال (لطالما قال الأب لالوات بفخر : « يا سيدي ، قمت بنفسي بإخاطة سراويلي حتى اصبحت في الخمسين من عمري » . لم يسمحوا لأنفسهم بذلك الترف الذي ما يعده ترف ، أي إنهم لم يوظفوا عاملة تنظيفات إلا في أواخر أيامهم ، على أساس أن

تتقاضى إثني عشر فرنكاً في الشهر . الله يعلم أن تلك الفرنكات الاثني عشر ليست بالكثير ، بنسبة إلى العمل الذي يقابلها ! فعلى روبرت أن تنظف المخزن ، والغرفة التي وراء المخزن ، وشقة في الطابق الرابع ، كما عليها أن تملأ كل صباح ، أدلين من الماء للمطبخ . للقبول بشروط كهذه على المرء أن يأتي من « السافان » لكن الأمـر ليس عسيراً . فالسفينولية شابـة ، نشيطة ، تتحمل الأعمال الشاقة كعجل فتي تنجز بسرعة هذا العمل الشاق ، وعلاوة على ذلك تظهر دائماً للعجوزين ضحكتها الجميلة الذي تساوي بمفردها أكثر من إثني عشر فرنكاً . . . بفضل دماثة أخلاقها وشجاعتها ، أغوت تلك القروية المقدامة معلميها فاهتما بأمرها وتحدثا معها . ذات يوم وبعفوية ـ اكثر القلوب قساوة تنبت فيها أحياناً نبتات طيبة ـ عرض العجوز لالوات على بياروت ان يقرضه مبلغاً زهيداً من المال ، ليتمكن من انشاء تجارة لحسابه الشخصي .

واليكم ما كانت فكرة بياروت : لقد اشترى حمـاراً عجوزاً ، وعربة له ، وتنقل بهما في جميع أنحاء باريس وهو يصرخ بكل قواه : « تخلصوا من كل ما يزعجكم » فذاك السفينولي المحتـال لم يكن يبيـع ، بـل يشتـري . . . مـاذا ؟ . . . كـل شيء . . . الأواني المكسورة ، الحدائد القديمة ، الأوراق ، ما تبقى من الزجاجات ، قطع الأثاث غير المستعملة وغير الصالحة للبيع ، الشرائط القديمة التي تخلى عنها الباعة ، كل شيء ليس له قيمة ويحتفظ به بفعل العادة أو سهواً لأننا لا نعلم ماذا نفعل به ،

وكل ما يزعج ! . . . لم يكن بياروت يزدري اي شيء ، بل يشتري كل شيء ، أو على الأقل يقبل بكل شيء ؛ لأنهم في اغلب الأحيان لا يبيعونه الشيء بل يهبونه إياه للتخلص منه « تخلصوا من كل ما يزعجكم ! » .

في حي « مونمارتر » اصبحت للسفينولي شعبية كبيرة . كجميع التجار الصغار المتجولين والذين يريدون أن يظهروا بين الجموع الغفيرة ، إعتمد جملة ذات إيقاع شخصية وغريبة حفظتها ربات المنازل بسرعة . . . في باديء الأمر يصرخ بأعلى صوته تلك الجملة الفظيعة : « تخلصوا من كل ما يزعجكم ! » فيركز على آخر كلمة وكأن الصدى قد زعزعها . ثم يلقي خطابات طويلة على حماره بنبرة بطيئة ومتباكية . لقد سمى حماره « أنستجيل » معتقداً انه يقول : « انستزي » . « هيا ! تعالي يا أنستجيل ! هيا ! تعالي يا طفلتي . . . »فتتبعه « أنستجيل » الطيبة ، مطأطأة الرأس ، تسير حزينة في محاذاة الأرصفة . وينادونها عالياً من جميع المنازل : « أنستجيل ! . . . » يجب أن تروا العربة وهي ملآنة !يذهب« بياروت » « وأنستجيل » إلى مونمارتر لتفريغ الحمولة عند خرقي بالجملة ، فيدفع ثمن كل تلك الأشياء التي أتت من جراء قول « تخلصوا من ما يزعجكم ! » ، والتي حصل عليها مقابل لا شيء أوشيء زهيد ، لم يحظ بياروت بالثروة ،لكنه كسب معيشته . بعد انقضاء السنة الأولى أعاد المال لآل لالوات وأرسل ثلاثمئة فرنك إلى الآنسة ، بهذه الصفة كان يدعو بياروت السيدة

أيسات . هذا اللقب دعاها به يوم كانت فتاة عازبة ، ولم يتوصل يوماً إلى أن يدعوها بطريقة أخرى . لكن السنة الثالثة لم تكن سعيدة . لقد صودفت سنة ١٨٣٠ . لطالما صرخ بياروت : « تخلصوا من كل ما يزعجكم ! » دون جدوى . فالباريسيون انشغلوا بالتخلص من ملك عجوز ومزعج ، لذا لم يسمعوا صرخات بياروت . وتركوا السفينولي في الشارع يفرط في الصياح . وكل مساء ترجع العربة الصغيرة فارغة . وموت « أنستجيل » زاد في الطين بله . حينئذ ، شعر آل لالوات بأنهم أصبحوا عاجزين عن القيام بكل شيء بأنفسهم ، فاقترحوا على بياروت ان يعمل عندهم كخادم . قبل بياروت ، لكنه لم يحتفظ طويلاً بتلك الوظيفة المتواضعة . منذ وصولهم إلى باريس ، أعطته زوجته كل مساء دروساً في الكتابة وفي القراءة . فأصبح في وسعه أن يقرأ وأن يعبر باللغة الفرنسية بطريقة واضحة . وبعدما توظف عند لالوات عمل بجهد ، فذهب إلى صف للراشدين فتعلم الحساب وأجاده ، مما سمح له بعد أشهر بأن يحل مكان السيد لالوات في المكتب ؛ ذلك ان هذا أصبح أعمى تقريباً . وحل أيضاً في المبيع مكان السيدة لالوات التي غدت عاجزة عن التنقل رغم إرادتها القوية . في تلك الاثناء ، ولدت الآنسة بياروت . ومنذ ذلك الحين ازدادت ثروة السفينولي بشكل تصاعدي . بعدما كان موظفاً في تجارة آل لالوات ، أضحى شريكهم في ما بعد . وذات يوم ، فقد الأب لالوات نظره تماماً ، فانسحب من التجارة

وترك بضاعته لبياروت الذي دفع للمالك الأصيل حقه في دفعات سنوية . وحين أصبح المالك الوحيد ، وسع السفينولي آفاق أعماله ، حتى انه توصل في غضون ثلاث سنوات إلى دفع ما يتوجب عليه لآل لالوات . فتخلص من جميع الديون واستملك مخزناً جميلا مزودا ببضاعة قيمة . . . في هذا الوقت بالذات ، مرضت روبرت الكبيرة وماتت من الإرهاق الجسدي . كأنها اختارت الوقت المناسب لتموت ، أي حين لم يعد زوجها في حاجة إليها .

هذه هي رواية بياروت كما رواها لي جاك في ذلك المساء ونحن سائران في ممر « سومون » . بما ان المسافة بعيدة ، أصبحت أعرف السفينولي تماماً قبل ان أصل إلى منزله . سلكنا أطول طريق ليرى الباريسيون سنرتي الجديدة .ـ عرفت أيضاً أن لبياروت الطيب معبودين يجب أن لا نمسهما : ابنته والسيد لالوات . علمت أيضاً أنه ثرثار يمل المرء سماعه ، لأنه يتكلم ببطء ، يبحث عن جمل لائقة ، ولا يستطيع أن يقول ثلاث كلمات متتالية دون أن يضيف : « هذا ما أردت أن أقوله . . . » وذلك يعود إلى السبب الآتي : لم يعتد السفينولي لغتنا . فجميع الأفكار التي تراوده ، تأتي إلى شفتيه مصوغة بلغة « اللونغدوك » المحكية . فيضطر أن يضع تلك الكلمات تباعاً في قالب فرنسي . لذا فالجملة الآتية « هذا ما أردت أقوله » التي تتكرر باستمرار وتزين أحاديثه المطولة ، تعطيه الوقت الكافين ليقوم بتلك الترجمة الباطنية . وكما يقول جاك : إن

بياروت لا يتكلم ، بل يترجم . . . أما في ما يختص بالآنسة بياروت ، فكل ما علمته عنها ، هو انها في السادسة عشرة من عمرها وتدعى « كميل » هذا كل شيء ففي هذا الموضوع بقي جاك صامتاً .

قاربت الساعة التاسعة ، حينما دخلنا إلى منزل لالـوات القديم . وجدناهم على وشك الإغلاق ؛ كانت المسامير الكبيرة ، المصاريع ، القضبان الحديدية ، ومجموعة سياجية مطروحة كوماً كوماً على الرصيف ، وأمام الباب الذي فتح قليلاً . النور مطفأ . والمخزن بأكمله مظلم باستثناء الطاولة الكبيرة التي تقسم المخزن قسمين ، والتي وضع عليها مصباح من الخزف يضيىء أكداساً من الدراهم ووجهاً أحمر ضاحكاً في القصاء . في الغرفة الخلفية يسمع عزف مزمار .

هتف جاك بعدما وقف أمام الطاولة : «طاب نهارك يا بياروت ! طاب نهارك يا بياروت ! » (كنت بجانب جاك تحت ضوء المصباح . . .) . رفع بياروت عينيه عند سماع صوت جاك ، بعدما كان مشغولاً بالتدقيق في حساباته . حين رآني ، أطلق صرخة ، ضم يديه ، بقي في هذا الوضع المضحك ، يمعن النظر فيّ وفمه مفتوح .

قال جاك وكأنه قد أحرز انتصاراً :
ـ حسناً ! ألم أكن على حق ؟
فتمتم بياروت الطيب :

ـ أوه ! يا الهي ، يتهيأ لي . . . ما أريد أن أقوله . . . يتهيأ لي انني أراها .

فأضاف جاك :

ـ العينان بالاقصى، انظر إلى عينيه أنظر يا بياروت .

أجاب بياروت :

ـ وذقنه يا سيد جاك ، الذقن ذات النقرة .

ثم رفع عاكسة ضوء المصباح ليراني بوضوح.

لم أفهم شيئاً مما كان يجري أمامي . فالاثنان ينظران إليّ ، يطرفان بأعينهما ، ويؤشران بعضهما لبعض . . . فجأة وقف بياروت ، ترك مكانه واقبل نحوي بذراعيه المفتوحتين قائلاً :

ـ عن إذنك يا سيد دانيال ، يجب أن أقبلك . . . أريد أن أقول أنه بتلك الطريقة سأعتقد اني أقبل الآنسة .

تلك الملاحظة الأخيرة أوضحت لي كل الغموض . في تلك السن كنت اشبه إلى حد بعيد السيدة ايسات بالنسبة إلى بياروت الذي لم ير « الآنسة » منذ نحو خمس وعشرين سنة ، فأن ذلك الشبه بدا شديد الوضوح . لم يمل الرجل الطيب مصافحتي ، تقبيلي ، والنظر اليّ وهو يضحك فيما اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم شرع يحدثنا عن والدتنا ، عن الألفي فرنك ، عن حبيبته روبرت ، عن ابنته كميل ، عن حمار « انستجيل » ، تكلم عن كل ذلك باسهاب فأوشكنا ان نبقى لغاية اليوم في المخزن ونحن

نستمع إليه ـ هذا تماماً ما كنت اعنيه ـ لو لم يقل له جاك بعصبية : « نسيت حساباتك يا سيد بياروت ! »

توقف بياروت عن الكلام فجأة ، وهو مخجول من نفسه لشدة ثرثرته :

ـ معك حق سيد جاك ، انني اثرثر كثيراً . . . والصغيرة . . . ما اريد ان اقوله . . . هو ان الصغيرة ستؤنبني ان صعدت متأخراً .

سأله جاك لا مبالياً :

ـ هل كميل فوق ؟

ـ اجل ! . . اجل سيد جاك . . . الصغيرة فوق ، وهي متشوقة . . . هذا ما اريد ان اقوله تماماً . . . هي جد متشوقة للتعرف على السيد دانيال . اصعدا لرؤيتها . سأنتهي من حساباتي وسأوافيكم . . . اجل هذا ما اريد ان اقوله .

دون ان نستمع إلى المزيد ، اخذني جاك بذراعي وشدني بسرعة نحو القصاء ، حيث يسمع عزف مزمار . . . فمخزن بياروت كبير ومليء بالبضاعة . نرى من خلال الضوء الخافت بريق بطن الزجاجات ، ومصابيح « الأوبال » ، والكؤوس البوهيمية النحاسية اللون ، كؤوس الكريستال ، وأواني المساء المنتفخة ، ويميناً ويساراً ، اكواماً طويلة من الصحون تكاد تلامس السقف . حتى اننا نخال ذلك المخزن قصر الخزف ليلاً . في الغرفة الخلفية لا يزال القنديل ساهراً ، وقد اخرج بملل قسماً

صغيراً من فتيله . . . مررنا فقط في كل المكان ، حيث وجدنا على حافة كنبة واسعة ، شاباً طويلاً اشقر يعزف بحزن على المزمار. قال له جاك وهو مار « طاب نهارك » بطريقة جافة جداً ، فاجابه الشاب الاشقر بعزف على المزمار هو ايضاً جاف جداً . لعل هذه هي طريقة اداء التحية بين مزمارين ناقمين واحدهما على الآخر.

شقة بياروت في الطابق الرابع وفي المبنى الذي فيه المخزن الآنسة كميل الارستقراطية الطبع لا تذهب إلى المخزن ، بل تبقى فوق ولا ترى والدها الا في اوقات تناول الطعام .قال لي جاك فيما نحن نصعد السلم :

ـ اوه ! سترى بنفسك ! انهم يعيشون كالنبلاء . فلدى كميل وصيفة هي الارملة « تريبو » لا تبارحها ابداً . . . لا اعلم من اين تأتي تلك السيدة تريبو ،لكن بياروت يعرفها ويدعي بأنها سيدة ذات شأن . . . اقرع الباب يا دانيال لقد وصلنا ! .

فقرعت الباب ، حينئذ فتحت لنا سفينولية سرحت شعرها تسريحة كبيرة ، فابتسمت لجاك كمعرفة قديمة العهد ، ثم ادخلتنا إلى البهو . حين دخلنا وجدنا الآنسة بياروت تعزف على البيانو . ورأينا سيدتين عجوزين وسمينتين تلعبان بالورق في زاوية من المنزل . هما السيدة لالوات والارملة تريبو ، المرأة ذات الشأن كبير . حين شاهدتانا وقفتا ، فاضطرب السكون للحظة وساد شيء من الجلبة . بعد تبادل التحيات ، والقيام بالتعارف ، طلب جاك من كميل ـ كان يناديها كميل دون اي لقب ـ ان تعود إلى

العزف على البيانو. استفادت المرأة ذات الشأن الكبير من تلك الدعوة لتكمل اللعب بالورق مع السيدة لالوات . جلسنا جاك وانا حول الآنسة بياروت كل واحد من جهة . حدثتنا وضحكت معنا فيما هي تمرر اصابعها الصغيرة على البيانو . نظرت إليها وهي تتحدث . لم تكن جميلة . شقراء وردية اللون ، اذناها صغيرتان ، شعرها املس ؛ لكن ما يزعج فيها هو انها تتمتع بصحة جيدة اكثر من اللزوم . علاوة على ذلك فيداها حمراوان وتصرفها الجامد نوعاً ما يدل على انها طالبة داخلية في عطلة. تلك هي ابنة بياروت زهرة قروية، شبت وراء الواجهة في ممر «سومون» .

ها هو الانطباع الأول الذي كونته عنها أول مرة رأيتها لكني بدلت رأيي بسرعة بعدما رفعت الآنسة عينيها نحوي ، ببطء ، بعدما وجهت إليها الكلام . وكما يفعل فعله السحر ؛ اختفت فجأة البورجوازية الصغيرة . لم اعد ارى سوى عينيها ، عينين كبيرتين سوداوين ومدهشتين . وفوراً تذكرتها . . .

لقد حصلت الأعجوبة ! تلك كانت هي نفسها العينين السوداوين اللتين وجهتا اليّ بريقهما هنالك بلطف ، بين الجدران الباردة في المدرسة القديمة ، العينان السوداوان اللتان رافقتا الساحرة ذات النظارات ، العينان السوداوان وكفى . . . اعتقدت انني في حلم . رغبت ان اصرخ فيهما قائلاً : « ايتها العينان السوداوان الجميلتان أهذه انت ؟ هل وجدتك من جديد في وجه آخر ؟ » لقد كانت هي بالذات ! من المستحيل ان يخطىء المرء في

ذلك . لها الرموش نفسها ، البريق نفسه ، النار السوداء نفسها والمضمون نفسه . ان الاعتقاد أنه من الممكن ان نجد زوجين من العيون في انحاء العالم ، لهو جنون ! على كل حال ، فالدليل الذي يثبت أن هاتين العينين السوداوين هما نفسهما اللتان اعرفهما ، وليستا عينين سوداوين اخريين مشابهتين ، الدليل القاطع هو انهما عرفتاني هما ايضاً ، لا شك اننا سنتابع من جديد احد حواراتنا الجميلة والصامتة كالسابق . حينئذٍ سمعت بالقرب مني قضم اسنان فأرة صغيرة ، لكأن الصوت قد دخل في اذني . ادرت رأسي فرأيت شخصاً ، لم انتبه إلى وجوده ، يجلس في مقعد قرب البيانو . . . وهو رجل مسن ، طويل القامة ، جاف وشاحب ، رأسه صغير كالعصفور ، جبينه ضيق ، انفه ذو طرف حاد ، عيناه مستديرتان لا حياة فيهما وشديدا البعد عن الانف كأنهما ملتصقان بالصدغين . . . لولا ان ذلك الرجل لم يكن ممسكاً بقطعة من السكر ينقدها من وقت إلى آخر ، لاعتقدنا انه نائم . اضطربت بعدما شاهدت تلك الرؤ يا ، أديت لذلك الشبح المسن تحية كبيرة ، لكنه لم يرد التحية . . . فقال لي جاك : « لم يرك فهو الاعمى اي الأب لالوات . . . »

ففكرت في نفسي : « ان اسمه يليق به . . . » ولكي لا ارى من جديد ذلك العجوز الرهيب برأسه الذي يشابه رأس العصفور ، أشحت بنظري بسرعة لجهة العينين السوداوين . لكن للأسف الشديد ، فقد تحطم السحر ، واختفت العينان

السوداوان . لقد حل مكانهما بورجوازية صغيرة جامدة على كرسي البيانو . . .

في تلك اللحظة فتح باب البهو ودخل بياروت بجلبة . دخل وراءه الرجل ذو المزمار ومزماره تحت إبطه .

حينما رآه جاك رمقه بنظرة صاعقة تستطيع أن تقتل جاموساً ولكن يبدو ان تلك النظرة لم تصب الهدف لأن عازف المزمار بدا هادئاً تماماً . قال « السفينولي » وهو يقبل ابنته على خديها :

- حسناً يا صغيرتي ، هل انت سعيدة ؟ لقد اتيناك بدانيال . . . كيف وجدته ؟ انه لطيف جداً اليس كذلك ؟ ما اعنيه هو انه يشبه الآنسة تماماً .

وها هو بياروت الطيب يعيد مشهد المخزن ، جرني بالقوة إلى وسط البهو ليتمكن الجميع من رؤية عيني الآنسة . . . وانف الآنسة ، ذقن الآنسة ذات النقرة . . . لقد ازعجني كثيراً ان اعرض على هذا النحو. فالسيدة لالوات والسيدة ذات الشأن الكبير توقفتا عن لعب الورق، واستلقتا في مقعديهما، ثم امعنتا النظر في باعصاب باردة، وبدأتا بصوت عال تنقدان أو تمدحان جميع انحاء جسدي، كما لو كنت تماماً فروجاً صغيراً يباع في سوق «الوادي». والكلام بيننا، فإن المرأة ذات الشأن الكبير بدت خبيرة بالطيور الفتية.

لحسن الحظ وضع جاك حداً لعذابي بعدما طلب من الآنسة بياروت أن تعزف لنا شيئاً . قال عازف المزمار بحيوية : « اجل

فلنعزف شيئاً » ، ثم انطلق بعدما هيأ مزماره . فصرخ جاك : « لا . . . لا . . . اريد أن تعزفا معاً ، ولا ارغب بسماع المزمار ! » حينئذٍ رمقه عازف المزمار بنظرة خاطفة زرقاء ملؤها السموم كسهم « كرايبيي » . لكن الآخر لم يتأثر بذلك وظل يصرخ : « لا اريد سماع المزمار » ! وفي النهاية ربح جاك ، فعزفت الآنسة بياروت ، دون مرافقة المزمار ، أحد تلك الالحان التي تكرر الصوت في لحن واحد ، وهو معروف جداً ويدعى « أحلام روزلان » بكى بياروت اعجاباً فيما كانت تعزف ، وغرق جاك في نشوة عارمة . اما عازف المزمار فقد بقي صامتاً ، وضع مزماره في فمه ، ورافق الايقاع بكتفيه كأنه يعزف بالمزمار في داخله . بعد انتهاء معزوفة « الروزلان » ، التفتت الّي الآنسة بياروت قائلة ، وقد خفضت نظرها :

ـ وانت يا سيد دانيال ، الن تسمعنا شيئاً ؟ . . . انت شاعر ، اعلم ذلك .

فقال جاك الذي لا يحفظ سراً :

ـ وهو شاعر ممتاز . . .

أما أنا ، فلم اكن متحمساً بتاتاً لقول الشعر امام أولئك البرابرة . قد يكون الأمر ممكناً لو ان العينين السوداوين كانت موجودة ، لكن لا ! فقد انطفأت منذ ساعة ، وعبثاً بحثت عنها من حولي . . . فأجبت بياروت الشابة بنبرة لا مبالية :

ـ اعذريني يا آنسة ، فهذا المساء لم اجلب قيثارتي معي .

قال بياروت الطيب الذي فهم تلك الاستعارة بمعناها الحرفي :

ـ لا تنسى أن تأتي بها في المرة المقبلة .

اعتقد المسكين عن حق بأنني املك قيثارة واعزف عليها كما يفعل الشاب الذي يعمل عنده حين يعزف على المزمار . . . آه ! لقد حذرني جاك من انني سأدخل إلى عالم غريب ! .

في الساعة الحادية عشرة قدموا لنا الشاي . كانت الآنسة بياروت تنتقل في البهو ، فتقدم السكر ، تسكب الحليب ، وقد ارتسمت بسمة على شفتيها ، وهي دائمًا على اهبة الاستعداد لتلبية طلباتنا . في تلك اللحظة بالذات من تلك الامسية رأيت العينين السوداوين من جديد . ظهرت امامي براقة وظريفة ، ثم اختفت من جديد قبل ان اتمكن من محادثتها . . . وعندها فقط لاحظت ان في الآنسة بياروت شخصين مختلفين جداً : أولًا الآنسة بياروت البورجوازية الصغيرة التقليدية ، اللائقة بالتربع على عرش منزل لالوات السابق ، ثم هنالك العينان السوداوان ، العينان الكبيرتان الشاعريتان اللتان تتفتحان كوردتين مخمليتين ، والتي ما عليهما الا الظهور لتغيّران ملامح منزل اولئك الباعة المضحكين . مهما حصل فأنني لن اقبل بتاتاً بالآنسة بياروت، لكن الأمر يختلف مع العينين السوداوين. . . اوه ! ما اجملهما !

واخيراً حان وقت الرحيل . لما السيدة لالوات هي التي بدأت ، بعدما وضعت زوجها تحت إبطها في حرام صوفي كبير وذهبت به كما لو كان مومياء عجوزاً محاطة بالعُصيبات . بعد ذهابهما ، حدثنا بياروت طويلاً على سطح السلم : « الآن يا سيد دانيال بما انك تعرفت على منزلنا ، آمل ان تكرر زياراتك لنا . لا نستقبل اناساً من الطبقة الرفيعة ، لكننا نحسن اختيار زوارنا . . . اعني بذلك السيد والسيدة لالوات معلميّ السابقين . ثم السيدة تريبو وهي امرأة ذات شأن كبير وفي وسعك ان تتحدث إليها ؛ ثم الفتى الطيب الذي يعمل عندي ويعزف لنا احياناً على المزمار . . . هذا تماماً ما اردت ان اقوله . . . ستلقي الشعر وهو يرافقك على مزماره . سيكون ذلك لطيفاً للغاية .

اعتذرت بخجل معللاً رفضي بكثرة انشغالي مما لن يسمح لي بالمجيء قدر ما أشاء . . اضحكه ذلك كثيراً :

ـ هيا كفاك تلاعباً ! انت مشغول يا سيد دانيال . . . اننا نعلم تماماً ايها الشبان بما انتم مشغولون في الحي اللاتيني . . . اجل هذا ما اردت ان اقوله . . . لا بد انك متعلق بأحدى الجميلات .

فقال جاك ضاحكاً :

ـ الواقع ان الآنسة « كوكو بلان » هي جذابة جداً .

اسم « كوكو بلان » زاد من حبور بياروت .

ـ ماذا قلت يا سيد جاك ؟ « كوكو بلان » ؟ هي تدعى « كوكو بلان » . . . هاي ! هاي ! انظروا إلى ذاك الفتى . . . عنده مغامرات في سنه المبكرة . . .

وتوقف عن الكلام عندما ادرك ان ابنته تستمع إليه رغم وصولنا إلى أسفل السلم ، كنا لا نزال نسمع قهقهته التي تهز الدربزين . . .

قال لي جاك عندما أصبحنا خارجاً :

ـ حسناً ! كيف وجدتهم ؟

ـ السيد لالوات يا عزيزي قبيح جداً ، أما الآنسة بياروت فهي ظريفة جداً .

قال لي العاشق المسكين :

ـ أليس كذلك ؟ قالها بحدة ، فلم اتمالك نفسي عن الضحك .

قلت له بعدما امسكت بيده :

ـ هيا يا جاك ! لقد فضحت أمرك بنفسك .

في ذلك المساء تنزهنا على الأرصفة حتى ساعة متأخرة من الليل . بالقرب من اقدامنا كانت تمر ساقية هادئة سوداء تدحرج كاللآلىء آلافاً من النجوم الصغيرة ، بينما تصرخ مراسي المراكب الكبيرة . إن السير بهدوء في الظلمة ، وسماع جاك وهو يحدثني عن الحب ، هما لذة . . . هو يحب بكل جوارحه ، لكنه ليس محبوباً ، ويعلم جيداً أن حبه غير متبادل .

ـ إنها يا جاك تحب شخصاً آخر دون شك .

ـ لا ، لا يا دانيال ، لا اعتقد انها أحبّت شخصاً آخر قبل هذا اليوم .

ـ قبل هذا اليوم ! ماذا تعني بقولك يا جاك ؟

ـ الواقع ان الجميع يحبونـك انت يا دانيـال . . . ومن الممكن ان تحبك هي ايضاً .

مسكين العزيز جاك ! قال ذلك بحزن وبقناعة . ولكي اطمئنه بدأت اضحك بصوت مرتفع ، محدثاً ضجة اكثر مما كنت اتوقع .

ـ اللعنة ! انك تسرح كثيراً بخيالك يا عزيزي . . . هل سحري لا يقاوم ام ان الآنسة بياروت هي سريعة الغرام . . . لا ! اطمئن ايتها « الأم جاك » . لا انا اهيم بالآنسة بياروت ولا هي تهيم بي . طبعاً ليس عليك ان تخشاني .

قلت ذلك بصدق . فالآنسة بياروت لا تعني لي شيئاً . لكن الأمر يختلف مع سوداء العينين .

VII

الوردة الحمراء وسوداء العينين

بعد زيارتي الأولى لمنزل لالوات السابق ، بقيت مدة دون الرجوع إلى هنالك . اما جاك فقد ظل يقوم بزيارته المقدسة نهار الأحد وبأخلاص . وفي كل مرة يخترع عقدة جديدة لربطة عنقه فيها الكثير من الاغراء . . . ربطة عنق جاك قصيدة ، قصيدة حب جارف ومكبوت ، شيء شبيه بالتحية الشرقية ، هي أحدى باقات الزهور الرمزية التي يقدمها الباشاوات إلى حبيباتهم ، وقد ضمنوها جميع أنواع العشق .

لو كنت امرأة لتأثرت بربطة عنق جاك ذات الألف عقدة والتي تتنوع باستمرار ، ولكان وقعها عليّ ابلغ من التصريح بالحب . لكنني سأصرح لكم بشيء : لا تفهم النساء بتاتاً بلغة ربطات العنق . . . كل نهار أحد يقول لي العاشق المسكين قبل ان يذهب : « انا ذاهب إلى هناك ، أتأتي معي يا دانيال ؟ » . واجيبه انا كل مرة : « لا يا جاك ! انني اعمل . . . » حينئذٍ يذهب بسرعة وأبقى وحيداً ، منكباً على

كتابة الشعر .

لقد اتخذت قراراً حاسماً ، لا رجوع عنه ، بعدم الذهاب عند بياروت ، لاني اخشى سوداء العينين قلت في نفسي : « ان رأيتها من جديد ، قضي عليك لا محالة . » عملت جهدي لكي لا اراها من جديد . . . ذلك ان العينين السوداوين الشيطانتين قد استحوذتا على عقلي . أراهما أينما كان ، وافكر دائماً فيهما : أنا اعمل وخلال النوم . كان من الممكن ان تروا على دفاتري عيوناً كبيرة رسمت بريشة وذات رموش طويلة . اصبحت العينان السوداوان هاجسي الوحيد .

آه : حينما يذهب « امي جاك » ، وهو في غاية الحبور ، يقفز عوض ان يسير ليصل إلى ممر « سومون » وقد عقد ربطة عنقه بطريقة مبتكرة ، تجتاحني رغبة عارمة ، باللحاق به لأصرخ في وجهه : « انتظرني ! » لكن لا ! فشيء ما في داخلي يقول لي انه من السيء ان اذهب إلى هناك . وكانت تؤاتيني الشجاعة الكافية لأبقى وراء طاولتي . . . : « لا ، شكراً يا جاك . . . إنني أعمل » .

بقيت حائراً مدة من الوقت . ومع مرور الزمن ، وبمساعدة ربة الشعر ، كنت سأتوصل دون شك إلى طرد العينين السوداوين من مخيلتي . لسوء الحظ اخطأت بمشاهدتها مرة اخرى . لقد قضي علي : لم اعد مسيطراً على عقلي ،

وقلبي وكل جسدي . اليكم الظروف التي رأيت فيها سوداء العينين من جديد :

منذ اليوم الذي تنزهنا فيه بجانب المياه ، وقد أفضى لي جاك بمكنونات قلبه ، لم يكلمني مرة ثانية عن حبه . لكنني ادركت من تصرفه ان الرياح تجري بما لا تشتهي السفن . . . عندما يرجع نهار الأحد من زيارته بياروت أراه دائمًا حزيناً . خلال الليل أسمع تنهداته المتواصلة . . . إن سألته « ما بك يا جاك ؟ » يجيبني بفظاظة : « لا شيء » لكنني افهم من نبرة صوته ان شيئاً قد ألّم به . في السابق كان طيباً وصبوراً معي ، أما الآن فقد اصبح يتململ مني - ينظر إلّي أحياناً وكأننا متخاصمان . شككت ان في الأمر حباً ميؤوساً منه . لكنني خشيت ان أفاتحه بالأمر ، لأن جاك اصرّ على عدم بحث هذا الموضوع معي . لكن ذات أحد وقد رجع مكفهراً أكثر من العادة ، أردت أن اكون على بينة مما يجري ، فقلت له وقد امسكت يديه بيديّ :

- هيا يا جاك ! قل لي ما بك ؟ ألا تجري هنالك الأمور كما يرام ؟

- أجاب الفتى المسكين وقد بدا عليه اليأس : « لا ! إن الأمور ليست كما يرام . . . »

- قل لي بربك ماذا يجري ؟ هل شكك بياروت بأمركما ؟ أيريد ان يمنعكما من أن تتحابا ؟ . . .

أوه ! لا يا دانيال ليس بياروت الذي يريد أن يمنعنا . . . بل هي التي لا تحبني ، والتي لن تحبني أبداً .

ـ هذا هو الجنون بعينه يا جاك ! كيف تؤكد انها لن تحبك أبداً . . . هل قلت لها على الأقل انك تحبها ؟ . . . بالطبع لا ؟ . . . حسناً ! إذن . . .

ـ الذي تحبه لم يتكلم ؛ لم يحتج إلى الكلام ليكون محبوباً . . .

ـ أصحيح ما تقول يا جاك ، أتعتقد ان عازف المزمار هو المعني ؟ . . . فكأن جاك لم يسمع سؤالي . قال للمرة الثانية :

ـ الذي تحبه لم يصارحها بشيء .

لم أحصل منه على مزيد من المعلومات . وتلك الليلة لم نتم بتاتاً في برج أجراس « سان جرمان » .

امضى جاك معظم الوقت إلى النافذة ، يتنهد وينظر إلى النجوم . أما أنا فقد فكرت في نفسي : « ماذا لو ذهبت إلى هنالك لأرى حقيقة الأمور . . . قد يكون جاك مخطئاً لابد ان الآنسة بياروت لم تذكر كل معاني الحب المختبئة في طيات ربطة العنق هذه .

وبما ان جاك لا يجرؤ ان يصارحها بحبه لها ، ربما من الأفضل أن اتكلم بلسانه . . . أجل ، هذا ما سأفعله : سأذهب واكلمها ، ثم انتظر النتيجة .

ودون أن أُعلم « امي جاك » بالأمر ، نفذت في اليوم التالي هذا المشروع الشريف . الله يعلم اني بذهابي إلى هنالك لم أكن منجرفاً بأي نية سيئة . ذهبت من أجل جاك وفقط من أجله . . . لكن حينما رأيت في زاوية ممر « سومون » منزل لالوات القديم بلونه الأخضر ، وعندما قرأت لافتة واجهته التي كتب عليها : « أواني خزف صينية وبلورية » ، شعرت بخفقان في قلبي كان عليّ ان اصغي إلى ما فيه من تحذير . . . ودخلت فوجدت المخزن خالياً ، وفي القصاء يتناول الرجل ذو المزمار طعامه . انه يحتفظ بآلته على غطاء الطاولة بقربه ، حتى وهو يأكل . فقلت في نفسي فيما انا صاعد « من غير المعقول ان تتردد كميل في الإختيار بين ذلك المزمار المتنقل « وامي جاك » لكن سأرى ما في وسعي ان افعل . . .

وجدت بياروت إلى المائدة مع ابنته والمرأة ذات الشأن الكبير . ولحسن الحظ لم تكن سوداء العينين حاضرة . حين دخلت صرخ بياروت الطيب مندهشاً بصوته الجهوري : « ها هو اخيراً : هذا ما اردت ان اقوله . . . سيتناول القهوة معنا . » اعطوني مقعداً فجلست قرب الآنسة بياروت . ثم ذهبت المرأة ذات الشأن الكبير لتأتي لي بفنجان قهوة جميل مزين بازهار ذهبية .

في ذلك اليوم بدت الآنسة بياروت لطيفة جداً . رفعت شعرها قليلاً فوق أذنيها ، لم تعد تلك التسريحة تبع ذوق

العصـر ، ووضعت فيـه وردة صغيـرة حمـراء ، ذات احمـر قان . . . والكلام بيننـا ، اعتقد أن تلك الـوردة الصغيـرة الحمراء هي جنيـة سـاحرة ، لأنها جملت الصبيـة بشكل غـير معقول . قال لي بياروت مصحباً قوله بضحكةٍ كبيرةٍ طيبـة وعطوفة :

ـ هكذا إذن يا سيد دانيال ! لقد انتهى الأمر وأبيت ان تزورنا مرة ثانية ! . . .

حاولت ان اعتذر معللاً غيابي بأعمالي الأدبية التي تأخذ كل وقتي . قال «السفينولي»:

ـ أجل ، اجل ، اعرف ما تعني ، فالحي اللاتيني . . .

ثم ضحك بقوة عندما لاحظ ان السيدة ذات الشأن الكبير تتظاهر بالسعال ، هم ! هم ! محاولةً اسكاتي بينما رفستني في الوقت نفسه من تحت الطاولة .

الحي اللاتيني يعني لهؤلاء الناس الطيبين :

الأفراط في الأكل ، الأنهماك في العربدة ، الكمنجات ، الأقنعة ، علب البارود ، الأسهم النارية ، الأواني المحطمة ، الليالي المجنونة وما يتبعها . اه ! لو اخبرتهم عن حياتي الزاهدة في برج اجراس « سان جرمان » ، لأدهشتهم كثيراً .

لكنكم لا تعلمون انه في عمر الشباب ، لا يحنق المرء ان اتهم بسوء المسلك . امام اتهامات بياروت تظاهرت بالتواضع ولم ادافع عن نفسي بقوة : « لا ، لا ، اؤكد لك . . . ان الأمر

ليس كما تعتقد . . . » لو كان جاك حاضراً لسخر مني . . .

ما كدنا ننتهي من شرب القهوة ، حتى تناهى إلى اسماعنا من الباحة عزف خفيف على المزمار . فتلك اشارة لبياروت لينزل إلى المخزن . بعد ذهابه مباشرة ، ذهبت السيدة ذات الشأن الكبير بدورها إلى المقلاد لتلعب الورق مع الطاهية . الكلام بيننا ، اعتقد أن فضل تلك المرأة الكبير يعود إلى مهارتها في ورق اللعب .

عندما رأيت انهم تركوني بمفردي مع الوردة الصغيرة الحمراء ، فكرت في نفسي قائلاً : « لقد حان الوقت المناسب ! » . هممت بلفظ إسم جاك ، لكن الآنسة بياروت لم تترك لي فرصة لأتكلم ، قالت لي فجأة بصوت خافتٍ ودون ان تنظر إليّ : « هل إن الآنسة كوكو بلان » هي التي تمنعك من زيارة أصدقائك ؟ » . اعتقدت في بادىء الأمر انها تمزح ، لكن لا ! فهي لم تكن تمزح . فالإحمرار الذي علا خديها ، وخفقات قميصها الرقيق السريع تدل على شدة تأثرها . لاشك انهم تكلموا امامها عن « كوكو بلان » مما جعلها تتخيل بارتباك أشياء لا وجود لها . كان في وسعي بمجرد كلمة واحدة ان اطلعها على حقيقة الأمر . لكنني لا أعلم أي صلف متهور منعني من ذلك . . . عندما ادركت اني لم أجبها ، استدارت الآنسة بياروت نحوي ونظرت إلى بعدما رفعت رموشها الطويلة التي كانت محنية . . . إنني دون شك كاذب . لم تنظر هي إليّ

بل العينان السوداوان المغرورقتان بالدموع والمحملتان تأنيبات ناعمة. آه! أيتها العينان السوداوان العزيزتان! أنت لذة لروحي!

مرّ ذلك المشهد كالرؤيا. لقد انحنت الرموش الطويلة فوراً تقريباً، فاختفت العينان السوداوان. ولم يعد جالساً بجانبي سوى الآنسة بياروت. وقبل أن أحظى برؤيا جديدة، أسرعت في التكلم عن جاك. تحدثت أولاً عن طيبة قلبه، عن صدقه، عن شجاعته وعن كرمه. أخبرتها عن إخلاصه الذي لا يمل، وعن أمومته اليقظة أبداً والتي تحسده عليها أم جديرة بهذا اللقب. إن جاك هو الذي يوفر لي الطعام واللباس ويدير شؤون حياتي أيضاً. الله وحده يعلم بالحرمان الذي يعانيه وبنوعية العمل القاسي الذي يتحمله ليقدم لي كل ذلك. ولولا مساعدته لبقيت هنالك في مدرسة سارلاند الأشبه بسجن مظلم، وحيث تعذبت كثيراً...

عندما وصلت إلى هذا المقطع من حديثي، بدت الآنسة بياروت متأثرة جداً ورأيت دمعة كبيرة تتزحلق على خدها. اعتقدت أنا بطيب نية أنها تبكي من أجل جاك فقلت في نفسي: «هيا! فالأمور تسير كما يرام» حينئذٍ ضاعفت بلاغتي. فتكلمت عن أحزان جاك وعن هذا الحب العميق الغامض الذي يضني قلبه. آه! كم ستكون سعيدة المرأة التي...

ـ وهنا، وقعت الوردة الصغيرة الحمراء التي كانت في

شعر الآنسة بياروت ، لا أعلم كيف حصل ذلك ، وحطت امام قدمي في تلك اللحظة بالذات كنت أبحث عن وسيلة ناعمة لأفهم كميل الشابة بأنها هي تلك المرأة السعيدة الحظ التي أغرم بها جاك . وقوع الوردة الحمراء الصغيرة وفر لي تلك الوسيلة . أنا محق في قولي بأن تلك الوردة الصغيرة الحمراء هي ساحرة . فلممتها بخفة ، ولم أرجعها لصاحبتها . ثم قلت للآنسة بياروت بعدما رسمت على فمي أجمل بسمة عندي « : سترسل تلك الوردة إلى جاك من قبلك » . أجابت الآنسة بياروت وهي تتنهد : « إن شئت ستكون الوردة من نصيب جاك » . لكن في اللحظة نفسها ظهرت العينان السوداوان ، نظرت إلي بلطافة وكأنها تقولان لي : « لا إنها ليست لجاك ، بل لك ! » . آه لو رأيتم كيف أجادت قول ذلك . قالت تلك الكلمات بقلب طيب مليء بالحماسة ، وبشغف طاهر لا يقاوم ! . رغم ذلك ترددت ، فاضطرت أن تعيد مرتين أو ثلاث مرات تباعاً : «أجل ! . . . إنها لك . . . لك » . حينئذٍ قبلت الوردة الصغيرة الحمراء ووضعتها في صدري . حينما رجع جاك في ذلك المساء ، وجدني كالعادة منكباً على نظم الشعر ، وتركته يعتقد انني لم اغادر المنزل طيلة النهار . لكن فيما أنا أخلع ثيابي ، ولسوء حظي ، وقعت الوردة الصغيرة الحمراء ، التي احتفظت بها في صدري ، على الأرض بجانب السرير . كل تلك الساحرات مليئات بالخبث . رآها جاك ،

فالتقطها ونظر إليها مطولاً . لم ادر من أصبح أكثر احمرارا الوردة أم أنا . فقال لي :

ـ إني أعرف جيداً مصدر تلك الوردة ، فهي من شجرة الورد التي توجد « هنالك » أما نافذة البهو .

ثم أضاف بعدما أعادها إليّ :

ـ لم تعطني مثلها قط .

اغرورقت عيناي بالدموع، عندما سمعته يقول ذلك بحزن عميق .

ـ جاك ، يا صديقي جاك ، أقسم لك انه قبل هذا اليوم . . .

قاطعني بلطف قائلاً :

ـ لا تعتذر يا دانيال ، أنا متأكد من انك لم تفعل شيئاً لتخونني . . . كنت أعلم ذلك ، كنت أعلم انها تحبك انت . تذكرما قلته لك : الذي تحبه لم يتكلم ، لم يجد نفسه مضطراً ليصارحها بشيء ليكون محبوباً . »

بعد ذلك بدأ الفتى المسكين يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً . أما أنا فقد تأملته دون حراك ووردتي الحمراء في يدي . اضاف قائلاً بعد مرور وقت قصير : « إن ما حصل كان لابد له أن يحصل . لقد تنبأت بذلك منذ أمدٍ بعيد . علمت في قرارة نفسي لو رأتك ، لن تقبل بي أبداً . . . لهذا

السبب ، إنتظرت مدة طويلة قبل أن آخذك معي إلى هنالك حسدتك سلفاً إغفر لي ، لقد أحببتها كثيراً ! . . . ذات يوم ، أردت أن أقوم بالتجربة ، فسمحت لك بالمجيء معي . علمت في ذلك اليوم يا عزيزي بأن الأمر قد قضي . فبعد مرور خمس دقائق ، نظرت إليك نظرةً لم ينعم بمثلها أحد قبل اليوم . لقد لاحظت ذلك أنت أيضاً . أوه ! لا تكذب ، لقد لاحظت ذلك . وما يثبت أقوالي هو انك لم ترجع إلى هنالك طيلة شهر وأكثر . لكن ولسوء الحظ ، لم استفد من ذلك التصرف . . . فالغائبون بالنسبة للأرواح الطاهرة كروحها ، لا يخطئون أبداً ، بل العكس تماماً . . . فكل مرة أزورهم فيها ، لا تتكلم سوى عنك ، بسذاجة ، بإيمان وبحب ليس لهما حدود . . . تعذبت كثيراً من جراء ذلك . أما الآن فقد انتهى الأمر . . . وذلك أفضل .

تحدث معي جاك هكذا طويلاً بالنعومة والبسمة القاتمة نفسها . . . كل ما قاله لي أحزنني وأفرحني في وقت واحد . حزنت لأنني شعرت بأنه تعيس ؛ فرحت لأنني رأيت من خلال كل كلمة قالها ، العينين السوداوين تلمعان من أجلي بعدما ملأت كيانها . عندما فرغ من حديثه ، إقتربت منه ، وأنا خجول قليلاً بنفسي ، لكنني احتفظت بالوردة الحمراء الصغيرة في يدي : « ألن تحبني بعد اليوم يا جاك ؟ » . فابتسم وضمني إلى صدره قائلاً : « انت معتوه ، سأحبك أكثر » .

لقد قال الحقيقة . لم يطرأ أي تغيير على عاطفة « أمي جاك » ، وحافظ على طبعه الهادىء ، حتى بعد وقوع حادثة الوردة الحمراء . أعتقد أنه قد تعذب كثيراً ، لكنه لم يدعني ألاحظ ذلك . لم أسمع ولو مرة واحدة تأوهاً ، أو شكوى ، لا شيء البتة . كما في السابق أكمل زياراته الإعتيادية نهار الأحد إلى هناك ، وظل لائقاً مع الجميع . لقد ألغى شيئاً واحداً : عُقد ربطة العنق. في ما يتعلق بالباقي ، فقد بقي هادئاً ، فخوراً ، يعمل بعناء شديد ، يعيش بشجاعة في سبيل الوصول إلى هدف واحد : إعادة بناء المنزل العائلي . . . أوه يا جاك ! يا امي جاك!

أما أنا ، فمنذ اليوم الذي أستطعت فيه ان اجهر بحبي لسوداء العينين ، وضميري لا يؤنبّني ، إنجرفت بكل جوارحي في ولعي . لم أعُدْ أبرح منزل بياروت ، حيث أحبّني الجميع . لكن يا إلهي كم ان ثمن ذلك كان باهظاً : أجلب السكر للسيد لالوات ، وألعب بالورق مع السيدة ذات الشأن الكبير . . . فدعاني أفراد هذا المنزل : « دزير ـ دو ـ بلار » . (الرغبة في أن أُعجب الآخرين) . . . . إجمالاً ، يزورهم « دزير ـ دو بلار » نحو منتصف النهار . ففي تلك الساعة يكون بياروت في المخزن ، وتبقى الآنسة كميل بمفردها فوق ، في البهو ، مع السيدة ذات الشأن الكبير . فور وصولي تظهر سوداء العينين بسرعة فائقة ، وبعد ذلك مباشرة تقريباً ، تدعنا السيدة ذات الشأن الكبير

بمفردنا ، تلك السيدة الرفيعة الشأن ، والتي وظّفهـا السفينولي كوصيفة لابنته ، تعتقد أن عملها ينتهي حالما أصل . فتذهب بسرعة مع الطاهية الى المقلاد لتلعب بالورق . لم أكن أتشكى من هذا الوضع ، ليتكم تدركون سعادتي وأنا أناجي سوداء العينين .

يا إلهي ! كم من ساعات جميلة أمضيتها في ذاك البهو الصغير الأصفر ! كنت دائمًا أجلب معي كتاباً ، لأحد الشعراء المحظيين عندي ، وأقرأ فيه مقاطع لسوداء العينين ، التي تبتلّ بدموع سخيّة أو ترسل بروقاً ، حسب الفقرات . خلال هذا الوقت تـطرّز الآنسة بياروت بقربنا بابوجاً لأبيها ، أو تعزف لنا : « تخيّلات روزلان » ، تلك المقطوعة الموسيقية الوحيدة التي تجيد عزفها . لكنني أؤكد لكم أننا ندعها دائمًا بسلام ، لكن احياناً ، وحينما أقرأ مقطعاً مؤثراً للغاية ، تبدي تلك البورجوازية الصغيرة فكرةً تافهةً بصوت عالٍ ، فتقول مثلاً : « يجب ان أستدعي معدّل البيانو . . . . » أو تقول أيضاً : « لقد طرزت غرزتين فائضتين على البابوج » حينئذٍ اغضب وأغلق الكتـاب وارفض ان أقرأ المزيد ، لكن سوداء العينين تنظر إليّ بطريقةٍ معينة فتهدىء فوراً من روعي ، ثم أكمل القراءة .

لا شك انهم يرتكبون خطأً فادحاً عندما يتركوننا بمفردنا دائمًا على هذا النحو في هذا البهو الصغير الأصفر . ذلك ان سوداء العينـين و « دزير دو بـلار » معاً لا يتعـدى عمرهمـا الرابعـة والثلاثين . . . لكن الآنسة بياروت لحسن الحظ لا تتركنا ، وهي

مراقبة حكيمة جداً ، تترقب الأمور جيداً ، ويقظة جداً ، فهي تحمل جميع الصفات الضرورية التي يجب ان يتحلّ بها كل من يحرس حُقق بارود . . . انني اتذكر ذلك اليوم الذي جلسنا فيه ، سوداء العينين ، وأنا ، على اريكةٍ في البهو ، خلال فترة بعد الظهر من شهر أيار الدافىء ، وقد فتحنا النافذة قليلاً ، أما الستائر الطويلة فقد أُسدلت حتى أنها لامست الأرض. كنا نقرأ « فوست » في ذلك اليوم ! . . . . عند انتهاء القراءة ، وقع الكتاب من يدي ؛ وبقينا ملتصقين الواحد بالآخر ؛ دون ان نتكلّم ، وقد أحاط بنا السكون ، ودغشة النهار . . . وضعت رأسها على كتفي ورأيت من خلال قميصها المفتوح قليلاً أيقونات فضية تلمع في قعر صدرها الصغير . . . فجأةً ظهرت الآنسة بياروت بيننا . فأبعدتني عنها بسرعة الى الطرف الآخر من الأريكة ، ثم القت عليّ مُوعظةً كبيرةً قائلةً : « إن ما تفعلانه يا ولديّ هو سيء للغاية . . . . إنكما تستغلان الثقة التي منحناكما إياها . . . . يجب أن تطلعا الوالد على مشاريعكما . . . قل لي يا دانيال ، متى ستكلمه بهذا الشأن ؟ » وعدتها بأن أطلع بياروت على الأمر في أقرب فرصة ، وحين انتهي من نظم ديواني الكبير ، ذلك الوعد طمأن قليلاً مراقبتنا . لكن هذا لم يغيرّ شيئاً في الوضع . فمنذ ذلك اليوم ، حذِرت سوداء العينين الجلوس على الأريكة الى جانب « الدزير دو بلار » .

آه ! الآنسة بياروت ، شابة متزمتة جداً . اتصدقون انها

منعت سوداء العينين في الأيام الأولى من ان تراسلني ؟ وفي النهاية قبلت ، شرط ان تريها جميع رسائلها . لكن لسوء الحظ ، فإن تلك الرسائل اللطيفة ، التي تكتبها لي سوداء العينين ، والمليئة بالولع الشديد ، لم تكن تكتفي الآنسة بياروت بقراءتها من جديد ، بل تضيف اليها غالباً جُمُلاً من إختراعها مثل :

ـ . . . إنني حزينة جداً هذا الصباح . لقد وجدت عنكبوتاً في خزانتي . فظهور العنكبوت في الصباح يجلب الأسى .

أو إنها تقول :

ـ من الصعب العيش مع أشخاص مُسنّين . . .

وتتكرّر دائماً تلك الفكرة :

ـ يجب ان تكلّم والدي بشأننا . . .

فأجيبها ككل مرة .

ـ حالما انتهي من ديواني ! . . . .

VIII

قراءة في ممر « سومون »

أخيراً انتهيت من كتابة قصيدتي العظيمة . فرغت منها بعد

اربعة اشهر من العمل المتواصل . اذكر حين وصلت الى الأبيات الأخيرة انني لم اعد أقوى على الكتابة ، لأن يدي ، كانت ترتجف بقوة بفعل الحمّى ، والغرور ، والفرح وقلّة الصبر .

تلك المناسبة غدت حدثاً كبيراً في برج أجراس « سان جرمان » . في هذا الظرف السعيد ، عاد جاك ليوم واحد ، جاك الأيام الخوالي . فأصبح جاك كما كان في السابق يهوى التغليف وعلب الغراء الصغيرة . جلدّ لي دفتراً رائعاً ، أراد أن يكتب عليه قصيدتي بخط يده . كلما كتب بيتاً من الشعر هتف إعجاباً وضرب الأرض بقدمه حماسة . . . لم تكن ثقتي كبيرة مثله بقصيدتي . إنني احذر جاك لأنه يحبني كثيراً . اردت ان اعرض قصيدتي على شخص غير منحاز وأثق به . المشكلة انني لم اكن أعرف أحداً . مع العلم انه كان في وسعي ان اتعرّف على العديد من الأشخاص في المطعم . منذ ان اصبحنا في عداد الأغنياء ، اعتدت تناول طعامي الى طاولة الضيوف في قصاء القاعة . والتقي دائماً هناك عشرات من الشبان والكتّاب والرسامين والمهندسين ، أو بالأصح التقي من هم مؤهلون لتبوّ تلك الوظائف . أما اليوم فقد أصبح أولئك الشبان مهمين بالفعل . البعض منهم اضحوا مشهورين ، وينفطر قلبي حينما ارى اسماءهم في الصحف بينما انا بقيت مجهولاً . فور وصولي الى طاولة الضيوف رحّب بي ذلك الحشد الفني . لكنني لم اشترك في أحاديثهم بسبب خجلي المفرط . فنسوا وجودي بسرعة ، وغدوت وحيداً بينهم كما لو انني ما زلت

أمام طاولتي الصغيرة في غرفتي المشتركة مع جاك . أصغيت اليهم دون ان اتكلم . . .

مرة واحدة في الأسبوع نلتقي على العشاء شاعراً شهيراً ، لا أتذكر أسمه ، خلع عليه اولئك السادة لقب « **بغفات** » ، مع العلم ان هذا الاسم هو عنوان إحدى قصائده . في تلك اللقاءات نشرب نبيذاً ثمنه ثماني عشر قرشاً . وعندما يؤتى بالفاكهة ، يسمعنا « **بغفات** » الكبير قصيدة هندية . فالقصائد الهندية من اختصاصه . سمى واحدةً منها « لكسمانا »، وسمّى أخرى « دسراسا » وأخرى « كلتسالا » وأخرى « بجراسا » ، وأخرى « سودرا » ثم « كونوسيبا » و « فيسفميترا » ؛ لكن اجمل قصيدة بينها هي« **بغفات** » . آه ! عندما يتلو الشاعر قصيدة « **بغفات** » يخيل الينا ان القاعة ستتهدم . يصرخون عالياً ، يرفسون الأرض بقوة ويصعدون على الطاولات . يجلس الى يميني مهندس قصير القامة ذو انف أحمر ، يشهق بالبكاء منذ سماعه أول بيت ، ويكفكف دموعه بمنديلي . . . .

أما أنا فقد اعتدت الصراخ القوي ، وأبدو الأكثر حماسة . في الحقيقة لم اكن أُهيم بـ « **بغفات** » . تلك القصائد الهندية تتشابه اجمالاً . فهو يتكلم دائمًا عن « السِدرة ، الرخ ، الفيل ، والجاموس . احياناً وليغير بعض الشيء ، يدعو « اللوتس » بـ « اللوتوس » . ما عدا ذلك التنوع ، فتلك المجموعات الشعرية تتساوى : تخلو من الحب ، من الحقيقة ومن الفانتازيا . حتى انها

غدت قوافي في قواف .

إن الفكرة التي كوّنتها عن « بغفات » الكبير هي انه دجال . وكان يمكن ان اكون اقل قسوة عليه لو طلب مني بدوري أن أتلوا امامهم بضعة أبيات من نظمي . لكنهم لم يطلبوا مني شيئاً ، فأصبحت دون رحمة . . . لم اكن انا وحدي من يملك تلك الفكرة عن الشعر الهندي . فإن جاري الجالس الى شمالي لم يستسغه هو ايضاً . . . . جاري الذي يجلس الى شمالي شخص فريد من نوعه : دهني البشرة ، عاطل عن العمل ، برّاق ذو جبين عريض أصلع ، وذو لحية طويلة يتخللها دائمًا بضعة خيوط من الإطرية . وهو الأكبر سناً والأكثر ذكاءً بين الحاضرين . يتكلم قليلاً مثل جميع العقول الكبيرة ، ولا يظهر نفسه أبداً . يحترمه الجميع ويقولون عنه : « انه قوي جداً . . . وهو مفكر » . اما انا ، فحين رأيت السخرية التي ترتسم على فمه وهو يستمع الى ابيات « بغفات » الكبير ، كوّنت عن جاري الجالس الى شمالي فكرة رفيعة الشأن . ففكرت في نفسي : « ان لهذا الرجل ذوقاً رفيعاً . . . ماذا لو قرأت قصيدتي أمامه ! » .

ذات مساء وفيما نحن نغادر الطاولة ، اشتريت زجاجة كحول ، وطلبت من المفكر ان يشرب كأساً صغيرة معي . فقبل لأن الكحول هي نقطة ضعفه . ونحن نشرب تحدثت عن « بغفات » الكبير ، وشنّيت حملة عنيفة على اللوتس ، والرخ ، والفيلة والجواميس . وبينما اتكلم سكب المفكِر لنفسه الخمر مراراً

ولم ينطق بكلمة .

كان يبتسم ويهزّ برأسه إيجاباً وقائلاً : « أجل . . . أجل » . . . وزادني انتصاري الأول جُرأةً ، فاعترفت له بأنني نظمت بدوري قصيدةً كبيرة وقلت له رغبتي في ان اعرضها عليه . فقال المفكِر مجدداً دون ان يحرّك ساكناً : « اجل . . . اجل . . . » عندما ادركت أن الرجل اصبح مهيأً لسماعي قلت في نفسي : « ها هو الوقت المناسب ! »

ثم سحبتُ قصيدتي من جيبي . سكب المفكر لنفسه كأساً خامسة دون ان يتأثر ، ثم نظر إليّ بهدوء وأنا أبسط مخطوطتي . لكن هذا العجوز الثمل وضع يده على كمّي ، وقال في أدق لحظة : « قبل أن تبدأ ايها الشاب بالقراءة قل لي ما هو مقياسك ؟ » نظرت اليه بقلق . فصرخ المفكر الرهيب قائلاً : « مقياسك ! . . . قل لي ما هو مقياسك ؟ » .

للأسف الشديد لم اكن املك مقياساً ! . . . ولم افكر يوماً بأن يكون لي مقياس . لقد ظهر هذا النقص جلياً من نظرتي المندهشة ، واحمرار وجهي ، واضطرابي . فوقف المفكر غاضباً وقال : « ماذا تقول ايها الشاب التعيس ! إنك لا تملك مقياساً ! . . . . لا حاجة لأن تقرأ لي قصيدتك . . . أعرف سلفاً ما هي قيمتها الشعرية » . حينئذٍ شرب تباعاً كأسين أو ثلاثاً بقيت في قعر الزجاجة ، ثم أخذ قبعته وخرج وهو يدير عينيه بحنق .

عندما اخبرت جاك في المساء عن مغامرتي غضب بشدة وقال : « ان مفكرك معتوهٌ . . . وماذا يعني ان يكون لك مقياس ؟ . . . هل للبنغاليين مقياس ؟ . . . ماذا يعني بالمقياس ؟ . . . اين يصنع ؟ هل رآه أحد يوماً ما ؟ . . . اللعنة على بائع المقاييس ! . . . » لقد اغرورقت عينا جاك الطيب بالدموع ، بعد الأهانة التي قاسيتها أنا وتحفتي الشعرية . قال لي بعد حين : « إسمع يا دانيال عندي فكرة . . . بما انك تريد ان تقرأ قصيدتك ، لما لا تقرأها عند بياروت ذات أحد ؟ . . .

ـ عند بياروت ! . . . أوه جاك !

ـ لا ؟ . . . . ان بياروت ليس بنسر لكنه ليس بخلدٍ أيضاً حسّه الشعري واضح جداً وكثير الاستقامة . . . ستكون كميل حكماً ممتازاً ، رغم تأثرها بك . . . والسيدة ذات الشأن الكبير مثقفة . . والأب لالوات نفسه ، ذاك العصفور العجوز ليس متحجراً كما يبدو . . . وبياروت ، على كل حال يعرف اشخاصاً كِراماً في باريس تستطيع ان تدعوهم يومها . . . ما قولك ؟ أتريد أن أكلمه في هذا الشأن ؟ . . .

فكرة الإتيان بحكام الى ممر « سومون » لم تعجبني . لكنني كنت أتوق بشدة لقراءة أشعاري ، فبعدما تردّدت قليلاً ، قبلتُ عرض جاك . وهو فاتح بياروت في اليوم التالي . اشك أن يكون بياروت الطيِّب قد فهم الموضوع تماماً . لكن عندما ادرك أنه يرضي ابنيّ الآنسة في حال تنفيذ تلك المهمّة ، قال الرجل

الصالح دون تردد « أجل » ، فأرسلنا الدعوات للحال .

لم يهيأ البهو الصغير الأصفر قبل اليوم لإقامة حفلة كبيرة فيه كتلك الحفلة . ودعا بياروت ليحتفي بي وجهاء تجار الخزف . ليلة قراءو الشعر جاء السيد والسيدة « بساجون » مع ابنهما الطبيب البيطري وأحد ألمع التلامذة في مدرسة « الفور » ؛ وجاء كذلك « فروّيا » الأصغر سناً وهو ماسوني بليغ حاز لتوّه شهرة كبيرة في مقصورة « الشرف الكبير » ؛ كان هنالك ايضاً « آل فوجيرو » بمعية آنساتهم الست المصطفات بالتدرج ؛ وحضر اخيراً « فرّويا » البكر وهو عضو في نادي « الكافو » وضيف الشرف . ونزلاء المنزل المعتادون حضروا بدورهم ـ عندما رأيت نفسي اواجه مجمع العلماء المهم تأثرت كثيراً . وظن هؤلاء الناس الطيبون ان عليهم ان يتخذوا سيماء معينة تليق بتلك المناسبة ، كالجمود الكلي ، فلا يحركوا ساكناً . تكلموا في ما بينهم بصوت خافت وبوقار وهم يحركون برؤوسهم كالقضاة ، أما بياروت الذي لم يعر تلك القضية أهمية بالغة ؛ فظل ينظر الى الجميع بدهشة . . . عندما وصل جميع المدعوين أخذ كل واحد مكانه .

جلستُ بعدما أدرت ظهري للبيانو، والمستمعون جلسوا حولي في نصف دائرة باستثناء العجوز لالوات الذي يقضم قطعة السكر في مكانه المألوف بعدما عمت الجلبة فترة، ساد الصمت، وبدأت أقرأ قصيدتي بصوت متأثرٍ . . .

قصيدتي درامية تحمل عنواناً مفخّماً هو «المسرحية الرُعائية». . . إن «الشيء الصغير» في أيام أسره الأولى في مدرسة سارلاند، تلهّى بقص الحكايات الصغيرة الخيالية على تلاميذه، الحكايات المليئة بصراصير الليل، بالفراشات وبحيوانات أخرى صغيرة. فمسرحيتي الرُعائيّة إستلهمت موضوعها من ثلاث حكايات صغيرة من تلك الحكايات التي قصصتها على تلاميذي بعدما وضعت لها حواراً وأعطيتها قالباً شعرياً. وتقسم قصيدتي ثلاثة أقسام. لكن في ذلك المساء عند بياروت، لم أقرأ لهم سوى القسم الأول. أطلب منكم السماح لي بكتابة هذا المقطع من المسرحية الرُعائية حرفياً، ليس كقطعة أدبية مختارة، بل كادلّة مبرّئة تُضاف إلى قصّة «الشيء الصغير». تخيّلوا يا قرائي الأعزاء بأنكم جالسون في شكل دائري وفي البهو الصغير الأصفر، بينما يقرأ دانيال ايسات أمامكم مرتجفاً.

«مغامرات فراشة زرقاء»

نرى على المسرح مشهداً ريفياً. إنها السادسة مساء والشمس تغيب. عند رفع الستارة نرى فراشة زرقاء وحبة صيرة تتحدثان وهما راكبتان على نبتة خنشار. لقد التقتا صباحاً وأمضتا النهار معاً. لقد تأخر الوقت فتظاهرت الحشرة بالذهاب.

الفراشة

الفراشة

ماذا!... ستذهبين الآن؟...

حبة الصيرة:

ـ يا إلهي! يجب أن أعود. لقد تأخر الوقت.

الفراشة

اللعنة! إنتظري قليلاً:

لا يفوت الأوان بتاتاً عندما يريد المرء أن يرجع إلى منزله..
فأنا شخصياً أملّ في المنزل. وأنت؟

إن وجود الباب والجدار والنافذة، هو أمر تافه جداً، بينما نملك الشمس والندى خارجاً، وشقائق النعمان، والهواء الطلق، وكل شيء.

إن كنت لا تستسيغين شقائق النعمان، يجب أن تصرحي بذلك...

حبة الصيرة

واسفاه يا سيدتي، إنني أعبدها.

الفراشة

حسناً إذاً أيتها البلهاء، إبقي قليلاً إبقي معي. كما ترين

الطقس جميل والهواء عليل.

حبة الصيرة

أجل، لكن...

(قالت الفراشة بعدما دفعت بالحشرة إلى العشب):

هيا! تمرغي في العشب فهو لنا.

حبة الصيرة (مُهتاجة)

لا! دعيني. أقسم بشرفي، إني مضطّرة إلى الذهاب.

الفراشة:

صه! ألا تسمعين؟

حبة الصيرة، (مرتعبة)

أسمع ماذا؟

الفراشة

تلك السُّمنة الصغيرة، التي تغني وهي تسكر في كرم العنب المجاور... للأغنية الجميلة في هذا المساء الصيفي الجميل وما أجملها نسمعها من موقعنا!

حبة الصيرة

دون شك، لكن...

الفراشة

اسكتي.

حبة الصيرة

ماذا هنالك؟

الفراشة

جاء بعض الرجال.

(يمر بعض الرجال)

حبة الصيرة (بصوت خافت وبعد صمت):

الإنسان شرير جداً، أليس كذلك؟

الفراشة

شرير للغاية.

حبة الصيرة

أخشى دائماً أن يسحقني أحدهم خلال سيره..

أقدامهم كبيرة جداً وكليتاي نحيلتان جداً...

أنت لست كبيرة، لكنك تملكين أجنحة؛ هذا شيء عظيم!

الفراشة

اللعنة! إن كنت تخشين يا عزيزتي أولئك الفلاحين الأغبياء، فاصعدي على ظهري، كليتاي متينتان جداً، فأنا لا أملك أجنحة رقيقة كالآنسات.

سأقلك حيثما تشائين،

وقدر ما تشائين.

حبة الصيرة:

أوه! لا يا سيدتي، أشكرك!

لن أجرؤ أبداً!...

الفراشبة

أهل تجدين صعوبة فائقة في الصعود إلى هنا؟.

حبة الصيرة

لا، لكن...

الفراشة

إصعدي إذاً، أيها المعتوهة!

حبة الصيرة

ستعودين بي إلى المنزل طبعاً:
وإلا إن لم تفعلي...

الفراشة

فوراً.

حبة الصيرة (وهي تصعد على زميلتها)

ذلك إننا نصلي عندنا في المساء.
أتفهمين ما أقول؟

الفراشة

دون شك... إرجعي قليلاً إلى الوراء.
حسناً... والآن سكوت! سأقلع.

(حلقا في الجو وتابعا وتابعا حوارهما)

يا عزيزتي هذا رائع! أنت لست ثقيلة بتاتاً.

حبة الصيرة (مرتعبة).

آه!... سيدتي...

الفراشة

والآن ما الأمر؟

حبة الصيرة

لم أعد أرى شيئاً. . . أن رأسي
يدور؛ أريد أن أنزل. . .

الفراشة

هل أنت مخبولة؟
إن كان رأسك يدور، فيجب أن تغمضي عينيك.
هل أغمضتها؟

حبة الصيرة (مغمضة عينيها)

أجل. . .

الفراشة:

ـ هل تحسنت؟

حبة الصيرة (بجهد)

تحسنت قليلاً.

الفراشة (ضاحكة خفية)

من الواضح أنكم طيّارون سيئون في العائلة. . .

حبة الصيرة

أوه! أجل. . .

الفراشة

ليس الذنب ذنبك إذا كانوا لم يخترعوا بعد البالون الهادي

حبة الصيرة

أوه! لا . . .

الفراشة:

ها قد وصلت يا سيدتي.
(ثم حطت على زهرة السوسن)

حبة الصيرة (وهي تفتح عينيها)
عذراً؟ لكن. . . لا أقيم في هذا المكان.

الفراشة

أعلم ذلك؛ لكن بما أن الوقت ما زال باكراً
جئت بك عند زهرة السوسن وهي إحدى صديقاتي.
سنرتاح قليلاً بعدما نشرب شيئاً؛ هذا مسموح. . .

حبة الصيرة

أوه ليس لدي وقت. . .

الفراشة:

لا عليك؟ لن نبقى سوى ثانية واحدة. . .

حبة الصيرة

ثم أنهم لا يرحبون بي في المجتمعات.

الفراشة

تعالي! سأقول إنك ابنتي غير الشرعية.
سترين أنهم سيحسنو استقبالك!. . .

حبة الصيرة

أصبح الوقت متأخراً.

الفراشة

لا! لم يتأخر الوقت. استمعي إلى الجدجد...

حبة الصيرة (بصوت خافت):

ثم... ليس... معي مال...

الفراشة (وهي تأخذ حبة الصيرة بيدها)

تعالي! فزهرة السوسن تحتفل وتقيم وليمة.

(دخلتا عند زهرة السوسن اسدلت الستارة).

في المشهد الثاني عندما ترفع الستارة يكون الليل قد حلّ... نرى الصديقتين خارجتين من منزل زهرة السوسن... وحبة الصيرة ثملة قليلاً.

الفراشة (وقد أدارت ظهرها)

والآن هيا بنا!

حبة الصيرة (بعدما صعدت بشجاعة)

ـ هيا بنا!

الفراشة

حسناً ما هو انطباعك عن زهرة السوسن؟

حبة الصيرة

يا عزيزتي أنها غاية في اللطف فهي تسلمنا قبو النبيذ وكل شيء دون أن تعرفنا...

الفراشة (تنظر إلى السماء)

أوه! أوه! «فوبيه» تنظر من النافذة؛
يجب أن نسرع...

حبة الصيرة

أن نسرع لماذا؟

الفراشة:

أما عدت مستعجلة للعودة إلى منزلك؟...

حبة الصيرة

أوه؟ المهم أن أصل في الوقت المناسب لتلاوة الصلاة...
على كل حال فمنزلنا ليس ببعيد.... هو هنا في الخلف.

الفراشة

إن لم تكوني مستعجلة فأنا أيضاً لست مستعجلة.

حبة الصيرة

أنت طيبة! لا أعرف لماذا
لا يصادقك كل سكان الأرض.
يقال عنك! «إنها بوهيمية! إنها متمردة! إنها شاعرة! وطيارة متنقلة!...».

الفراشة

هكذا إذاً! ومن يقول ذلك؟

حبة الصيرة

يا إلهي الخنفساء....

الفراشة

آه! أجل تلك السمينة.
تدعوني بالفرفارة لأن بطنها كبير.

حبة الصيرة

ليست وحدها تكرهك...

الفراشة

آه تكلمي

حبة الصيرة

الحلازين أيضاً ليست أصدقاءك،
ولا العقارب ولا حتى النمل.

الفراشة

حقاً؟

حبة الصيرة (هامسة بسرية)

لا تغازلي العنكبوت؛
فهو يجدك مرعبة.

الفراشة

لقد حصل على معلومات خاطئة بشأني.

حبة الصيرة

ودود الفراش هو من رأيه تقريباً...

الفراشة

إني اصدمك!... لكن قولي لي، في العالم الذي تعيشين فيه،

لأنك لا تنتمين إلى مجتمع دود الفراش،

هل أنني أيضاً مكروهة؟...

حبة الصيرة

هذا مرهون بالعائلات،

فالشبيبة هي معك؛ المسنون عامةً،

يجدون أنك لا أخلاقية.

الفراشة (بحزن)

ألاحظ أن الأكثرية لا تستلطفني.

حبة الصيرة

نعم أيتها المسكينة! أقسم لك بشرفي! فبنات النار غاضبة عليك، والضفدع يكرهك. حتى الجدجد،

عندما يتحدث عنك يقول: «هذه ال... ال... الفراشة!».

الفراشة

هل تكرهينني أنت أيضاً مثل أولئك المضحكين؟

حبة الصيرة

أنا!... إني أعبدك؛ إني مرتاحة جداً على كتفيك!

وتأخذيني دائماً عند زهرات السوسن.

هذا مسل جداً! . . . إن أتعبتك،
نستطيع أن نرتاح قليلاً
في مكان ما. . .هل تعبت؟

الفراشة

إني أجدك ثقيلة قليلاً وذلك يعوق تحركي.

حبة الصيرة (تشير إلى زهرات السوسن):

إذاً فلندخل إلى هنا، سترتاحين.

الفراشة

آه! شكراً! . . . زهرات السوسن، دائمًا الشيء نفسه

(بصوت خافت وبنبرة فاسقة)

أفضّل أن أذهب إلى المنطقة المجاورة. . .

حبة الصيرة (وقد احمرّت بأكملها)

عند الوردة؟ . . .
آوه! لا أبداً، لا يمكن. . .

الفراشة (وقد أخذت بيد حبة الصيرة)

تعالي هيّا! لن يرانا أحد.
(يدخلان بسرية عند الوردة
يسدل الستارة).

الفصل الثالث . . .

لكني لا أُريد أيها القراء الاعزاء ، ان أستفيد مدة أطول من صبركم . فأبيات الشعر ، في هذه الأيام ، أعلم أنها لم تعد تعجب . لذا ، أتوقف عند هذا المقطع ، وسأكتفي بأن اخبركم بإيجاز عما تبقى من قصيدتي . في الفصل الثالث حل ظلام حالك . . . خرج الصاحبان معاً من منزل الوردة ، أرادت الفراشة ان تعيد حبة الصيرة إلى أهلها ؛ لكن هذه رفضت ، فهي ثملة تماماً ، تقفز على العشب وتحدث صرخاتها الشغب . . . إضطرت الفراشة ان تجرها بالقوة إلى منزلها . افترقا أمام الباب بعدما تواعدا على ان يلتقيا قريباً . . . حينئذٍ ذهبت الفراشة بمفردها في الليل . فهي ايضاً ثملة قليلاً ؛ لكن سكرها حزين : لقد تذكرت ما أفضت به إليها حبة الصيرة ، وتساءلت بألم لماذا يكرهها الجميع ؟ وهي لم تؤذ احداً يوماً . . . السماء خالية من القمر ، هبت الريح ، والريف يلفه سواد حالك . . . خافت الفراشة ، وشعرت بالبرد ؛ لكنها تعزت عندما فكرت ان صديقتها في أمان على مخدع دافىء . . . لكننا نرى في الظلام طيوراً كبيرة تمر فوق المسرح بصمت . البرق يلمع . حيوانات شريرة كمنت تحت الحجارة وتسخر فيما هي تشير إلى الفراشة ، قائلةً : « لقد أصبحت في قبضتنا » . فيما تذهب التعيسة الحظ يمنة وشمالاً بعدما سيطر عليها الجزع ، طعنتها شوكة ألدواب طعنة سيف كبيرة ، وشق العقرب بطنها بملاقطه ، وعنكبوت كبير يكسوه الوبر

إقتلع ذيلاً من معطفها الأزرق الأملس ، وفي النهاية حطم خفاش بجناحه حقويها . وقعت الفراشة بعدما جرحت جرحاً مميتاً . . . وبينما هي تحشرج على العشب ، إبتهجت بنات النار وقالت الضفادع : « لقد قضي عليها كما يجب ! »

عند شروق الشمس ، وجد النحل الذاهب إلى عمله ، حاملاً الأكياس وقوارير الماء ، جثة بجانب الطريق . بالكاد نظر النمل إليها ، ثم ابتعدوا دون أن يدفنوها . فالنمل لا يعمل مقابل لا شيء . . . لحسن الحظ مرت جمعية من « نكروفوروس » في هذا المكان . وهم كما تعلمون حيوانات صغيرة سوداء نذرت نفسها لدفن الأموات فجرت الفراشة المتوفية نحو المقبرة . . . إحتشد في طريقهم جمع فضولي ، وابدى كل واحدٍ منهم تعليقات بصوت عالٍ . . . فصراصير الليل الصغيرة السمراء قالت بوقار وهي جالسة أمام ابواب منازلها تحت أشعة الشمس : « كانت تحب الأزهار كثيراً ! » ـ اضافت الحلازين : « كانت تتجول كثيراً في الليل ! » . والخنافس ذات البطن الكبير تمايلت بثيابها المذهبة وهي تهمهم قائلة : « كانت كثيرة التنقل ، بوهيمية ألطبع ! » . لم يلفظ اي واحد من تلك الجماعة كلمة تأسف واحدة على نية الميت المسكين ؛ فقط الزنابق الكبيرة أغلقت على نفسها والزيزان توقفت عن الغناء في السهول المجاورة .

المشهد الأخير يجري في مدفن الفراشات بعدما أنجز « النكروفوروس » مهمتهم ، إقترب جُعَل وقور من الحفرة ، بعدما

تبع الجنازة ، ثم استلقى على ظهره وبدأ بمدح المتوفية . لسوء الحظ خانته ذاكرته ، فبقي في مكانه مدة ساعة كاملة ، في الهواء ، مفرطاً في حركاته ، ومتلعثماً في عباراته. عندما فرغ الخطيب من كلامه ، إنسحب الجميع . حينئذٍ نرى في المدفن المقفر حبةالصيرة التي رأيناها في المشاهد الأولى ، خارجة من وراء قبر . جثت وهي تبكي ، على تراب الحفرة الرطب، وتلت صلاة مؤثرة على نية صديقتها المسكينة الصغيرة الموجودة في هذا المكان .

IX

ستبيع « البورسلين »

عند قراءة آخر بيت من قصيدتي، وقف جاك متحمساً ليهنئني بصوت مرتفع . لكن عندما رأى أولئك الأشخاص الصالحين مرتعبين ، لم ينطق بأية كلمة .

أعتقد في الحقيقة ، بأنه لو مر حصان الدينونة الناري فجأة وسط هذا البهو الصغير الأصفر ، لما أحدث ذهولاً كالذي أحدثته فراشتي الزرقاء . فآل « بساجون » وآل « فوجيرو » نظروا إليّ بعيون كبيرة مستديرة ، بعدما وقف شعر رأسهم مما سمعوه

لتوهم . الأخوان « فرويا » تبادلا إشارات معينة . لم يفه أحد ببنت شفةٍ . تخيلوا كم كنت منشرحاً . . .

فجأة ، وسط السكون والذهول الشاملين ، علا صوت ـ يا له من صوت ! ليس فيه حياة ، بارد ، ذو وتيرة واحدة ، شبيه بصوت الأشباح ، من خلف البيانو ، فأرتعشت لدى سماعه . تلك كانت أول مرة يتكلم فيها ، منذ عشر سنين ، الرجل الذي يشبه رأسه العصفور ، الموقر لالوات ذلك العجوز وهو يقضم بشراسة قطعة السكر :

ـ لقد فرحت بمقتل الفراشة . إني لا أحب الفراشات ! . . . ضحك الجميع وبدأوا بمناقشة قصيدتي .

العضو في نادي « الكافو » وجد قصيدتي مليئة بالإطناب ، ونصحني بالإيجاز لأحولها إلى أغنيتين أو ثلاث ، وهذا لون فرنسي الجنسية . تلميذ « ألفور » وهو عالم نباتات ، لفت نظري إلى أن حبات الصيرة لها أجنحة وهذه الملاحظة تلغي حقيقة حبكتي الروائية . و «فرويا» ، الأصغر سناً ، إدعى أنه قرأ كل ذلك في مكان ما . فقال لي جاك بصوت خافت : « لا تعر أقاويلهم أي اهتمام ، إن قصيدتك تحفة أدبية » لم يقل بياروت أي شيء وبدا كثير الإنشغال . يجوز أن هذا الرجل الصالح ، الجالس طول الوقت بجانب إبنته فيما أنا أقرأ ، قد شعر بيدٍ صغيرة سريعة الإنفعال ترتجف بين يديه ، أو لمح نظرةً شديدة السواد ومتأججة . في ذلك اليوم ، بدا بياروت غريباً جداً ـ أجل هذا ما أريد أن

أقوله ـ حتى إنه ، طيلة الأمسية ، بقي ملتصقاً بثوب ابنته ، فلم أتمكن من أن أقول ولو كلمة واحدة لسوداء العينين ، غادرتهم باكراً ، ورفضت أن اسمع أغنية عضو نادي « الكافو » ، الجديدة ، فلم يغفر لي الأخير ذلك الرفض .

بعد مرور يومين على تلك القراءة التي تستحق الذكر ، تسلمت من الآنسة بياروت ورقة موجزة جداً وبليغة تقول فيها : « إحضر حالاً ، أبي يعلم كل شيء» في أسفل الورقة وقعّت سوداء العينين العزيزة: «أحبك».

أعترف بأنني اضطربت قليلاً بعد سماعي ذلك الخبر المهم منذ يومين وأنا أحاول أن اتفق مع أحد أصحاب دور النشر بشأن مخطوطتي . إنشغلت بمصير قصيدتي أكثر مما فكرت بالعينين السوداوين . وفكرة وضع النقاط على الحروف مع بياروت ، هذا السفينولي الضخم ، لم تعجبني . . . لذا بقيت فترة من الزمن ، دون أن أرجع إلى هنالك .ورددت دوماً في نفسي ليكون ضميري مرتاحاً : سأذهب عندما أبيع قصيدتي . لسوء الحظ لم أبعها .

في ذلك الزمن ـ لا أدري إن كان هذا الوضع مازال قائماً ـ كان حضرة أصحاب دور النشر لطفاء جداً ، مهذبين جداً ، وسخاؤهم كان مفرطاً ، واستقبالهم حاراً ، لكن عندهم عيباً أساسياً : إنه من المستحيل إيجادهم لا في منازلهم ولا في عملهم : كما يوجد بعض النجوم التي لا تظهر إلا في منظار مرصد الكواكب

الكبيرة ، فإن أولئك السادة هم غير منظورين أمام الناس . إن أتيت في أي وقت كان ، يقال لك أن تعود مرة ثانية .

يا إلهي ! كم مررت بمخازن ! وكم فتحت أبواباً ذات زجاج ! وكم من مرة توقفت أمام واجهات المكتبات ، أقول في نفسي فيما يخفق قلبي : « أدخل ؟ لا أدخل ؟ » . في الداخل الجو حار ، ورائحة الكتب الجديدة عابقة . إلتقيت في تلك الأمكنة بالعديد من الرجال القصيري القامة ، الصلع ، مشاغلهم كثيرة ، يجيبون من أعلى سلم مزدوج موضوع وراء طاولة كبيرة أما الناشر فهو غير مرئي . . . كل مساء أرجع إلى المنزل حزيناً ، تعباً ، وواهناً . فيقول لي جاك : « تشجع ! ستسعد غداً . » وفي اليوم التالي ، أقوم بجولتي مجدداًمزوداً بمخطوطتي ! شعرت ، يوماً بعد يوم ، بأن تلك المخطوطة قد نقلت وأصبحت مزعجة . في بادىء الأمر حملتها تحت إبطي بفخر ، كأنها مظلة جديدة ؛ لكن في النهاية ، خجلت من الظهور بها فوضعتها على صدري وتحت سترتي المزررة بعناية فائقة .

قضيت ثمانية أيام على هذا النحو . حل نهار الأحد . وذهب جاك كعادته لتناول العشاء عند بياروت ؛ لكنه ذهب بمفرده . إن ملاحقتي للنجوم غير المرئية أنهكتني . فبقيت مستلقياً على فراشي طول النهار . . . عندما عاد جاك في المساء ، جلس على حافة سريري وأنبني بلطف قائلاً : « إسمع يا دانيال ، ، إنك تخطىء في عدم الذهاب إلى هنالك . فسوداء العينين تبكي وتشعر

بالأسى ، وتذوي لأنها لا تراك . . . . تكلمنا عنك طيلة السهرة . . . . آه ! أيها اللص ، كم هي تحبك ! » .

إغرورقت عينا الأم جاك المسكين بالدموع وهو يقول ذلك . فسألته بخجل :

ـ ما هو رأي بياروت في الأمر ؟ . . . . ماذا يقول ؟

ـ لا شيء . . . بدا مندهشاً لعدم رؤ يتك . . . يجب أن تذهب إليها يا عزيزي دانيال ؛ ستذهب ، أليس كذلك ؟

ـ سأذهب غداً يا جاك ، أعدك بذلك .

فيما نحن نتحدث ، بدأت « كوكو بلان » ، التي رجعت لتوها ، أغنيتها التي لا نهاية لها . . . . « تولوكوتوتينيان ! تولوكوتوتينيان ! » . . . . فضحك جاك وقال لي بصوت خافت : « اتعرف ان سوداء العينين تغار من جارتنا ؟ هي تعتقد أنها منافستها . . . حاولت جاهداً أن أفهمها حقيقة الأمر ، فلم تصدقني . . . إن سوداء العينين تغار من « كوكو بلان » ! مضحك ، أليس كذلك ؟ » تظاهرت بالضحك مثله ، ولكن في قرارة نفسي خجلت ، لأن الذنب ذنبي ، فقد دفعت بسوداء العينين إلى الشعور بالغيرة من «كوكو بلان» .

في اليوم التالي ، وخلال فترة بعد الظهر ، ذهبت إلى ممر « سومون » أردت أن أصعد مباشرة إلى الطابق الرابع لأكلم سوداء العينين قبل ان أرى بياروت ، لكن «السفينولي»ترقب وصولي أمام باب الممر ، فلم أستطع تجنبه . اضطررت ان ادخل إلى المخزن ،

وان اجلس قربه وراء الطاولة الكبيرة . نسمع من وقت إلى آخر عزف مزمار ناعمًا ، مصدره الغرفة الخلفية من المخزن . قال لي « السفينولي » بثبات وبسهولة في النطق لم أعهدهما فيه من قبل :

ـ يا سيد دانيال ، ما اريد ان اعرفه منك سهل للغاية ، سأتطرق مباشرة إلى الموضوع . الوضع هو كالآتي : الصغيرة تحبك حباً صادقاً . . . . هل تحبها انت ايضاً بصدق ؟

ـ احبها من قلبي يا سيد بياروت .

ـ تجري الأمور اذاً كما يجب . سأقدم لك اقتراحاً . . . . ما زلت صغيراً وابنتي ايضاً صغيرة لتفكرا في الزواج قبل ثلاث سنوات . إذاً أمامك ثلاث سنوات لتشغل منصباً لائقاً . . . لا اعلم ان كنت مصممًا على المضي في نظم الشعر ؛ لكني اعلم جيداً ما أفعله لو كنت مكانك . . . اجل هذا ما أريد ان اقوله : التخلّ عن حكاياتي الشعرية ، أعمل في تجارة لالوات القديمة ، أتعلم اسرار تجارة « البورسلين » وعندما يصبح بياروت عجوزاً ، اكون قد قمت بما هو ضروري ليأخذني بياروت كشريك له ، ويزوجني ابنته في الوقت نفسه . . ما قولك أيها الشريك ؟

حينئذٍ ضربني بياروت بمرفقه وبقوة ، ثم ضحك بشدة . . . ان المسكين مقتنع تماماً بأنه يغدق عليّ السعادة لأنه عرض عليّ بيع البورسلين الى جانبه . لم اجرؤ ان اغضب أو حتى ان أجيب ؛ لقد فقدت كل بادرة . . .

فالصحون والكؤوس المزخرفة والبلور المصنوع من المرمر الابيض ، رقصت كلها من حولي . رعاة وراعيات من الرخام ، وضعوا على رفّ ، قُبالة الطاولة الكبيرة ، نظروا إلّي بسخرية ، رافعين عُصيّهم ، كأنهم يقولون لي : « ستبيع البورسلين » ! . بعد أولئك الرعاة ، هزّ القرود الصينيون ، الذين يرتدون ثياباً بنفسجية ، رؤوسهم الموقرة ، كأنها تؤيد ما قاله الرعاة : « اجل . . . أجل . . . ستبيع البورسلين ! » . وهنالك في القصاء صفّر المزمار الساحر والمرائي بهدوء « ستبيع . . . ستبيع البورسلين » كل ذلك كاد ان يدفع بي الى الجنون . . .

ظن بياروت ان التأثر الشديد والفرح منعاني من النطق . فقال لي لكي أسترد أنفاسي : « سنبحث الأمر في المساء . . . والآن أصعد لترى الصغيرة . . . أريد ان اقول أنها في غاية الشوق الى رؤيتك » .

صعدت لأرى الصغيرة ، فوجدتها في البهو الأصفر ، تطرز البابوج كعادتها بمعية السيدة ذات الشأن الكبير . . . فلتسامحني عزيزتي كميل ! ففي ذلك اليوم بدت الآنسة بياروت على حقيقتها . لقد اغضبتني ، اكثر من أي يوم مضى ، بطريقتها الهادئة في سحب الأبرة ، وعدّ الغرزات بصوت عالٍ . بأصابعها الصغيرة الحمراء ، وخدّها المورّد ، وهدوئها ، بدت كإحدى تلك الراعيات المصنوعات من الرخام الملوّن واللواتي صرخن في وجهي منذ قليل بوقاحة ما بعدها وقاحة : « ستبيع البورسلين ! » لحسن

الحظ ، كانت سوداء العينين ، بدورها حاضرة ، وقد غطتها غشاوة رقيقة ، وأصطبغت بحزن خفيف ، لكنها فرحت كالأطفال عند لقائي ، فتأثرت كثيراً ، لم يدُم ذلك طويلاً . فقد دخل بياروت بعدي مباشرة . لا شك انه لم يعدُ يثق بالسيدة ذات الشأن الكبير .

منذ تلك اللحظة اختفت سوداء العينين ، وحلّ مكانها البورسلين ، كان بياروت مرحاً جداً وشديد الثرثرة ، لا يُحتمل ، فجملته المعهودة : « هذا ما أريد ان اقوله » جاء وقعها اعنف من المطر المصحوب بالبرد . تناولنا العشاء ، الذي طال اكثر من اللزوم في جو مُضجّ . . . عندما غادرنا الطاولة ، اخذني بياروت على انفراد ليُذكرني بأقتراحه ، كنت قد افقت من ذهولي ، فقلت له ببرود أن هذا العرض يتطلب تفكيراً عميقاً ، وإني سأعطيه جوابي بعد شهر .

أدهشه كثيراً موقفي الفاتر ، من هذا العرض المُغري ، لكنه حسناً فعل عندما اخفى ردة فعله فقال لي :

ـ اتفقنا ، ستعطيني جوابك بعد شهر .

بعد ذلك لم نعد نتكلم في هذا الموضوع . . . لا يُهم ! ما حصل قد حصل . فخلال الأمسية دوّن في أذني باستمرار تلك الجملة المشؤومة والمحتومة « ستبيع البورسلين » . سمعتها عندما دخل الرجل الذي يشبه رأسه رأس العصفور مع السيدة لالوات ، وهو يقضم السكر ، ثم جلس الى جانب البيانو .

سمعتها أيضاً في نغمات عازف المزمار ذات الوتيرة الواحدة ، وفي « تخيلات الروزلان » التي لم تتوان الآنسة بياروت عن عزفها . قرأتها في حركات تلك الدمى في حركـات البورجـوازية ، في تفصيلة ثيابها ، في رسم اللوحات المطرزة ، وفي رمز الساعـة الكبيرة ـ فينوس تقطف وردة يخرج منها شخص صغير ، فقد التذهيب ، يمثل الحب ، ـ وقرأت تلك الجملة أيضاً في شكل قطع الأثاث ، وفي أدق تفاصيل هذا البهو الأصفر البشع ، وحيث يقول الاشخاص انفسهم كل مساء الأشياء نفسها ، وحيث البيانو نفسه يعزف كل مساء التخيّلات نفسها ، فتلك الأمسيات المتشابهة تُظهر هذا البهو كمشهد موسيقي . تحوّل البهو الأصفر إلى مشهد موسيقي ! . . . أين تختبئين إذن يا سوداء العينين ؟ . . .

عند عودتي من تلك السهرة المُمِلّة ، اختبرت أمي جاك عن إقتراحات بياروت ، فكان غضبه أكبر من غضبي ، وقال ، بعدما أحمرّ من الغيظ :

ـ دانيال أيسات بائع بورسلين ! . . . . لا أصدّق ما أسمع ! كأن يُقترح على لامارتين بيع عُلَبْ الكبريت ، وعلى سانت بوف بيع المكانس . . . يا لك من عجوز معتوه يا بياروت ! . . . لكن لا يجب أن تحقد عليه ، فهذا المسكين لا يعرف أكثر من ذلك . سيغيرّ رأيه حتمًا ، عندما سيرى نجاح كتابك ، ويقرأ الصُحُف التي تتكلّم عنك.

ـ دون شك يا جاك . لكن كي تتكلم الصُحفْ عني ، يجب

أن يُنشَرْ كتابي ، ولاحظت أنه لن يُنشر أبداً . . . تسأل لماذا ؟ . . . لأني يا عزيزي لم أحْظَ بناشر واحد ، وأولئك الأشخاص لا يعيرون الشعراء أهميةً . « فبغفات » الكبير نفسه مضطرٌّ لنشر أشعاره على حسابه .

قال جاك بعدما ضرب الطاولة بقبضة يده :

ـ حسناً ! سنفعل مثله ونطبع على حسابنا .

نظرت إليه مذهولاً :

ـ على حسابنا الخاص . . .

ـ أجل ، يا صغيري ، على حسابنا الخاص . . . فالمركيز يطبع حالياً أول جزء من مذكّراته . أرى كل يوم صاحب المطبعة الذي يهتم بذلك . انه من «الألزاس» ، يبدو طيّب القلب وأنفه أحمر . أنا متأكد من أنه سيقبل ان ندفع له ما يتوجّب علينا بالتقسيط . . . اللعنة ! سندفع له كلّما بعنا نسخة جديدة . . . هيا ! لقد سوّيت الأمر ، منذ الغد سأكلّم صاحب المطبعة .

وبالفعل ، تكلم جاك في اليوم التالي مع صاحب المطبعة وأحرز نتيجة غير متوقعة . فقال لي بنبرة تنمّ عن الإنتصار : « لقد نظمت كل شيء . غداً يُعدُّ كتابك للطباعة ، وسيكلفنا تسعمئة فرنك ، مبلغ زهيد كما ترى . سأوقع على سندات قيمة كل واحد منها ثلاثمئة فرنك ، وأسدّدها في ثلاث دفعات ، أي كل ثلاثة أشهر أسدّد سنداً . والآن انتبه الى تحليلي . سنطبع ألف طبعة ، ونبيع كل واحدة منها بثلاثة فرنكات . سنربح إذن من مبيع

كتابك ثلاثة آلاف فرنك . . . أتسمعني ، ثلاثة آلاف فرنك ! عندئذٍ ندفع لصاحب المطبعة ، وسندفع ايضاً فرنكاً واحداً عن كل نسخة الى بائعي الكتب الذين سيبيعون ، إنتاجك الأدبي ، ونرسل نسخاً الى الصحافيين . يبقى لنا ربح واضح كوضوح الشمس ، مقداره ألف ومئة فرنك . ما رأيك ؟ بداية حسنة ، أليس كذلك ؟ . . . » .

إني مقتنع تماماً بأنها بداية حسنة ! . . . لقد انقضت أيام الجري وراء المستحيل ، والإنتظار المهين على أبواب بائعي الكتب ، وعلاوةً على ذلك سنضع جانباً ألفاً ومئة فرنك لإعادة بناء المنزل العائلي . . . في ذلك اليوم عمّت الفرحة برج أجراس «سان جرمان» . كم قمنا بمشاريع وكم سرحنا في الأحلام ! . وفي الأيام التالية ، رشفنا نقطة نقطة أفراحاً صغيرة : كالذهاب الى المطبعة ، تصحيح مسودّة الطبع ، البحث في لون الغلاف ، رؤية الورق وهو يخرج رطباً من ملزمة الطبع وقد طُبعت عليه أفكاري ، الذهاب مرتين أو ثلاث عند ضابر أوراق الكتب ، والرجوع أخيراً بالنسخة الأولى ، افتحها برؤوس أصابعي وأنا ارتجف . . . بربّكم ! أيوجد لذّة في العالم تُعادل تلك اللذّة !

النسخة الأولى من «المسرحية الرعائية» هي من حق سوداء العينين حملتها إليها في المساء نفسه ، وقد اصطحبني « الأم جاك » الذي أراد ان يتمتع بانتصاري . دخلنا الى البهو الأصفر فخورين ومشرقين . الجميع كانوا موجودين . فقلت للسفينولي :

ـ يا سيد بياروت اسمح لي بأن أقدم إنتاجي الأدبي الأول إلى كميل .

ووضعت كتابي في يدٍ صغيرة عزيزة ترتجف سروراً . أوه ! لو رأيتم الشكر الذي أرسلته « سوداء العينين » التي تلألأت وهي تقرأ إسمي على الغلاف . أما بياروت فكان أقل حماسة . سمعته يستوضح جاك عن الأرباح التي يجنيها كتاب مماثل . أجابه جاك بثقة :

ـ ألف ومئة فرنك .

عندئذٍ تحدّثا مطولاً بصوت خافت ، لكني لم أسمعهما . إستمتعت برؤية سوداء العينين وهي تحني رموشها الطويلة الحريرية على صفحات كتابي ، ثم ترفعها نحوي بإعجاب . . . كتابي ! وسوداء العينين ! ـ أدين بهما إلى أمي جاك . . .

ذلك المساء ، وقبل ان نعود الى غرفتنا ، ذهبنا للتجوّل في أروقة « الأوديون » لنرى الأنطباع الذي تركته « المسرحية الرعائية » المعروضة على رفوف باعة الكتب . قال لي جاك :

ـ إنتظرني ، سأرى كم نسخة بِيْعَتْ .

انتظرته وأنا أتمشى طولاً وعرضاً ، وأنظر بطرف عيني الى غلاف أخضر ذي خطوط سوداء يزهو وسط الواجهة . ووافاني جاك بعد قليل ، وبدا شاحباً من شدة التأثر . فقال لي :

ـ لقد بيعت نسخة يا عزيزي فذلك فأل خير . . .

صافحته بصمت . لم أقو على الكلام من فرط تأثري . لكني

قلت في نفسي : « هنالك شخص في باريس قد سحب لتوّه من كيسه ثلاثة فرنكات ليشتري إنتاج عقلك شخص يقرؤك ويحكم على عملك . . . من هو هذا الشخص ؟ أودّ أن أتعرف عليه . . . للأسف ! ولسوء حظي قُدِّر لي أن أتعرف بسرعة على ذلك الشخص الرهيب .

في اليوم الذي تلا ظهور كتابي ، كنت أتناول الغداء الى طاولة الضيوف بجانب المفكرِّ المتوحِّش ، عندما دخل جاك بسرعة الى القاعة لاهثاً ، فقال لي بعدما أخذني الى الخارج :

ـ مفاجأة كبرى ! سأذهب الساعة السابعة من هذا المساء مع المركيز الى نيس لرؤية أخته المحتضرة. . . ربما سنمكث هنالك طويلاً . . . لا تقلق بشأن معيشتك . . . سيُضاعف المركيز راتبي . أرسل لك مئة فرنك في الشهر . . . لكن ، ما بك ؟ أنت شاحب ؟ هيا يا دانيال ! لا تتصرف كالأطفال . عُدْ الى الداخل ، اكمل غداءك وأشرب نصف زجاجة من النبيذ لترفع معنوياتك . أما أنا ، فأسرع لأودّع بياروت ولأعلم صاحب المطبعة بذهابي ، ثم سأوزع بعض النسخ على الصحافيين . . . ليس عندي وقت لأضيعه . . . ملتقانا الساعة الخامسة في المنزل .

نظرت إليه وهو يجتاز بخطى كبيرة شارع « سان بونوا » ، ثم دخلت من جديد الى المطعم . لكني لم آكل ولم أشرب شيئاً ، والمفكرّ هو الذي أفرغ نصف زجاجة النبيذ . لقد انقبض قلبي عندما فكّرت أن « أمي جاك » سيكون بعيداً عني بعد بضع

ساعات . حاولت أن أفكر في كتابي وفي سوداء العينين ، لكني لم استطع أن أنزع من رأسي تلك فكرة أن جاك سيذهب وسأبقى وحيداً ، وحيداً كلياً في باريس ، سيّد نفسي ومسؤولاً عن جميع تحرّكاتي .

وافاني في الساعة المحدّدة ، رغم انه كان هو ايضاً متأثراً جداً ، فقد تظاهر بالسرور حتى آخر لحظة ، حتى آخر لحظة كذلك ، أظهر لي عِزّة نفسه ، وجهده الرائع الذي يبذله ليحبني . فهو لا يفكرّ سوى بي وبراحتي وبحياتي . إتخذ من حزم حقيبته حجة ليدقِّق في ثيابي وفي قمصاني . ثم قال لي :

ـ قمصانك هي في تلك الزاوية ، أتراها ، ومحارمك يا دانيال موضوعة جانباً وراء ربطات العنق .

فقلت له :

ـ إنك لا تحزم حقيبتك يا جاك ، بل تهتم بخزانتي . .

عندما انتهى من ترتيب الخزانة والحقيبة ، جئنا بعربة وذهبنا إلى المحطة . في الطريق ، أعطاني جاك توصياته الأخيرة :

ـ اكتب لي غالباً . . . إرسل لي جميع المقالات التي تصدر عن كتابك ، خصوصاً تعليق غوستاف بلانس ؛ لأني سألصقها على دفتر كرتوني الغلاف أصنعه بنفسي . وسيكون هذا الدفتر بمثابة كتاب ذهبي لعائلة ايسات . . . على فكرة ، انت تعلم أن الغسالة تأتي نهار الثلثاء . . . لكن لا تدع النجاح يبهرك . . . من الواضح انك ستحظى بنجاح كبير ، والشهرة في باريس خطرة للغاية .

لحسن الحظ ستكون كميل بجانبك لتبعدك عن التجارب . . . ما أطلبه منك يا عزيزي دانيال ، هو ان تذهب دائماً الى هناك وأن لا تبكي العينين السوداوين .

مررنا في تلك اللحظة أمام حديقة النباتات فضحك جاك وقال لي :

ـ هل تتذكر أننا مررنا في هذا المكان ذات ليلة ، منذ أربعة أو خمسة أشهر ؟ . . . كم ان الفرق شاسع بين دانيال السابق ودانيال الحاضر . . . آه ! لقد تحسنت كثيراً خلال أربعة أشهر ! . . .

كان جاك الطيب مقتنعاً تماماً بأنني أحرزت تقدماً كبيراً ، وانا ايضاً اقتنعت بذلك ، يا لي من مسكين !

وصلنا الى المحطة ووجدنا المركيز في انتظارنا . رأيت من بعيد ذلك الرجل الصغير المضحك برأسه الشبيه بقنفذ ابيض ، وهو يروح ويجيء في قاعة الانتظار ، فقال لي جاك :

ـ اسرع ، اسرع ، وداعاً !

ثم قبلّني بكل قواه ثلاث أو أربع مرات ، بعدما أخذ رأسي بيديه الكبيرتين ، ثم ركض ليوافي جلاده

احسست بشعور غريب ، عندما رأيته يبتعد

فجأة وجدت نفسي أقصر ، أشد تحولاً ، أكثر خجولاً ، وأصغر سنّاً ، كأن أخي في رحيله قد اخذ معه نخاع عظامي ، وقوتي ، وجرأتي ونصف قامتي . فالجموع التي تحيط بي اخافتني . عدّت من جديد « الشيء الصغير » .

حلَّ الليل . رجع « الشيء الصغير » الى برجه على مهل ، بعدما سلك أطول طريق ، وبعدما مرّ على الأرصفة المقفرة . ففكرة الرجوع الى تلك الغرفة الخالية أحزنته بقوة . أراد ان يبقى خارجاً حتى طلوع الفجر . لكن من الضروري ان يعود .

عندما مرّ أمام مقصورة البوّاب، ناداه هذا قائلاً :

ـ يا سيد أيسات عندي لك رسالة ! . . .

كانت ورقة صغيرة ، انيقة ، معطرة وناعمة، كُتب عليها بخط أنثوي أنعم وأرشق من خط سوداء العينين . . . من المرسل يا تُرى ؟ . . . فتح « الشيء الصغير » الرسالة بسرعة ، وقرأها على السلم تحت ضوء القنديل :

« حضرة الجار

إن « المسرحية الرعائية » هي على طاولتي منذ البارحة . لكن ينقصها الاهداء . فتكرّم بالمجيء هذا المساء لوضعه بينها نتناول فنجاناً من الشاي . . . انت تعرف كيف تجري الأمور بين الفنانين

ايرما بوريل »

وكتب في أسفل الورقة :

« سيدة الطابق الأول »

سيدة الطابق الأول ! . . . عندما قرأ « الشيء الصغير » ذلك

الامضاء ، انتابته قُشعريرة كبيرة اجتاحت جسده بكامله . فتخيّلها كما ظهرت له ذات صباح ، وهي تنزل السلّم ، تتمايل وسط فستانها المخمليّ ، جميلة ، باردة ، وقورة ، في تلك النِدْبة الصغيرة البيضاء على طرف شفتها . عندما فكّر في أن امرأة مثلها قد اشترت كتابه ، قفز قلبه غروراً .

بقي في مكانه فترة على السلّم ورسالته في يده ، لا يعرف ان كان عليه ان يصعد الى غرفته ، أو يتوقف في الطابق الأول . فجأة تذكر توصية جاك : « خصوصاً يا دانيال لا تبكِ العينين السوداوين » . حدْس خفي حذره من الذهاب عند سيدة الطابق الأول ، لأن سوداء العينين ستبكي ، وذلك سيحزن جاك . حينئذٍ وضع « الشيء الصغير » الرسالة بحزم في جيبه وقال في نفسه : « لن أذهب » .

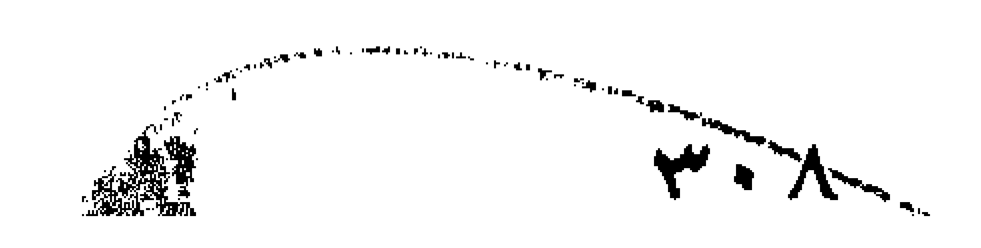
X

أيرما بوريل

فتحت له الباب « كوكو بلان » - هل من الضروري أن أوضح لكم ما يجري ! فذاك « الشيء الصغير » المزهو بنفسه ، ذهب عند ايرما بوريل بعدما أقسم لخمس دقائق خلت ، انه لن يذهب - عندما رأته الزنجية المرعبة ، ارتسمت على شفتيها بسمة

مفترسة ومرحة ، ثم اشارت له بيدها الكبيرة البراقة والسوداء قائلة : « ادخل ! » . بعدما مرا بغرفتين او ثلاث غرف استقبال فخمة جداً ، توقفا امام باب صغير غامض ، تسمع من خلاله صرخات حادة ، شهيق ، لعنات ، وضحكات مرتعشة طمست معظمها الأقمشة السميكة التي تغطي الجدران . قرعت الزنجية الباب ، ثم ادخلت « الشيء الصغير » قبل ان تحصل على الجواب . وجد إيرما بوريل وحدها . كانت في مخدع أنيق تشع فيه الأنوار ، وكست جدرانه أقمشة من الحرير البنفسجي ، تمشي بخطى كبيرة وهي تنشد . ترتدي مئزراً واسعاً أزرق بلون السماء ، يكسوه قماش مطرز ، ويطفو حولها كالسحاب . احد أكمام المئزر رفع حتى الكتف ، فظهرت ذراع ناصعة البياض وذات نقاء لا يضاهى . كانت يد ايرما بوريل تحمل مقصاً للورق عاجياً وكأنه خنجر . أما اليد الأخرى ، التي غرقت في القماش المطرز ، فقد حملت كتاباً مفتوحاً . . .

توقف « الشيء الصغير » مذهولاً . لم تبد له يوماً سيدة الطابق الأول جميلة كهذا اليوم . فهي أقل شحوباً مما كانت عليه في اللقاء الأول . بل بالعكس فقد بدت نضرة ووردية اللون ، لكن ذاك التورد كان باهتاً . في ذلك اليوم بدت جميلة كزهرة اللوز ، والندبة الصغيرة البيضاء على طرف شفتها ازدادت بياضاً . وشعرها ، الذي لم يتمكن من رؤيته في المرة الأولى ، زادها جمالاً ، لأنه خفف من حدة التعجرف والقساوة اللذين



ينضح بهما وجهها . فشعرها أشقر ، رصاصي كالغبار ، ناعم ، يحيط برأسها كهالة ذهبية .

توقفت السيدة عن التلاوة عندما رأت « الشيء الصغير » . فألقت على أريكة خلفها سكينها العاجي وكتابها ، ثم انزلت بحركة رائعة كم مئزرها ، واقبلت نحو زائرها ومدت له يدها ببساطة ثم قالت له بعدما ابتسمت بلطف .

ـ صباح الخير يا جاري ! انك تضبطني وانا في عز حماستي المأساوية ! اني اتعلم دور «كليتمنستر» . . . انه مؤثر اليس كذلك ؟

ثم اقعدته بجانبها على أريكة وبدأ حديثهما :

ـ هل تهتمين بالفن المسرحي يا سيدتي ؟ (لم يجرؤ ان يقول « يا جارتي »)

ـأوه ! طريقة لتمضية الوقت . . . اهتممت ايضاً بالنحت وبـالموسيقى . . . لكن هـذه المرة ، اعتقـد أنني أغـرمت بالتمثيل . . . وسأبدأ العمل في « الكوميدي فرانسيز » . تلك اللحظة ، حط طائر ضخم ، اصفر ، على رأس «الشيء الصغير» محدثاً ضجة كبيرة بجناحيه . قالت لي السيدة ضاحكة ، بعدما رأتني مشدوهاً :

ـ لا تخف من هذا « الكاكاتواس » . . . فهو حيوان طيب جلبته من « جزر المركيز » .

اخذت العصفور ، لاطفته ، قالت له كلمتين بالاسبانية ، ثم

أرجعته إلى مجثمه الذهبي في الطرف المقابل من البهو . . . لم يصدق « الشيء الصغير » ما رأته عيناه . الزنجية ، الكاكاتواس ، الكوميدي فرانسيز ، وجزر المركيز . . . فقال في نفسه باعجاب : « يا لها من إمرأة غريبة ! » .

جلست السيدة من جديد بجانبه فتابعا حديثهما . أول الأمر كان مجمل الحديث عن « المسرحية الرعائية » . لقد قرأتها السيدة واعادت قراءتها مراراً منذ البارحة . لقد حفظت منها أبياتاً عن ظهر قلب وأنشدتها بحماسة . مما زاد من اعجاب « الشيء الصغير » بنفسه . أرادت أن تعرف عمره ، مسقط رأسه ، كيف يعيش ، ان كان يسافر ، وهل هو عاشق . . . أجاب ببراءة كلية عن تلك الاسئلة . حتى انه بعد مرور ساعة اصبحت سيدة الطابق الأول تعرف كل شيء عن « الأم جاك » ، عن قصة آل « ايسات » ، وذلك المنزل المسكين الذي اقسم الاولاد على اعادة بنائه . لكنه لم ينطق ببنت شفة عن الآنسة بياروت . تحدث فقط عن آنسة فتية من المجتمع المخملي تهيم بحب « الشيء الصغير » ، لكن والدها البربري يشكل عائقاً امام حبهما ـ مسكين بياروت ! ـ في منتصف تلك المناجاة دخل شخص إلى البهو ـ انه نحات مسن ذو ذؤابة بيضاء ، وقد اعطى دروساً للسيدة عندما كانت تنحت . فقال لها بصوت هامس وهو ينظر إلى « الشيء الصغير » نظرة خبيثة :

ـ اراهن انه بائع العقيق النبوليتاني .

فقالت ضاحكة :

ـ تماماً .

ثم استدارت نحو بائع العقيق الذي بدا مدهوشاً جداً لانه دعي بذلك الاسم . فقالت له :

ـ ألا تتذكر ذلك الصباح الذي التقينا فيه ؟ . . . كنت ذاهباً وعنقك مكشوف ، قميصك مفتوح ، شعرك غير مسرح ، وإبريق الطين في يدك . . . خيل إليّ أني أرى احد صيادي العقيق الحديثي السن الذي نلتقي بهم في خليج نابولي . . . في المساء حدثت أصدقائي عنك ؛ لكننا لم نتصور يوماً أن صياد العقيق الصغير هو شاعر كبير ، وان في قعر ذلك الإبريق هناك « المسرحية الرعائية » .

سر « الشيء الصغير » كثيراً عندما سمعها تتحدث عنه باعجاب وتقدير . وفيما هو ينحني ويبتسم بتواضع ، ادخلت كوكو بلان زائراً جديداً ، لم يكن سوى « بغفات » الكبير ، شاعر طاولة الضيوف الهندي . عندما دخل ، توجه « بغفات » مباشرة نحو السيدة واعطاها كتاباً اخضر الغلاف قائلاً :

ـ أعيد اليك فراشاتك . يا له من أدب سخيف ومضحك ! . . .

لكنه توقف عن الكلام على حركة من السيدة . ففهم ان كاتب تلك القصة موجود في هذا المكان ونظر باتجاهه بعدما ابتسم بتكلف . مرت فترة الصمت والانزعاج خفف من وطأتها وصول

شخص ثالث، وهو أستاذ الإلقاء انه بشع ، قصير ومحدودب ، شاحب الوجه يضع شعراً مستعاراً أحمر ، يضحك فيكشف عن أسنان معفنة . انه لولا حدبته ، لكان اعظم ممثل في عصره ، لكن علته لم يبدو تمكنه من الصعود على المسرح ، فعزى نفسه بتعليم التمثيل وبذم جميع ممثلي العصر . فور وصوله صرخت به السيدة :

ـ هل رأيت الاسرائيلية ؟ كيف مثلت هذا المساء؟

الإسرائيلية هي الممثلة الكبيرة « راشيل » . كانت حينذاك في أوج مجدها . قال الأستاذ وهو يهز كتفيه :

ـ تمثيلها أصبح سيئاً للغاية . . . لا تملك موهبة كافية . . . فهي بلهاء ، بلهاء عن حق .

أضافت التلميذة :

ـ انها بلهاء كلية .

فردد وراءها الاثنان الآخران باقتناع :

ـانها بلهاء . . .

بعد قليل طلبوا من السيدة ان تسمعهم شيئاً .

لبت طلبهم بسرعة ؛ فوقفت واخذت مقص الورق العاجي ، رفعت كم مئذرها ، ثم بدأت بتلاوة دورها .

اكانت تلاوتها جيدة ام رديئة ؟ لم يكن في امكان « الشيء الصغير » الاجابة عن ذلك السؤال . لقد أدهشته تلك الذراع الجميلة ، والناصعة البياض ، وسحره ذلك الشعر الذهبي الذي يهتز بقوة ، فاكتفى بالنظر اليها دون أن يستمع إلى أقوالها . عندما

انتهت السيدة ، ضعف هو اكثر من الجميع ، وصرح بدوره ، بأن راشيل ليست سوى فتاة خرقاء ، خرقاء عن حق .

أمضى ليلته وهو يحلم بتلك الذراع الناصعة البياض ، وبتلك الذؤابة المذهبة . عندما أراد ان ينظم الشعر ، خلال النهار ، شدته تلك الذراع من جديد بكمه .

حينما عجز عن كتابة الشعر ، وبما أنه قد أبى أن يخرج بدأ بكتابة رسالة إلى جاك ، واخبره عن سيدة الطابق الأول : « آه يا صديقي ! انها امرأة رائعة ! تعلم كل شيء ، وتعرف كل شيء . ألفت قطعاً موسيقية ، ورسمت لوحات . على مدخنتها يمامة جميلة من الطين نحتتها بنفسها . تمثل منذ ثلاثة اشهر أدواراً مسرحية ، أصبحت أفضل من راشيل العظيمة ـ يظهر بوضوح أن راشيل ليست سوى بلهاء . ـ انها يا عزيزي امرأة لم تحلم بمثلها يوماً . لقد رأت كل شيء وزارت كل الأمكنة . تقول لك فجأة : « حينما كنت في « سان بترسبورغ » . . . ثم بعد قليل تعلمك أنها تفضل خليج « الريو » على خليج « نابولي » . لديها كاكاتواس جلبته من جزر المركيز ، وزنجية اتت بها حينما مرت بـ « بوراوبرنس » . . . على فكرة ، انت تعرف الزنجية التي تعمل عندها ، فهي جارتنا « كوكو بلان » . رغم مظهرها المتوحش ، « كوكو بلان » فتاة ممتازة ، هادئة ، متحفظة ، مخلصة ، ولا تتكلم إلا لغة الأمثال ، مثل سانسو الطيب . عندما يريد سكان المبنى ان يرغموها على التكلم عن معلمتها ، كأن يعرفوا ان كانت

متزوجة ، وان كان السيد «بوريل» موجوداً في مكان ما ، وان هي شديدة الثراء كما يقال ، تجيب كوكو بلان بلغتها الإفريقية : « زفيه كبريت با زفيه موتون » (إن مشاغل الجدي ليست كمشاغل الخروف) أو تقول أن الحذاء وحده يعلم ان كانت الجوارب ممزقة . لديها مئات من الحكم المماثلة ، والفضوليون لا يرضون ابداً فضولهم معها . . . على فكرة ، هل تعرف بمن التقيت عند سيدة الطابق الأول ؟ . . . التقيت بشاعر طاولة الضيوف الهندي ، اي « بغفات » الكبير نفسه يبدو أنه مغرم بها ، وينظم لها قصائد جميلة يشببها فيها تباعاً بالرخ ، بشجرة النبق أو بالجاموس ؛ لكن السيدة لا تعير تلك التشريفات اهتماماً بالغاً . على كل حال فهي قد اعتادت المديح : كل الفنانين الذين يأتون إلى منزلها ـ وأؤكد لك أنهم كثر وذو شأن ـ مغرمون بها .

هي جميلة جداً ، وجمالها فوق العادة ! . . . في الحقيقة كان من الممكن ان اخشى على قلبي منها لو لم يكن مغرماً. لحسن الحظ ان سوداء العينين هنا لتدافع عني. . . يا سوداء العينين العزيزة! سأمضي سهرتي معها اليوم، وسنتكلم عنك طول الوقت يا «أمي جاك».

كاد أن ينتهي « الشيء الصغير » من كتابة الرسالة ، عندما قرع الباب بلطف . تلك كانت خادمة سيدة الطابق الأول ، وقد حملت له من سيدتها بطاقة دعوة إلى الكوميدي فرانسيز ليستمع ، من مقصورتها ، إلى البلهاء . كان من الممكن ان يلبي الدعوة

بكل طيبة خاطر ، لكنه فكر أنه لا يملك بذلة لائقة ، فاضطر أن يرفض . فأغضبه ذلك . ثم قال في نفسه : « كان على جاك أن يخيط لي بذلة . . . فهذا ضروري جداً . . . عندما ستظهر المقالات بشأني ، سأضطر إلى مواجهة الصحافيين لأشكرهم . . . ما العمل وأنا لا أملك بذلة لائقة ؟ . . . » في المساء ذهب إلى ممر « سومون » لكن تلك الزيارة لم تفرحه . فالسفينولي يضحك بصوت عالٍ . والآنسة بياروت لونها قاتم جداً وسوداء العينين عملت وسعها لتلفت انتباهه ، وقالت له مراراً بنعومة : « أحبني ! » بلغة النجوم المتصوفة ، لكن الجاحد قد صم أذنيه . عندما وصل آل لالوات بعد العشاء ، جلس في زاوية حزيناً وعبوساً ، وراح يتخيل إيرما بوريل وهي تتصدر مقصورة مكشوفة وذراعها الناصعة البياض تحرك مروحة ، وهالتها الذهبية تتلألأ تحت أضواء القاعة . فكر : « سأخجل كثيراً من نفسي لو رأتني في هذا المكان . »

مرت أيام دون حوادث جديدة . وإيرما بوريل لم تعد تتصل به . فكأن العلاقات انقطعت بين الطابقين الأول والخامس . كل ليلة ، يجلس « الشيء الصغير » أمام طاولته ، فيشهد رجوع عربة السيدة ، ودون أن يتنبه للأمر ، يرتعش عند سماعه جري العربة غير الرنان وجملة السائق التالية : « الباب ، إذا سمحت » . حتى إنه لا يستطيع أن يردع نفسه عن التأثر حين يسمع خطوات الزنجية الصاعدة إلى غرفتها . ولو تجرأ لذهب ليسألها عن أخبار

معلمتها . . . رغم كل شيء ما زالت سوداء العينين سيدة الموقف كان « الشيء الصغير » يمضي بجانبها ساعات طويلة ، وما تبقى من الوقت يمضيه في غرفته محاولاً كتابة الشعر ، وهذا ما يذهل العصافير التي تأتي لمشاهدته من جميع سطوح الضاحية ؛ ذلك ان عصافير الحي اللاتيني هي كالسيدة ذات الشأن الكبير . فلقد كونت فكرة غريبة عن غرف الطلاب وفي المقابل ، فإن أجراس « سان جرمان » تلك الأجراس المسكينة التي نذرت للرب فحبست نفسها طيلة حياتها كالكرمليين ـ كانت تفرح لـرؤية صـديقها « الشيء الصغير » جالساً أبداً أمام طاولته ، ولتشجعه تعزف له موسيقى إحتفالية .

في غضون ذلك تلقى أخباراً جديدة عن جاك لقد أقام في نيس وروى له عن ذلك مفصلاً قال : « إن هذه المنطقة جميلة يا دانيال ، ولو كنت هنا لاستوحيت الكثير من ذلك البحر الذي يجري تحت نوافذي ! أما أنا فلا أتمتع به بتاتاً ؛ ولا أخـرج أبداً . . . فالمركيز يملي علي طيلة النهار إن هذا الرجل نشيط جداً ! أحياناً ، وبين جملتين ، أرفع رأسي فأرى في الأفق شراعاً صغيراً أحمر ، ثم أعود بسرعة إلى الكتابة . . . الآنسة «اكوفيل» مريضة جداً . . . أسمعها تسعل كثيراً وهي في الطابق الثاني . . . أنا أيضاً ، فور وصولي ، أصابني زكام حاد لا يفارقني . . . »

وعن سيدة الطابق الأول ، قال جاك :

« . . . إتبع نصيحتي ، ولا تعد عند تلك المرأة . فهي ليست

من عالمك . حتى إني أشعر بانها مغامرة . . . إسمع ، لقد رأيت البارحة في المرفأ مركباً هولندياً ذا صاريين كان قد قام بجولة حول العالم ، وقد رجع وعلى متنه صوار يابانية ، وأخشاب صنوبر كبيرة من « التشيلي » . أما طاقم البحارة فهو مزركش كخريطة الجغرافيا . . . وهكذا يا عزيزي أعتقد أن إيرما بوريل تشبه ذلك المركب ! إن الرحلات المتعددة بالنسبة إلى المركب إجمالاً ، يعذبن الرجال كثيراً . . . إحذر يا دانيال ، خذ حذرك وخاصة أتوسل إليك أن لا تبك العينين السوداوين . . . »

تركت الكلمات الأخيرة أثراً عميقاً في قلب « الشيء الصغير » إن إصرار جاك على السهر على سعادة تلك التي رفضت أن تحبه ، بدا له رائعاً . فقال في نفسه : « أوه ! لا يا جاك ، لا تخف ، لن أبكيها . » ثم إتخذ قراراً حازماً بعدم الرجوع عند سيدة الطابق الأول . . . تستطيعون أن تثقوا في قرارات « الشيء الصغير » الحازمة .

ذلك المساء ، عندما دخلت العربة إلى باحة المبنى ، لم يعرها تقريباً أي اهتمام . وأغنية الزنجية لم تبلبل أفكاره . في تلك الليلة العاصفة والممطرة من شهر أيلول ، كان « الشيء الصغير » يعمل وقد فتح بابه قليلاً . فجأة ، تهيأ له أن السلم الخشبية التي يؤدي إلى غرفته ، قد اصدر صوتاً . بعد ذلك مباشرة سمع وقع أقدام خفيفة وخشخشة ثوب . من المؤكد أن شخصاً يصعد السلم . . . لكن من ؟ . . . فكوكو بلان قد عادت منذ وقت

طويل . . . ربما هي سيدة الطابق الأول وقد جاءت لتكلم الزنجية . . .

ما ان طرأت له تلك الفكرة ، حتى شعر « الشيء الصغير » بأن قلبه يخفق بعنف ؛ لكن وآتته الشجاعة الكافية ليبقى أمام طاولته . . . إقتربت الخطوات شيئاً فشيئاً ؛ ولما وصلت إلى سطح السلم توقفت . سادت فترة من الصمت . ثم سمع قرعاً خفيفاً على باب الزنجية التي لم تجب فقال في نفسه دون أن يبرح مكانه : « إنها هي »

فجأة عبقت الغرفة برائحة عطرة . فصر الباب ، ثم دخل شخص . فسأل « الشيء الصغير » دون أن يلتفت إلى الوراء ، وهو يرتجف :

ـ من هناك ؟

XI
قلب السكر

مضى شهران على رحيل جاك ، ولم يتمكن بعد من الرجوع . لقد توفيت الآنسة أكوفيل . والمركيز يتنقل بحزنه ، ومعه كاتبه ، في كل أنحاء إيطاليا ، دون أن يتوقف يوماً واحداً عن كتابة مذكراته وجاك الذي أعياه العمل ، لا يجد إلا نادراً

الوقت الكافي ليكتب إلى أخيه بضعة أسطر مرسلة من روما ، نابولي ، بيزا وباليرما . ولذا اختلفت تلك الطوابع البريدية الملصقة على الرسائل ، فإن المضمون لا يختلف « هل تعمل ؟ . . . كيف سوداء العينين ؟ هل صدر مقال غوستاف بلانش وهل زرت من جديد إيرما بوريل ؟ » . كان « الشيء الصغير » يجيب على تلك الأسئلة التي لا تتغير ، بالطريقة نفسها : إنه يعمل كثيراً ، مبيع كتابه جيد ، وسوداء العينين على أحسن حال ؛ لم ير إيرما بوريل من جديد ولم يسمع شيئاً عن غوستاف بلانش .

أين الحقيقة في كل ذلك ؟ . . . هذا ما ستقوله لنا رسالة « الشيء الصغير » الأخيرة ، والتي كتبها في ليلة عاصفة ومحمومة .

إلى السيد جاك أيسات في بيزا

الساعة العاشرة من مساء يوم الأحد

لقد كذبت عليك يا جاك . منذ شهرين وأنا أكذب عليك . قلت لك اني أعمل ، لكن محبرتي نضبت منذ شهرين : قلت لك أن مبيع كتابي يسير على ما يرام ، ومنذ شهرين لم تبع أية نسخة . كتبت لك قائلاً اني لم أعد أرى إيرما بوريل ، ومنذ شهرين لم أفارقها إني آسف في شأن سوداء العينين ! . . . أوه يا جاك ! لم أتبع نصيحتك ؟ لماذا عدت عند تلك المرأة ؟

انت على حق ، فهي مغامرة ، لا أكثر ظننت باديء الأمر انها ذكية . لكن هذا ليس صحيحاً . فكل ما تقوله تقتبسه من أحدٍ .

لا تملك عقلاً ولا قلباً . فهي ماكرة ، ماجنة ، وشريرة . خلال نوبات الغضب التي تنتابها ، رأيتها تضرب الزنجية التي تعمل عندها بالسوط ، ثم ترمي بها أرضاً وترفسها علاوة على ذلك ، فهي لا تؤمن بالله ولا بالشيطان ؛ لكنها تصدق تنبؤات الذين يتكلمون خلال نومهم ، وتعتقد بتبصير القهوة . أما بالنسبة إلى موهبتها في التمثيل الدرامي ، فإني متأكد من انها لن تقبل في أي مسرح كان رغم الدروس الخصوصية التي يعطيها إياها ذاك الرجل القصير والمحدودب ، ورغم الأيام الطويلة التي تمضيها في منزلها وهي تضع كرات مطاطة في فمها . وهي في حياتها الشخصية ممثلة مزهوة بنفسها . لا أدري تماماً يا جاك المسكين ، كيف وقعت في براثن تلك المخلوقة ، رغم حبي الشديد للأشياء الطيبة والبسيطة . لكني أقسم لك باني لم اعد في قبضتها ، وإن كل شيء قد انتهى الآن ، وولى إلى غير رجعة . . . آه لو تدري كم كنت جباناً وما فعلت بي ! . . . لقد أخبرتها قصتي بكاملها ، فكلمتها عنك ، عن والدتنا ، وعن سوداء العينين أكاد أموت من الخجل . . . لقد منحتها كل حبي ، وسلمتها جميع أسرار حياتي . لكنها لم تحدثني يوماً عن حياتها . لا أعلم من هي ، ولا من أين تأتي . سألتها ذات يوم إن كانت متزوجة فضحكت . أتعلم ، إن

تلك الندبة الصغيرة التي على طرف شفتها هي ضربة سكين أصابتها في بلادها في كوبا . أردت أن أعلم من فعل بها هذا . فأجابتني بكل بساطة : « إسباني يدعى بتشيكو » . ولم تضف أية كلمة أخرى جواب سخيف أليس كذلك ؟ هل أعرف أنا « بتشيكو هذا ! ؟ أما كان عليها أن تعطيني إيضاحات ؟ . . . فضربة السكين ليست شيئاً مألوفاً لكن الفنانين الذين يحيطون بها قد بنوا لها شهرة تقول انها امرأة غريبة ، وهي تتمسك بهذه الشهرة . اوه ! إني أكره ، يا عزيزي ، أولئك الفنانين الذين لا يعيشون الا مع التماثيل واللوحات ، حتى إنهم انتهوا إلى الإعتقاد أنه لا يوجد في العالم سوى هذين العنصرين . يتكلمون دائماً عن الأشكال ، الخطوط ، الألوان ، الفن اليوناني ، « البارتينون » ، المسطحات والنتوءات . ينظرون إلى الأنف والذراعين والذقن . يحاولون أن يروا إن كان الشخص يملك طابعاً معيناً ومميزاً ، وإن كان شكله الجانبي له مميزات خاصة . لكنهم لا يهتمون بتاتاً بالأحاسيس ، بالأهواء ، بالدموع وبالغموم . أولئك الأشخاص وجدوا أن رأسي له طابع مميز عكس شعري المبتذل . لقد شجعوني بطريقة غريبة !

في بداية علاقتنا ، ظننت تلك المرأة انها عثرت على فتى معجزة وشاعر كبير يعيش في مخدع تحت الجملون - لقد مللت سماعها وهي تردد دائماً : مخدع تحت الجملون ! - عندما أثبت لها في ما بعد ، مجمع الفنانين الذين يحيطون بها ، انني لست سوى

أبله ، إحتفظت بي من أجل طابع رأسي المميز . يجب أن تعرف أن ذاك الطابع كان يختلف باختلاف الأشخاص . فأجد الرسامين بعدما وجد أن لي طابعاً إيطالياً ، رسمني كعازف مزمار بقربة ، ورسام آخر رسمني كبائع بنفسج جزائري ؛ وآخر . . . لم اعد أدري بمن كنت اذكرهم . كانت تقام جلسات الرسم ، معظم الأحيان ، في منزلها . إضطررت لإرضائها أن أظل مرتدياً طول النهار ثوباً عتيقاً ذا طراز بالٍ ، وأن أظهر في هذا الزي إلى جانب « الكاكاتواس » في غرفة استقبالها أمضينا ساعات على هذا النحو : أنا في الزي التركي ، أدخن غلايين طويلة على طرف أريكتها الطويلة ؛ وهي تنشد على الطرف الثاني من الأريكة ، بعدما وضعت كرات مطاطة في فمها . ومن حين إلى آخر تتوقف لتقول لي : « لك رأس مميز يا عزيزي داني دان ! » . عندما أكون في الزي التركي تدعوني « داني دان » ؛ وحينما أرتدي زيا إيطاليا تدعوني « دانيالو » ، فهي لا تناديني أبداً باسمي . . . وسيكون لي شرف الظهور في هذين الزيين ، في معرض الرسم القادم سيقرأ الناس في الكتيب الجملتين التاليتين : « عازف مزمار بقربة شاب ، إلى السيدة إيرما بوريل « فلاح شاب ، إلى السيدة أيرما بوريل » وسأظهر أنا بنفسي في هاتين اللوحتين يا للعار !

سأتوقف عن الكتابة قليلاً يا جاك . سأفتح النافذة وأتنشق قليلاً من هواء الليل . أكاد أختنق . . . لم أعد أرى شيئاً . « الحادية عشرة » .

لقد أنعشني الهواء . أستطيع أن أتابع الكتابة بعدما تركت النافذة مفتوحة . الليل حالك ، ينهمر المطر والأجراس تقرع . كم هي حزينة تلك الغرفة ! . . . تلك الغرفة الصغيرة العزيزة ، التي طالما احببتها في السابق ! أما الآن فإني أمل فيها . هي أفسدتها ، لقد أتت مراراً إلى هنا . لاشك انك تتفهم وضعي بحكم كوننا في المبنى نفسه ، سهلت لقاءاتنا . أوه ! لم تعد تلك الغرفة مكاناً للعمل . . . وسواء كنت حاضراً أم غائباً ، تدخل إلى الغرفة في أي وقت كان ، وتفتش في كل الأمكنة . ذات مساء ، وجدتها تفتش في درج يحتوي على أشيائي : رسائل والدتنا ، رسائلك ، ورسائل سوداء العينين كنت قد وضعتها في علبة مذهبة لاشك انك رأيتها . وأنا داخل ، رأيت إيرما بوريل ممسكة بتلك العلبة وعلى وشك أن تفتحها . فانطلقت نحوها إنتزعتها من يديها ، وصرخت في وجهها بغضب قائلاً :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

فأجابتني بنبرة مأساوية :

ـ لقد احترمت رسائل أمك ، فلم أمسها ؛ لكن الرسائل الأخرى تخصني ، أريدها . . . أرجع لي تلك العلبة .

ـ ماذا ستفعلين بها ؟

ـ أريد أن أقرأ الرسائل التي تحتويها . . .

فقلت لها :

ـ مستحيل. لا أعرف شيئاً عن حياتك ، وتعرفين كل

تفاصيل حياتي .

ـ أوه ! أرجوك يا « داني دان » ـ لقد كنت في ذلك اليوم الرجل التركي ـ أيعقل يا « داني دان » أن تلومني على هـذا التصرف ؟ ألا تدخل إلى منزلي ساعة تشاء ؟ ألا تعرف جميع الذين يأتون لزيارتي ؟

قالت ذلك بصوت متدلل ، وحاولت في الوقت نفسه أن تأخذ مني العلبة . فقلت لها :

ـ حسناً ! إن كان الأمر كذلك أسمح لك بفتحها ، لكن بشرط . . .

ـ ما هو ؟

ـ أن تقولي لي أين تذهبين كل صباح من الساعة الثامنة حتى العاشرة .

شحبت ونظرت إلي مباشرة . . . لم أكامها من قبل بهذا الأمر ، رغم توقي إلى ذلك . فتلك النزهة الصباحية الغامضة تقلقني وتزعجني ، كما هو الأمر مع الندبة . و« بتشيكو » وطريقة عيشها الغريبة . وددت أن أعرف وفي الوقت نفسه خفت من الجواب . شعرت بأن سراً مخجلاً يبعث ذلك الغموض وسأضطر إلى الهروب لو تبينت الحقيقة . . . لكن ، كما ترى ، تجرأت في ذلك اليوم على استجوابها . فاندهشت كثيراً ، وترددت للحظة ، ثم قالت لي بجهد وبصوت يكاد لا يسمع : « إعطني العلبة وستعرف كل شيء » .

حينئذٍ أعطيتها العلبة لقد كان تصرفي قبيحاً يا جاك ، أليس كذلك؟ فتحتها وهي ترتعش من اللذة . ثم بدأت بقراءة جميع الرسائل ـ كان هنالك عشرون رسالة ـ على مهل ، بصوت خافت ودون أن تغفل كلمةٍ . بدت مهتمة جداً بقصة حبنا الندية والطاهرة . لقد أخبرتها بها سابقاً ، ولكن على طريقتي . وصفت لها سوداء العينين كشابة أرستقراطية ، يرفض والدها تزويجها إلى دانيال أيسات الفتى الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة . لاشك أن تصرفي قد اصطبغ بغرور سخيف .

كانت من وقتٍ إلى آخر تتوقف عن القراءة لتقول : « إن هذا لطيف جداً ! » أو تقول : « أوه ! أوه ! أيعقل أن تتفوه فتاة ارستقراطية بكلمات مماثلة ! . . . » وبعد أن تنتهي من قراءة الرسالة تضعها قرب الشمعة تنظر إليها وهي تحترق وتضحك بلؤم . تركتها تكمل عملها الإجرامي لأني أردت أن أعرف أين تذهب كل صباح من الساعة الثامنة حتى العاشرة . . .

لكن بين تلك الرسائل ، وجدت واحدة مكتوبة على ورقة مخزن بياروت ، ورسم في أعلاها ثلاثة صحون صغيرة خضراء ، وكتب في الأسفل : « بورسلين ، وأوان بلورية ، بياروت ، خليفة لالوات . . . » مسكينة سوداء العينين ! لابد ان تكون شعرت يوماً في المخزن ، بحاجة إلى أن تكتب لي ، وأول ورقة رأتها أمامها وجدتها مناسبة . . . وهذا الحدث كان اكتشافاً عظيماً بالنسبة إلى الممثلة ! لقد صدقت من قبل قصة الفتاة الارستقراطية

ووالديها النبيلين ولكن عندما قرأت تلك الرسالة فهمت كل شيء وقهقهت قائلة :

« هـا هي إذاً الفتـاة الـرفيعـة الشـأن ، ولؤلؤة الحي الارستقـراطي . . . تدعى بيـاروت وتبيـع البـورسلين في ممـر « سومون » . . . آه ! لقد فهمت الآن سبب رفضك إعطائي العلبة » .

وظلت تضحـك وتضحك . . . لم أدر يـا عزيـزي مـاذا أصابني ؛ لم أعد أرى شيئاً بفعل الخـزي والغضب والغيظ . فهجمت عليها لأنتزع منها الرسائل ، خافت ، رجعت خطوة إلى الوراء ، علقت رجلها في ذيل فستانها ، فوقعت وصرخت صرخة مدوية . سمعتها الزنجية المرعبة ، التي تعمل عندها ، من الغرفة المجاورة ، فهرولت فوراً ، وهي عارية ، سوداء قبيحة ومكشوفة الرأس . أردت أن أمنعها من الدخول ، لكنها سمرتني عـلى الحائط بضربة من قفا يدها الكبيرة الزيتيـة ، ثم وقفت بين معلمتها وبيني . خلال هذا الوقت ، وقفت الأخرى وهي تبكي ، أو تتظاهر بالبكاء . وظلت وهي تبكي تفتش في العلبة . ثم قالت للزنجية :

« تعلمين لماذا أراد أن يضربني ؟ . . . لأنني اكتشفت ان الآنسة التي يحبها والتي ادعى انها ارستقراطية ، لا تنتمي بتاتاً إلى طبقة النبلاء ، بل تبيع صحوناً « في ممر . . . »

فقالت العجوز واعظة : « ليس كل من يدعي النبل هو

كذلك » قالت الممثلة : « إنظري إلى ضمانات الحب التي أعطته إياها حبيبته الحانوتية . . . أربع شعرات من شعرها المرفوع وباقة بنفسج بقرش واحد . . . إقتربي بمصباحك يا « كوكو بلان » .

دنت الزنجية بمصباحها ، فاحترقت الشعرات والأزهار باحتدام . تركتها تفعل ذلك ، لأنني كنت مذهولاً أضافت الممثلة وهي تبسط ورقة من الحرير :

أوه ! أوه ! ما هذا ؟ سن ؟ . . . لا ! يبدو أنه شيء مصنوع من السكر . . . أجل . . . إنها حلوى رمزية . . . قلب صغير من السكر للأسف ! سوداء العينين اشترت ، ذات يوم ، من سوق « بريه سان جرفيه » هذا القلب الصغير من السكر ، وأعطتني إياه قائلة : « إني أعطيك قلبي » .

نظرت الزنجية إليه برغبة شديدة . فصرخت لها معلمتها :

« أتريدينه يا « كوكو » ! حسناً ! خذي . . . »

ألقته في فمها كما لو كانت كلباً . . . ربما كنت سخيفاً في تفكيري ، ولكن حين سمعت السكر يطقطق تحت رحى الزنجية ، إرتعشت من رأسي حتى أخمص قدمي . تهيأ لي أن ذاك الوحش يلتهم بأسنانه السوداء قلب سوداء العينين نفسه ، وقد فعل ذلك بسعادة فائقة .

ربما تعتقد يا جاك أن كل شيء انتهى بيننا بعد تلك الحادثة . لا يا عزيزي ! لأنك لو دخلت في اليوم التالي عند إيرما بوريل لوجدتها تتمرن على دور « هرميون » مع أستاذها

المحدودب ، ولرأيت شاباً تركياً في زاوية جالساً القرفصاء على حصيرة ، بجانب الكاكاتواس ، ويدخن غليونا كبيرا أطول من جسمه . . . لك رأس مميز يا عزيزي داني دان !

لكنك ستقول لي : بثمن العار الذي لحق بك عرفت ما تريد أن تعرفه وأين تذهب كل صباح من الساعة الثامنة حتى العاشرة ؟ . أجل يا جاك لقد عرفت ذلك فقط هذا الصباح وبعد مشادة عنيفة كانت الأخيرة . سأخبرك بها . . . لكن صه ! . . . شخص ما يصعد . . . ماذا لو كانت هي ، ماذا لو جاءت لتلاحقني من جديد ؟ . . . إنها لتفعل ذلك ، حتى بعد الذي حصل . إنتظر ! . . . سأقفل الباب بإحكام . . . لا تخف ، لن أدعها تدخل . . .

لا يجب أن تدخل منتصف الليل.

لم تكن هي ، بل الزنجية التي تعمل عندها . وذلك أدهشني أيضاً . لم أنتبه إلى رجوع عربتها . . . لقد نامت « كوكو بلان » لتوها . أسمع من خلال الحائط الفاصل بقبقة القنينة واللازمة الرهيبة . . . « تولوكوتوتينيان » هي تشخر الآن ، كأنها رقاص ساعة كبيرة . سأخبرك كيف انتهى حبنا الحزين .

قبل نحو ثلاثة أسابيع ، قال لها الأحدب الذي يعطيها دروساً خصوصية أنها أصبحت جاهزة لتقوم بالأدوار المسرحية الكبيرة ، وأنه يريد أن يظهر موهبتها مع بعض تلاميذه أمام الجمهور . ففرحت الممثلة كثيراً . . . بما انه لم يتوفر لهم مسرح ، إتفقوا على

يحولوا غرفة عمال أحد أولئك السادة إلى صالة عرض ، وأن يرسلوا دعوات إلى جميع مديري المسارح في باريس . . . أما بالنسبة إلى اختيار المسرحية ، فقد اتفقوا على « أتالي » ، بعدما ناقشوا تلك المسألة مطولاً . . . « وأتالي » ، من بين جميع المسرحيات التي تمرنوا عليها، هي الوحيدة التي يجيد تلامذة الأحدب تمثيلها. ولعرض تلك المسرحية كانوا في حاجة فقط الى تنظيم بعض الأدوار وإلى القيام ببعض التمارين الجماعية . إختيرت إذاً مسرحية « أتالي » . . . بما ان إيرما بوريل هي سيدة رفيعة الشأن ، فقد رفضت أن تزعج نفسها بالتنقل ، لذا أقيمت التمارين في منزلها . فكل يوم كان يأتي الأحدب بتلاميذه ، أربع أو خمس فتيات ذوات قامة طويلة ، نحيلات ، وقورات يرتدين أثواباً من الكشمير الفرنسي الذي يباع بثلاثة عشر فرنكاً ونصف ؛ ويأتي كذلك ثلاثة أو أربع فتيان مساكين مذعورين ويرتدون ثياباً رثة ووسخة . . . كانت تجري التمارين طيلة النهار باستثناء الفترة التي تمتد من الثامنة صباحاً حتى العاشرة ذلك أنه رغم الاعدادات التي كانت تجري على قدم وساق من أجل العرض الأول ، فإن النزهات الغامضة لم تتوقف. إيرما ، الأحدب ، التلامذة ، والجميع عملوا بنشاط لا مثيل له . حتى إنهم نسوا مدة يومين أن يطعموا « الكاكاتواس » وقد أهملوا تماماً الشاب « داني دان » . . . وإجمالاً سار كل شيء على ما يرام . لقد زينوا غرفة العمل ، شيدوا

خشبة المسرح ، حضروا الملابس ، وأرسلوا الدعوات ، لكن قبل ثلاثة أو أربعة أيام من موعد عرض المسرحية ، مرضت الفتاة التي أخذت دور الشاب « ألياسين » ـ وهي إبنة أخ الأحدب ولها من العمر عشر سنين ـ . . . ما العمل ؟ أين سيجدوا شخصاً ليأخذ دور « ألياسين » ، كيف سيعثرون على ولد يستطيع أن يحفظ دوره في ثلاثة أيام ؟ . . . أصيب الجميع بالذهول. فجأة إلتفتت إيرما بوريل نحوي قائلة :

ـ على فكرة يا « داني‌دان » ماذا لو قمت أنت بهذا العمل ؟

ـ أنا ؟ . . . وفي سني ! . . . لاشك انك تمزحين . . .

ـصحيح انت رجل . . . ولكن يا صغيري تبدو كأنك في الخامسة عشرة من عمرك ؛ وعلى المسرح ستبدو في الثانية عشرة مع اللباس ووجهك مزخرف بصنوف الزينة . . . والدور على كل حال يناسب طابع رأسك المميز .

حاولت يا صديقي العزيز أن أرفض طلبها بكل الوسائل . لكني رضخت للأمر ، كما هي الحال دائماً معي . إنني جبان . . .

عرضت المسرحية . . . آه ! لو لم اكن حزيناً ، لألهيتك كثيراً بأخباري عن ذلك النهار . . . . إعتمدنا على مديري « الجمناز » و « الكوميدي فرانسيز » لكن يبدو أن أولئك السادة قد انشغلوا في مكان آخر ، فاكتفينا بمدير من الضاحية ، جيء به في آخر لحظة . ذلك العرض المسرحي الصغير والعائلي لم يكن سيئاً جداً . . . لقد صفقوا كثيراً لإيرما بوريل . . . أما أنا فقد وجدت أن « أتالي » الآتية من « كوبا » تبالغ في تفخيم الأحاسيس ،

نطقها سيء ، وتتكلم الفرنسية كعصفور إسباني . لكن كل ذلك لا يهم ! فأصدقاؤ ها الفنانون لا يدققون في تلك التفاصيل . إنها ترتدي الـزي المناسب وهي جميلة وقـوامها رشيق . . . وهـذا يكفيهم . . . أنا أيضاً نلت إعجاب المشاهدين بفضل طابع رأسي المميز ، لكن « كوكو بلان » لقيت نجاحاً باهراً في دور المربية الصامتة . إن رأس الزنجية ، في الحقيقة ، له طابع مميز أكثر مني . فعندما ظهرت في الفصل الخامس ، وقد وضعت على قبضة يدها « الكاكاتواس » الضخم - أرادت الممثلة أن يظهر معها في المسرحية : « الشيء الصغير» في الزي التركي ، الزنجية التي تعمـل عندهـا « والكاكـاتواس » - ثم أدارت بـدهشـة عينيهـا البيضاوين الكبيرتين المفترستين ، حينئذٍ علت في الصالة صيحات تشجيع مدوية وقالت « اتالي » في ما بعد والسعادة تشع منها : « يا له من نجاح باهر ! » جاك ! . . . . جاك ! . . . ها انا اسمع عربتها تعود. أواه من تلك الشيطانة. من أين تأتي في هذه الساعة المتأخرة ؟ هل نسيت الصبيحة الفظيعة التي مررنا بها ؟ أما أنا فإني ما ازال أرتجف بسبب ذلك ، كم أنا أبله !

لقد أغلق الباب . . . شرط أن لا تصعد الآن ! رهيب أن يعيش المرء بجوار امرأة يكرهها !

« الأولى بعد منتصف الليل »

عرضت المسرحية التي كلمتك عنها ، قبل ثلاثة أيام .

خلال تلك الأيام الثلاثة كانت مرحة ، ناعمة ، عطوفة

وفاتنة . لم تضرب ، ولو مرة واحدة . الزنجية التي تعمل عندها . سألتني عنك مراراً ، وأرادت أن تعلم إن كنت ما زلت تسعل . لكن ، والله يعلم أنها لا تحبك . . . كان يجب أن احزر أنها تحتفظ بسر ما .

هـذا الصبـاح دخلت إلى غـرفتي في التـاسعـة . في التاسعة ! . . . لم أرها يوماً عندي في تلك الساعة ! . . . إقتربت مني وقالت لي وهي تبتسم :

ـ إنها الساعة التاسعة !

وفجأة اضافت بوقار :

ـ لقد خدعتك يا صديقي . عندما التقينا لم أكن حرة . عندما دخلت إلى حياتي ، كنت على علاقة برجل . وهو الذي يوفر لي الرخاء الذي أعيش فيه ، الهوايات التي ألهو بها ، وكل شيء أملكه

مستعد ان قلت لك يا جاك ، اضافت إيرما بوريل ، ان هنالك قباحة وراء ذلك الغموض .

ـ منذ ان تعرفت عليك ، كرهت تلك العـلاقة . . . لم أكلمك عنها لأني أعرف كم أنت فخور بنفسك ، وسترفض أن تتقاسمني مع رجل آخر . لم أضع حداً لتلك العلاقة ، لأني لم أكن أريد أن أتخلى عن تلك الحياة الكسولة والفخمة التي أعيشها والتي خلقت من أجلها أما اليوم فلم أعد أقوى على العيش بهـذه الطريقة . فهذا الرياء يتعبني ، وتلك الخيانـة اليوميـة تفقدني

صوابي . . . إن كنت ما زلت تريدني بجانيك بعد هذا الإعتراف الذي أفضيت به إليك ، فإني مستعدة أن أتخلى عن كل شيء وأن أعيش معك في زاوية ، وحيثما شئت . . .

الكلمتان الأخيرتان « حيثما شئت » قيلتا بصوت خافت ، بقربي ، وقد حطتهما تقريباً على شفتي لتسكرني . . .

رغم ذلك واتتني الشجاعة الكافية لأجيبها ، وبطريقة جافة ، باني فقير ، لا أعمل ولا أستطيع أن أعيلها بواسطة اخي جاك .

حينئذ رفعت رأسها وكأنها أحرزت انتصاراً ، ثم قالت :

ـ حسناً ! ما قولك لو وجدت طريقة شريفة وأكيدة لكسب معيشتنا نحن الإثنين ونبقى معاً في الوقت نفسه ؟

حينئذٍ سحبت من إحدى جيوبها عقد عمل وبدأت بقراءته . . . هذا العقد يضمن وظيفة لكلينا في مسرح من الضاحية الباريسية . هي تقبض مئة فرنك في الشهر ، أما أنا فأقبض خمسين فرنكاً . جميع بنود العقد جاهزة ، ليس علينا سوى التوقيع .

نظرت إليها مرتعباً ، وشعرت بأنها ستوقعني في فخ . خفت للحظة أن أضعف أمامها . . . عندما انتهت من قراءة العقد ، لم تدعني اتكلم ، بل شرعت تتحدث بحماسة شديدة عن عظمة مهنة التمثيل ، وعن الحياة المجيدة التي سنعيشها هناك ، حرين ، معتزين بأنفسنا ، بعيداً عن العالم ، ومكرسين وقتنا للفن وللحب .

اخطأت لأنها تكلمت كثيراً، استعدت بتلك الطريقة رباطة جأشي، واستدعيت يا جاك والدتي الساكنة في قلبي لتنجدني؛ وعندما انتهت من وصلتها الكلامية، تمكنت من أن أقول لها بجفاء؛

ـ لا أريد ان اكون ممثلاً . . .

لكنها طبعاً لم تيأس بل تابعت كلامها المعسول، ذهبت محاولاتها سدى . . . بعد كل الذي قالته، لم اعطها سوى جواب واحد :

ـ لا أريد ان اكون ممثلاً . . .

بدأت تفقد هدوءها، حينئذٍ شحبت وقالت لي :

ـ انك تفضّل إذاً أن أعود الى هنالك من الساعة الثامنة حتى العاشرة، وان تبقى الأشياء كما هي . . .

اجبتها بجفاء ولكن أقل من السابق :

ـ لا أفضّل شيئاً . . . أرى انه مُشرّفٌ جداً ان تصمّمي على كسب معيشتك بنفسك ودون ان تعتمدي على سخاء رجل من الساعة الثامنة حتى العاشرة . . . لكني أكرّر اني لا أشعر بأي ميل الى التمثيل، ولن اكون ممثلاً .

لم تتحمل وقع كلامي فأنفجرت قائلة :

ـ آه ! لا تريد ان تكون ممثلاً . . . ماذا ستصبح إذاً ؟ . . . اتعتقد انك شاعرٌ ؟ . . . يعتقد أنه شاعر ! . . . . لكن أيها الأبله المسكين لا تملك شيئاً من صفات الشعر ! . . . . الأنك طبعت

كتاباً سيئاً لم يقبل به أحد ، تعتقد انك شاعر . . . لكن كتابك أيها المسكين سخيف جداً ، الجميع يقولون لي ذلك . . . منذ شهرين لم تبع سوى نسخة واحدة وقد اشتريتها أنا . . . أنت شاعرٌ ؟ كفاك مزاحاً ! . . . ان أخاك فقط يصدّق تلك الحماقة . . . كم هو ساذج ! . . . ويكتب لك رسائل سخيفة . حين يتكلم عن مقال « غوستاف بلانش» أشعر بحاجة ماسة الى الضحك . . . وفي انتظار اليوم الموعود يعمل ليلاً نهاراً ليؤمن معيشتك ؛ وانت خلال هذا الوقت ت . . . ت . . . على فكرة ماذا تعمل ؟ أتعرف على الأقل ماذا تعمل ؟ . . . . انك تشعر باكتفاء ذاتي لمجرّد أن رأسك له طابع مميز ؛ ترتدي الزي التركي ، وتكتفي بذلك معتقداً انك أتممت واجباتك ! . . . . لكني أنبئك بانك تفقد هذا البريق منذ فترة . . . انت قبيح ، أنت قبيح جداً . أنظر الى نفسك . . . أنا أكيدة من انك لو عُدت الى حبيبتك بياروت ، فإنها سترفضك . . . علماً بانكما خلقتما لبعضكما . . . كلاكما خلقتما لبيع البورسلين في ممر « السومون » . . . ستبرع حتماً في تلك المهنة الحرة مّما لو كنت ممُثلاً . . .

سال لعابها ، وشعرت بأنها ستختنق ، لم اشهد يوماً جنوناً مماثلاً . استمريت في النظر اليها دون ان انطق . عندما توقفت عن الكلام دنوت منها ـ كان كل جسدي يرتجف ـ وقلت لها بهدوء تام :

ـ لا أريد ان اكون ممثلاً .

وفيما أقول ذلك ، توجهت نحو الباب ، فتحته وأشرت به اليها . فقالت بسخرية :

ـ تريد ان أذهب . . . أوه ! لم يحن الوقت بعد . . . عندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك .

عندئذٍ فقدت أعصابي ، وتملكتني رغبة في القتل ، فأخذت أحد منصبي الحطب وركضت نحوها . فهربت . في تلك اللحظة يا عزيزي ، أدركت معنى تصرّف « بتشيكو الأسباني » .

بعد رحيلها مباشرة ، أخذت قبعتي وخرجت . ركضت طول النهار يمْنة وشمالاً كرجل ثمل . . . آه ! ليتك لم ترحل . . . في وقتٍ ما فكرّت في الذهاب عند بياروت ، لارتمي على قدميه طالباً الغفران ، واطلب السماح من سوداء العينين . ذهبت لغاية باب المخزن ، لكني لم اجرؤ أن أدخل . . . لم أزرهم منذ شهرين راسلوني فلم أجب ، أتوا لرؤيتي فأختبأت . كيف سيسامحونني ؟ . . . وجدت بياروت جالساً وراء مكتبه ، وقد بدا حزيناً . . . بقيت واقفاً أمام زجاج الواجهة ، وأنا أنظر اليه . ثم هربت باكياً .

رجعت الى غرفتي عند حلول الظلام . بكيت طويلاً الى النافذة ؛ بعد ذلك بدأت اكتب لك . سأكتب لك طوال الليل على هٰذا النحو . احس هكذا بانك هنا ، وبأني أحدثك ، وذلك يجعلني أشعر بالأرتياح . .

تلك المرأة هي الشيطان عينه ! كم كانت متأكدة من سيطرتها

عليَّ ! وكم كانت تعتقد أني العوبة بين يديها وشيء تملكه ! . . . فهمت ما اقترحَتْه لي ؟ التمثيل في الضاحية ! . . . . انصحني يا جاك ، إني اتعذب . . . لقد أساءت إليَّ ! لم أعد واثقاً من نفسي ، أصبحت مشككاً ، اني خائف . ماذا يجب ان اعمل ؟ . . . أأعمل ؟ . . . لسوء الحظ ! إنها محقّة فلست بشاعرٍ ، وكتابي لم يُبع . . . اين ستجد المال لتفي الديون ؟ . . .

لقد فسدت حياتي . لم أعد أرى شيئاً ولم أعد أعرف شيئاً . ظلام حالك يخفي كل شيء من حولي . . . هنالك اسماء مربوطة بمعانيها . هي تدعى إيرما بوريل . و « بوريل » عندنا تعني الجلّاد . . . « إيرما الجلّاد » . . . ان هذا الاسم يليق بها ! . . . أريد ان اغيرّ مسكني . اصبحت اكره تلك الغرفة . علاوة على ذلك اني معرّض لأن التقي بها على السلّم . هذا إذا صعدت من جديد الى هنا ، لكن إطمئن . . . انها لن تصعد . لقد نسيتني . الفنانون حاضرون ليؤاسوها .

آه يا إلهي ! ماذا اسمع ؟ . . . اخي جاك ، انها هي . أقول لك انها هي . انها آتية الى هنا ؛ عرفت وقع خطاها . . انها هنا قريبة جداً . . اسمع لهاثها . . عينها الملتصقة بقفل الباب تنظر اليَّ ، تحرقني ، تـ . . . . . »

لم أرسل تلك الرسالة .

XII

« تولوكو توتينيان »

ها قد وصلت الى اللحظات القاتمة من قصة حياتي ، أيام البؤس والعار التي عاشها دانيال ايسات . بجانب تلك المرأة ، بعدما احترف التمثيل في ضاحية باريس . انه لمن الغريب ان لا يبقى لي من تلك الفترة من حياتي غير المستقرة ، الصاخبة والتي تخللتها مشادات عنيفة ، سوى وخز الضمير عوض الذكريات . الرؤية ، غير واضحة في تلك الزاوية من ذاكرتي . اني لا أرى شيئاً بتاتاً . . .

لكن ، مهلاً ! . . . ليس عليَّ سوى ان أغمض عينيّ ، وأن أُدندن مرتين أو ثلاثاً تلك اللازمة الغريبة . والحزينة : « تولوكوتوتينيان » «تولوكوتوتينيان»! وفجأة ، بسحر ساحر ، تستيقظ ذكرياتي النائمة ، وتخرج الساعات الميتة من مقابرها ، ويتراءى لي « الشيء الصغير » كما كان حينذاك في منزل كبير وجديد في شارع « مونبارناس » بين إيرما بوريل التي تتمرّن على ادوارها و « كوكوبلان » التي تغني باستمرار : «تولوكوتوتينيان»! تولوكوتوتينيان!

كم هو مقرف هذا المنزل ! اراه الآن أمامي ، أراه بنوافذه الألف ، وبدربزينه الأخضر الموسخ بشيء لازج ، بقساطله النائتة ، وأبوابه المرقمة ، وأروقته الطويلة البيضاء التي تنبعث منها رائحة الدهان الجديد . . . لقد اتسخ هذا المنزل رغم التصليحات التي جرت فيه حديثاً ! . . . وهو يضم مئة وثماني غرف ؛ وفي كل غرفة تعيش عائلة . ويا لها من عائلات تعيسة ! . . . تنشب طيلة النهار مشادات عنيفة ، فيعلو الصراخ والضجيج ، وتدور معارك ضارية ؛ خلال الليل نسمع صراخ الأطفال الحاد ، ووقع أقدام حافية تمشي على البلاط ، وتمايل أسرّة الأطفال المتساوي والثقيل. من وقت الى آخر يطرأ تغيير على تلك الرتابة بفضل زيارات الشرطة .

هنا ، في هذه المغارة المفروشة وبطوابقها السبع ، آوى « الشيء الصغير » وإيرما بوريل حبهما . . . مسكن حزين وفقير يليق بنزيل حزين وفقير ! . . . إختارا هذا المكان لأنه قريب من المسرح الذي يعملان فيه ؛ وكما هي الحال في جميع المنازل الجديدة ، فالإيجار رخيص نوعاً ما . بأربعين فرنكاً حصلا على غرفتين ـ تلك تعرفة سكان المنازل الجديدة ـ في الطابق الثاني مع شرفة صغيرة تطلّ على الشارع الكبير ، فتلك أجمل شقة في الفندق . . . يرجعان كل مساء نحو منتصف الليل وبعد عرض المسرحية . ان الرجوع في تلك الشوارع الكبيرة المقفرة ، حيث تجول فتيات مكشوفات الرأس ، وفتيان صامتون ، ورجال الشرطة

الذين يرتدون السترات الطويلة الرمادية ، هو حزين جداً .

يمشيان بسرعة وسط الطريق . لدى وصولهما يجدان قليلاً من اللحم البارد في إحدى زوايا الطاولة ، والزنجية كوكوبلان في إنتظارهما . . . ذلك ان ايرما بوريل قد احتفظت بكوكو بلان . أما سيّد « الثامنة الى العاشرة » فقد استعاد سائقه ، قطع الأثاث ، أواني الفضّة وعربته . لقد احتفظت ايرما بوريل بالزنجية ، « بالكاكاتواس ، ببعض المجوهرات وبجميع أثوابها . . . تلك الفساتين طبعاً لم تعد ذات فائدة سوى على المسرح ؛ فالأذيال المخملية والمتموجة لم تُصنع بتاتاً لتكنيس الشوارع العريضة . . فالأثواب وحدها تحتلّ إحدى الغرفتين . وقد عُلقت على مشاجب فولاذية ؛ وثنياتها الكبيرة الناعمة وألوانها اللاّمعة ، تتنافر بقوة مع البلاط الذي فَقَد لونه الأحمر ومع الأثاث الذي اصبح بالياً . في هذه الغرفة تنام الزنجية . وقد وضعت فيها فراشها المصنوع من التبن ، ونضوة الحصان ، وزجاجة الكحول . لكننا لم نكن نترك المكان مضاءً مخافة ان ينشب حريق . لذا عندما نعود ليلاً ، تبدو كوكوبلان وهي تجلس القرفصاء على فراشها تحت ضوء القمر ، بين تلك الأثواب الغامضة ، كساحرة عجوز فوّض اليها « اللحية الزرقاء » حراسة المشنوقات السبع . أما الغرفة الأخرى ، فهي أصغر حجمًا وكانت لهما وللكاكاتواس . وهي تتسع فقط لسرير ، وثلاثة مقاعد ، وطاولة ومجثم كبير مذهب القضبان .

رغم ضيق مساحته ورغم الحزن الذي يخيّم على مسكنهما

فإنهما لم يبارحاه بتاتاً . في أوقات فراغهما كانا يتمرنان على ادوارهما ، وأقسم لكم بانه حينذاك تعمّ المكان جلبة رهيبة . ومن طرف الى آخر يُسمع في المنزل زئيرهما المسرحي : « ابنتي ، أعيدوا إليّ ابنتي ! ـ من هنا يا «غاسبار» ! ـ اسمه ، اعطني اسمه ايها البا ـ ئـ ـ ئس ! » وعلاوة على ذلك تُسمع صرخات الكاكاتواس التي تصمّ الآذان ، وصوت كوكوبلان الحاد وهي تدندن باستمرار :

« تولوكوتوتينيان ! . . . تولوكوتوتينيان» .

كانت إيرما بوريل سعيدة ، فتلك الحياة تعجبها ؛ ويحلو لها أن تقوم بدور فنانة فقيرة زوجة فنان فقير . وغالباً ما تقول : « لا أندم على ما فعلت » . ولِـمَ الندم ؟ فاليوم الذي ستقنط فيه من البؤس ، وستملّ شرب النبيذ الرخيص ، وأكل وجبات الطعام مع المرقة البنيّة التي يبتاعونها من الحانوت ؛ واليوم الذي سيطفح فيه كيلها من التمثيل في الضاحية ، فهي تعلم جيداً انها ستعود الى حياتها السابقة عندما يأتي ذلك اليوم . ليس عليها سوى ان تشير الى ذلك ، وستجد بسهولة كل ما فقدته . فتلك الفكرة شجعّتها وحثّتها على ان تقول باستمرار : « لست نادمة على ما فعلتُ » . هي ليست نادمة ، أما هو فماذا ؟ . . . .

كانت « غسبار دو الصيّاد » أولى مسرحياتها ، وهي إحدى أجمل القطع الميلودرامية . ولاقت إيرما نجاحاً باهراً ، ليس لأنها موهوبة ـ صوت رديء ، حركات سخيفة ـ لكن بفضل ذراعيها

الناصعتي البياض واثوابها المخملية . فجمهور تلك المنطقة ليس معتاداً تعرية الذراعين والكشف عن جسد رائع ؛ كما أنه لم ير من قبل اثواباً فخمة يباع كل متر منها بأربعين فرنكاً . سرت في الصالة همسات تقول : « انها دوقة ! » وصفق الفتيان بقوة . . . اما هو فلم يلق نجاحاً مماثلاً . وجدوه قصيراً جداً ، خائفاً وخجولاً . ثم انه يتكلم بصوت خافت كأنه في كرسي الاعتراف ، فكانوا يصرخون له باستمرار : « تكلم بصوت عالٍ ! » لكن الشعور بالاختناق لم يبارحه ، فكان يكتم الكلمات قبل التلفظ بها . فصفّروا له معربين عن استيائهم . . . انه يفتقر الى الموهبة رغم تفاؤل ايرما ! ليس عليه ان يكون ممثلاً جيداً لمجرد انه شاعر سيء . . . .

واسته ايرما بكل ما أوتيت من عزم ، فظلّت تقول له : « لم يفهموا طابع رأسك المميز . . . » اما المدير فلم يخطىء في تقييم قدرة « الشيء الصغير » على التمثيل . فبعد عرضين عاصفين للمسرحية ، جاء به الى مكتبه قائلاً : « المسرح المأساوي ليس من اختصاصك يا صغيري . لقد اخطأنا التقدير . فلنجرّب الكوميديا . اعتقد انك ستبرع في تلك الأدوار » .

في اليوم التالي تمرّن على « لعب الأدوار الرئيسية المضحكة ، كدور الغنوّج المنذهل الذي يعطونه « شربة » عِوض الشمبانيا ، ويركض على خشبة المسرح ممسكاً ببطنه ، أو دور الأبله ذي الشعر المستعار الأحمر والذي يبكي كالعجل : « ها ! . . هـا ! . . .

ها ! . . . » أو دور العاشق القروي الذي يجول بنظرات حمقاء قائلاً : « يا آنسة ، نحبك كثيراً ! . . . حقاً كثيراً ! أُحبك حبّاً كلّياً ! » .

لعب ايضاً أدواراً أخرى كـالمسكين المضحـك ، الخجول ، القبيح ، والذي يدعو الى السخرية لسبب أو لآخر . لا بُدَّ لي من القول أن تمثيله كان لا بأس به . فلقد لقي هذا التعيس نجاحاً ، لأنه توصل الى إضحاك الجمهور ! .

هنالك أمر غريب لا أجد له تفسيراً . فإن « الشيء الصغير » يفكر في جاك وفي سوداء العينين عندما يكون على خشبة المسرح ، مرتدياً الثياب الرثة ، ووجهه مطلي بالمساحيق المتعددة الألوان . فعندما يقوم بحركة تشوّه قسمات وجهه ، أو حينما يُطلق دعابة ساخرةً ، ولاذعةً ، تنتصب أمامه فجأة صورة أولئك الأعـزاء الذين خانهم بجُبن .

كل مساء تقريباً ، وهذا ما يستطيع ان يؤكده لكم فتيان الحي ، كان يتوقف فجأةً عن الكلام ، ويبقى واقفاً ، صامتاً ، ينظر الى الصالة وفمه مفتوح . . . في تلك اللحظات تغـادره روحه ، تقفز فوق دربزين خشبة المسرح وتثقب سقف المسرح بضربة جناح ، ثم تذهب بعيداً لتقبل جاك والسيدة ايسات ثم تطلب الغفران من سوداء العينين ، وهي تتشكى بمرارة من تلك المهنة الكئيبة التي فرضت عليه . حينئذٍ يهمس له الملقن من خلف الكواليس : « حقاً نحبـك حبّاً كليّاً ! . . . » عندئـذٍ يستفيق

« الشيء الصغير » التعيس من حلمه كأنه رجع من عالم آخر . ثم ينظر حوله بعينين كبيرتين منذهلتين يرتسم فيهما ذهول طبيعي ومضحك للغاية ، فتقهقه الصالة من الضحك ، وهذا ما يُسمّى « التأثير » في لغة المسرح المحكيّة . لقد أثرّ في المشاهدين دون ان يدري .

الفرقة التي يعملان فيها تتنقّل من منطقة الى أخرى ؛ فهي فرقة متجوّلة تعرض مسرحياتها في« غرونال » ، « مونتبارناس » ، « سيفر » ، « سو » و « سان كلود » . وللتنقل من منطقة الى أخرى ، يجلسون في عربة المسرح فوق بعضهم البعض . وهي عربة قديمة ، طُلِيت بالبني الفاتح ويجرّها حصان مُصاب بداء السِل . في الطريق يُغنون ويلعبون بالورق . أما الذين لا يعرفون أدوارهم غيباً فيجلسون في أقصى العربة ويقرأون كراريسهم من جديد . وهو كان يجلس في هذا المكان بالذات . فيبقى صامتاً وحزيناً كالهزليين المشهورين ، ولا يستمع الى الكلام البذيء الذي يُدندَنُ بجانبه . رغم الانحطاط الذي وصل اليه ، ما زال ارفع شأناً من أولئك الممثلين الفاشلين . وكان يخجل من الظهور معهم فالنساء مسنّات ، ذابلات ، وجوههن مطلية بالمساحيق ، متكلفات ، وواعظات. أما الرجال فهم اشخاص عاديون ، يفتقرون الى مثل اعلى ، لا يجيدون الكتابة ؛ وهم أولاد حلّاقين أو بائعات بطاطا مقلية ، إمتهنوا التمثيل لأنهم عاطلون عن العمل ، أو كسلانون ، أو حبّاً بالأقمشة البرّاقة وبالثياب ؛ وحبّاً

بالظهور على خشبة المسرح وهم يرتدون جوارب طويلة ذات الوان ناعمة وسترات رسمية . ويهتمون دائمًا بمظهرهم ، ينفقون رواتبهم لتجعيد شعرهم ، ويقولن لك باقتناع كلّي : « لقد عملت جيداً اليوم » ، وذلك بعد ان يكونوا قد أمضوا خمس ساعات لصنع حذاء من طراز لويس الخامس عشر بعد ان استعانوا بمترين من الورق اللمّاع . . . ما كان عليه ان يسخر من جلسات بياروت الموسيقية لينتهي في عربة ذات اربع عجلات . . .

لم يكن محبوباً من رفاقه بسبب وجهه العبوس وتعجرفه الصامت . فقالوا أنه باطني خبيث . في المقابل فإن ايرما بوريل عرفت كيف تكسب ودّ الجميع . فلقد تربعت على عرش العربة كأميرة ، تضحك كثيراً وترجع برأسها الى الوراء لتظهر عنقها الدقيق . تلاطف الجميع ، وتنادي الرجال قائلة : « يا صاحبي » . أما النساء فتدعوهن قائلة : « يا صغيرتي » . وأجبرت حتى الأشد شراسة على ان يقولوا عنها : « انها فتاة طيّبة » . فتاة طيّبة ، هذا هو الجنون عينه ! . . .

وعلى هذا النحو كانوا يسيرون على الطرقات ، يضحكون ، ويكثرون الدعابات البذيئة ، ثم يصلون الى مكان عرض المسرحية . وعندما ينتهون من العرض يخلعون ثياب المسرح بسرعة ، يسرعون الى العربة ويرجعون الى باريس . وفيما هم عائدون يحلّ الظلام ، فيتكلمون بصوت خافت ، ويتلمسون بعضهم بعضاً في الظلام بواسطة ركبهم . من حين الى آخر ،

تُسمع ضحكة مكبوتة . . .

عندما يصلون الى ضاحية « ألمان » تتوقف العربة لتُفرغ حمولتها . ينزل الجميع ويواكبون ايرما بوريل حتى باب منزلها ، حيث تنتظرهما كوكوبلان وهي ثملة وتغني اغنيتها الحزينة :

« تولوكوتوتينيان! . . . تولوكوتوتينيان » .

لو رآهما أحد ملتصقين ببعضهما البعض لأعتقد انهما متحابان . لا ! لا يحبّان بعضهما . فكل واحد منهما يعرف الآخر معرفة جيدة كفيلة بأن تبعده عن هذا الشعور . هو يعرف أنها كاذبة ، باردة ، ودون رحمة . هي تعرف أنه ضعيف وذو شخصية ركيكة أقرب ما تكون الى الجُبن . فهي تقول دوماً في نفسها : « سيأتي أخوه ذات يوم ويسرقه مني ليعيده الى بائعة البورسلين » . أما هو فيقول في سرّه : « ستملّ ذات يوم تلك الحياة التي تعيشها وسترحل مع رجل « من الثامنة الى العاشرة » . أما أنا فسأتخبط وحيداً في بؤرة الوحول التي اعيش فيها » . . . ذلك الخوف المستمر في أن يفقدا بعضهما البعض أوثق روابط حبهما . انهما يتحابان ، ومع هذا كانت الغيرة قاسماً مشتركاً بينهما .

انه حقاً غريب ان تنمو الغيرة حيث لا يوجد حب . لكن ، تلك كانت حقيقة الأوضاع . . . فعندما تلاطف إيرما شخصاً ما في الغرفة ، يشحب « الشيء الصغير » وحين يتلقى هو رسالة تأخذها هي بشراسة وتفتحها بيدين مرتجفتين . . . وغالباً ما تكون الرسالة من جاك ؛ فتقرأها كلها بسخرية ثم ترميها على مقعد :

وتقول بازدراء : « دائمًا الشيء نفسه » . للأسف نعم ! يقول دائمًا الشيء نفسه . أي انه يتكلم عن الاخلاص ، عن الكرم وعن نكران الذات . فهي لذلك تكره أخي بشدة . . .

ان جاك الطيب لم يشك يوماً بما يجري . فهو لم يشك بأي شيء . أكتب له ان كل شيء على ما يرام ، وأن « المسرحية الرعائية » بيعت في معظمها ، وأن السندات المتأخرة سأدفعها بواسطة المال الذي يحتفظ لنا به باعة الكتب . . . ظل جاك المطمئن والطيب كعادته ظل يرسل لي مئة فرنك شهرياً الى شارع بونابرت ، حيث تذهب كوكوبلان ، وتأتي بها .

بفضل المئة فرنك المُرسلة من جاك وبفضل اجور المسرح ، كانا يملكان ما يكفيهما من المال للعيش ، في حيّ أولئك الفقراء المساكين . لكن الأثنين يجهلان قيمة المال : هو لم يملك يوماً مالاً : وهي حصلت على الكثير منه . لذا ساد التبذير ! فمنذ اليوم الخامس من الشهر يفرغ صندوق مُدخراتهما ـ وهو كناية عن بابوج صغير مصنوع من القش وقد أتت به من « جافا » . فالكاكاتواس بمفرده يتطلب تغذيته مقداراً من المال يوازي ما يُقدّم لشخص كبير . وهنالك ايضاً مصاريف عدة ، كتنظيف البياضات ، شراء الكحل ، المساحيق ، وكل أدوات الزينة التي تستعمل في التمثيل . أما كراريس المسرح فكانت قديمة جداً ورثّة . أرادت السيدة كراريس جديدة . وهي بحاجة ايضاً الى الازهار ، الى الكثير منها . فهي تفضل أن تحرُم نفسها الطعام على

أن ترى الأواني فارغة من الازهار .

بعد مرور شهرين غرقا في الديـون . فلقد استـدانا من الفندق ، من المطعم ، ومن حاجب المسرح . من وقت الى آخر ، يسأم دائناً من الانتظار ، فيأتي الى منزلهما في الصباح الباكـر ليطالب بحقوقه . وبعد ان ييأسا من اقناعه بتأجيل الاستيفاء يسرعان الى صاحب المطبعة التي طبعت « المسرحية الرعائية » ، فيستدينان منه بضع ليرات على حساب جاك . وصاحب المطبعة الـذي كان يهتم بطبع الجـزء الثـاني من مـذكـرات السيـد « اكوفيل » ، ويعرف تماماً أن جاك ما زال كاتباً عند هذا ، كان يقُرضهما المال دون حساب . تراكمت الديون وأصبحت تُقدّر بأربعمئة فرنك . واذا أُضيفت الى تكاليف « المسرحية الرعائية » والتي تُقدر بتسعمئة فرنك ، يصبح مجموع ديـون جاك ألفـاً وثلاثمئة فرنك .

مسكينـة أيتها الأم جـاك ! كم من كوارث تنتـظرك عند عودتك ! لقد اختفى دانيال ، وسوداء العينين تظل تبكي ، ولم تُبع نسخة من الكتاب ، وعليه ان يدفع الفاً وثلاثمئة فرنك، كيف يخلّص نفسه من ذلك المأزق ؟ . . . إن ايرما لم تقلق بتاتاً في هذا الشأن . لكن تلك الفكرة لم تبرح يوماً« الشيء الصغير » . حتى انها اصبحت هاجساً وقلقاً مستمرين . حاول لكي ينسى أن يلهو ، أن يعمل كمن حُكم عليه بالأشغال الشاقة (يا إلهي ، وأي عمل !) وأجبر نفسه على تعلّم تهريجات جديدة ، وأن يتمرن

أمام المرآة على القيام بحركات جديدة ؛ لكن المرآة تعكس له دوماً صورة جاك عوضاً عن صورته . وبدل ان يرى بين سطور دوره أسماء « لانغلومو » و « جوزيا » وشخصيات أخرى من « الفودوفيل » لم يكن يرى سوى اسم جاك ؛ جاك ، جاك ، دائماً جاك !

كل صباح ينظر برعب الى الروزنامة ، فيعدُّ الأيام التي تبعده عن دفع أول سند فيقول في نفسه مرتجفاً : « لم يبق سوى شهر ، لم يعُد أمامي سوى ثلاثة أسابيع ! » . ذلك انه يعرف تماماً أن الحقيقة ستُعلن عند أول سند يتأخر دفعه وسيبدأ منذ ذلك اليوم عذاب أخيه . تلك الفكرة لاحقته حتى في نومه . يستفيق أحياناً مذعوراً ، منقبض القلب ، وجهه مبللاً بالدموع وقد بقيت له ذكرى غير واضحة عن حلم مرعب وغريب مر في باله أثناء نومه .

هذا الحلم ، هو دائماً نفسه ، يعاوده كل ليلة ، حوادثه تجري في غرفة مجهولة تحتوي على خزانة كبيرة ذات أقفال قديمة معقدة . جاك موجود . انه شاحب ، شحوبه مرعب ، وقد استلقى على أريكة ، لقد مات لتوّه . كميل بياروت موجودة ايضاً وهي واقفة أمام الخزانة وتحاول ان تفتحها لتأتي بكفن . لكنها لا تفلح في مساعيها ؛ وفيما هي تتحسس القفل بالمفتاح ، قالت بأسف شديد : « لا أستطيع ان افتح . . . لقد بكيت كثيراً . . . لا أرى شيئاً . . . » .

رغم انه حاول أن يُبعد عنه هذا الحلم بالاستعانة بالمنطق ،

لكن الحلم كان أقوى فسيطر عليه . حينما يُغمض عينيه ، يتراءى له جاك ممدّداً على أريكة وكميل عمياء وواقفة أمام الخزانة . . . ان وخز الضمير والشعور بالرعب جعلاه يوماً بعد يوم اكثر تشاؤماً وسريع الغضب والغيظ . اما ايرما بوريل فلم تعُد تتحمّل . وهي تشعر على كل حال ، أنه يتملّص من قبضتها ـ دون أن تدري من أين أو كيف ـ وذلك يزيد من غضبها . . ففي كل لحظة تنشبُ مُشادات رهيبة ، وتعلو الصرخات والشتائم ، كأنهما في مِغسل .

فتقول له : « إرحل مع حبيبتك بياروت وأقبل منها قلوباً من السُكر » .

ويقول لها فوراً : « عودي الى حبيبك « باتشيكيو » ليجرح شفتك » .

تناديه قائلة : « ايها البورجوازي ! » فيُجيبها قائلاً : « ايتها الخبيثة ! » .

ثم يجشهان بالبكاء ويسامحان بعضهما البعض بسخاء ليعاودوا الكرّة في اليوم التالي .

لقد عاشا على هذا النحو ، لا ! بل تعفنا معاً ، يغلهما قيد واحد ويتمرغان في الساقية ذاتها . . . وهي هذه الحياة الموبوءة ، وتلك الساعات البائسة ، ما يمر اليوم أمام ناظريّ حين أُدندن لازمة الزنجية الغريبة والحزينة : « تولوكوتوتينيان ! . . . تولوكوتوتينيان ! . . . » .

XIII

الخطف

حدث ذلك ذات مساء، ونحو الساعة التاسعة في مسرح «مونتبارناس». انتهى «الشيء الصغير» ـ الذي كان له دور في المسرحية الأولى ـ من التمثيل، وصعد إلى مقصورته. وفيما هو صاعد إلتقى ايرمابوريل وهي ذاهبة إلى خشبة المسرح. كانت مُشعة بفستانها المخملي المزدان بالقماش المُطرز، وفي يدها مروحة. أثناء مرورها قالت له:

ـ تعال إلى الصالة، إني في صدد أن... سأكون جميلة جداً.

ذهب بسرعة نحو مقصورته وخلع ثياب المسرح. تلك المقصورة التي يتقاسمها مع زميلين هي حُجرة خالية من النوافذ، سقفها وطيء ومُضاءة بأحجار «الشيست». قطع الأثاث مؤلفة من كرسينّ أو ثلاث من القش. تتدلى على الجدران بقايا من المرايا، شعور مستعارة فقدت تجعيداتها، ثياب بالية ممزقة ولّماعة، أقمشة مُخملية باهتة، وأشياء مذهبة فقدت بريقها، وفي زاوية على الأرض علب أحمر الخدود والشفاه بلا غطاء..

كان «الشيء الصغير» يخلع ثيابه المضحكة، عندما سمع مراقب الآلات يناديه من الطابق السفلي قائلاً: «يا سيد دانيال!» خرج من مقصورته وسأل قائلاً بعدما إنحنى على الدربزين الخشبي الرطب: «ماذا هنالك؟». وعندما لاحظ أنه لم يلق جواباً، نزل كما هو، أي عارٍ تقريباً ووجهه مطلّي بالمساحيق البيضاء والحمراء، وقد غطّى عينيه شعر طويل مستعار وأصفر. التقى عند أسفل السُلّم بشخص فصرخ وهو يرجع إلى الوراء: «جاك!».

لقد كان جاك بنفسه.. نظراً بعضهما إلى بعض دون أن يتكلّما. وفي النهاية ضمّ جاك يديه وتمتم بصوت ناعم مليء بالدموع: «أوه يا دانيال!» تلك الجملة أثّرت فيه كثيراً. فاضطرب «الشيء الصغير» بشدة واهتز كيانه، ثم نظر من حوله كطفل مُتخوف وقال بصوت خافت إلى حد، أن شقيقه بالكاد سمعه: «خذني بعيداً يا جاك».

ارتعش جاك ثم أخذه بيده وأخرجه من المسرح. وجدا عربة تنتظر في الخارج فصعدا وصرخ الأم جاك: شارع «ديدام» في «الباتينيول»!». أجاب السائق بفرح «إني أقطن هناك!» وسارت العربة.

... منذ يومين وجاك في باريس. جاء من «باليرم» بعدما تلقى رسالة من بياروت.

- بحثت عنه طيلة ثلاثة أشهر، واكتشفت مكانه أخيراً - رسالة مقتضبة تُنبئه باختفاء دانيال. عندما قرأها جاك عرف حقيقة

الوضع. فقال في نفسه: «إن الفتى يرتكب حماقات... يجب أن أذهب إليه» وطلب فوراً عطلة من المركيز. فقال الرجل وكأنه لم يُصدق ما سمعه:

- أجننت؟... ماذا سيحلّ بمذكراتي؟...

- أطلب فقط ثمانية أيام يا سيدي المركيز، أي الوقت اللازم لأذهب وأعود، فحياة أخي مهددّة.

- إني لا أبالي بأخيك... ألم أحذّرك عندما بدأت العمل عندي؟ أنسيت ما اتفقنا عليه؟.

- لا يا سيدي المركيز، لكن...

- دعني من كلمة لكن. سيحلّ بك ما حلّ بالآخرين. إن تركت عملك مدة ثمانية أيام، فلن تعود أبداً. فكّر ملياً أرجوك... وفيما أنت تفكر، إجلس هنا، سأبدأ الإملاء.

- لقد فكّرت ملياً يا سيّدي المركيز، إني راحل.

- إذهب، عليك اللعنة.

عندئذ أخذ العجوز الصعب المراس قبعته وذهب إلى القنصلية الفرنسية ليأتي بكاتب جديد.

رحل جاك في المساء نفسه.

عندما وصل إلى باريس، ذهب بسرعة إلى شارع «بونابرت»، وصاح بالبواب الذي يجلس، كمن يركب الخيل، على حوض الماء، وهو يدخن غليونه: «هل أخي فوق؟». فضحك البواب وقال بخبث: «لقد رحل منذ زمن طويل».

أراد أن يظهر كشخص كتوم، لكنه تكلّم بعدما أخذ مئة قرش عندئذ أخبره بأن الفتى الذي يسكن في الطابق الخامس وسيدة الطابق الأول اختفيا منذ زمن طويل، وإنهما يختبئان والله وحده يعلم أين، في ناحية ما من باريس. لكنهما بالتأكيد يعيشان معاً، لأن الزنجية كوكو بلان تأتي كل شهر لترى إن كان لهما شيء. وأضاف أن السيد دانيال، حينما رحل، لم يُعلمهُ بذهابه، وعليه أن يدفع إيجار الأربعة أشهر الماضية، علاوة على الديون الأخرى المتفرقة. فقال جاك:

ـ حسناً! سأدفع كل الديون.

ودون أن يضيع دقيقة واحدة، ودون أن يرتاح من عناء السفر، بدأ البحث عني.

ذهب في بادىء الأمر عند صاحب المطبعة، مفكراً بحق أن مستودع «المسرحية الرعائية» العام هو في هذا المكان وإنه لا بُدّ وأن يأتي دانيال إلى المطبعة. عندما رآه صاحب المطبعة يدخل قال له:

ـ كنت في صدد أن أكتب إليك. أنت تعرف أن أول سند يستحق دفعه بعد أربعة أيام.

فأجاب جاك دون أن يضطّرب: «لقد فكّرت في ذلك... منذ الغد سأقوم بجولة عند بائعي الكتب. عليهم أن يسلموني بعضاً من المال لقد سار المبيع بشكل رائع».

حينذاك، جحظ صاحب المطبعة عينيه الكبيرتين الزرقاوين

والألزاسيّتين ثم قال:

ـ ماذا؟... كان المبيع جيداً! من قال لك ذلك؟

فشحب جاك بعدما شعر بوجود كارثة. ثم أضاف الألزاسي:

ـ أنظر إلى تلك النسخ التي وضعت رزماً رزماً في الزاوية. إنها «المسرحية الرعائية». فبعد مرور خمسة أشهر على عرضها في السوق، لم تُبَعْ سوى نسخة واحدة. وفي النهاية مل باعة الكتب وأرسلوا لي النسخ التي كانت في حوزتهم. وفي الوقت الحاضر، كل ذلك لا يصلح سوى للبيع كورق إعتيادي. هذا مؤسف، لأنها طبعت بطريقة جيدة.

كل كلمة صدرت عن الرجل كان لها على جاك وقع ضربة عصا مصفحة بالرصاص. لكنه قضي عليه عندما علم بأن دانيال استدان مالاً من صاحب المطبعة مستغلاً اسمه للوصول إلى غايته.

ثم قال الألزاسي الذي لا يعرف الرحمة:

ـ الأمس بالذات أرسل لي زنجية مرعبة طالباً مني ليرتين. لكني رفضت بإصرار. أولاً لأن تلك الرسولة الغامضة، برأسها الشبيه بمنظف المداخن، لا توحي لي الثقة، ثم أنت تفهم وضعي يا سيد أيسات، لست غنياً، ولقد أقرضت أخاك أكثر من أربعمائة فرنك.

أجاب الأم جاك بفخر:

ـ أعلم ذلك، لكن لا تقلق سيعاد اليك مالك في أقرب وقت.

ثم خرج بسرعة مخافة أن يظهر تأثره. واضطر أن يجلس في الشارع على وتد، بعدما شعر بأنه لم يعد يقوى على السير. لقد هرب شقيقه، وفقد هو وظيفته، وعليه أن يعيد المال إلى صاحب المطبعة، وأن يدفع إيجار الغرفة، ودين البواب، وبعد غد يتوجب عليه دفع السند الأول. كل ذلك يهدر ويعصف في رأسه... فنهض فجأة وقال في نفسه: «علي أولاً أن أدفع الديون فهذا أمر يجب أن يبت سريعاً». ورغم سوء تصرف أخيه مع آل بياروت، توجه إليهم دون تردد.

عندما دخل جاك إلى مخزن لالوات القديم، رأى وراء الطاولة وجهاً كبيراً أصفر ومنتفخاً، لم يتعرف إليه باديء الأمر؛ لكنّ ذلك الوجه السمين انتصب بعدما فُتح الباب وحينما رأى الزائر صرخ قائلاً: «هذا ما أريد قوله». حينئذ عرفه فوراً... مسكين بياروت! لقد غيّره حزن ابنته كليّاً. فأن بياروت السابق المرح وذو الوجه الأحمر القرمزي، لم يُعد له وجود. لقد احمرّت عيناه وذاب خداه بسبب الدموع التي تذرفها صغيرته منذ خمسة أشهر. وعلى شفتيه، اللتين فقدتا لونهما، حلّت مكان ضحكة الأيام الخوالي الرائعة، بسمة باردة، صامتة كبسمة الأرامل والعاشقات المهجورات. لم يعد بياروت الرجل الذي نعهده.

في مخزن لالوات القديم لم يتغير سوى بياروت. فالراعيات والصينيون ذوو البطون الكبيرة البنفسجية ما زالوا يبتسمون بتقوى على الرفوف العالية، بين الكؤوس البوهيمية والصحون المزدانة

بالأزهار الكبيرة. أواني الحساء المنتفخة، والمصابيح المصنوعة من البورسلين الملوّن ما زالت تلمع وراء الواجهات. وفي الغرفة الخلفية ما زال المزمار ينوح برصانة.

قال الأم جاك بعزم.

ـ هذا أنا يا بياروت، جئت أطلب منك خدمة كبيرة. اقرضني ألفاً وخمسمائة فرنك.

فتح بياروت صندوقه دون أن يجيب وعبث ببعض الدراهم، ثم نهض بهدوء بعدما أقفل الدرج وقال:

لا أملك هنا يا سيد جاك تلك الكمية من المال. انتظرني هنا سأصعد وآتي بها.

ثم أضاف بمضض قبل أن يخرج:

لا أدعوك للصعود لأن ذلك سيؤلمها كثيراً.

تنّهد جاك وقال:

ـ معك حق يا بياروت؛ من الأفضل أن لا أصعد:

عاد بياروت بعد خمس دقائق ومعه ورقتان ماليتان تساوي كلٍ واحدة منهما ألف فرنك، ثم سلمهما إلى جاك. حاول هذا أن لا يأخذها قائلاً: «إني أحتاج فقط إلى ألف وخمسمئة فرنك».

لكن بياروت أصرّ على موقفه بقوله:

ـ أرجوك يا سيد جاك أن تحتفظ بها كلها. إن مبلغ الألفي فرنك يعني لي الكثير، فهي الكمية التي أقرضتني إياها الآنسة في

السابق وقد دفعتها لرجل لينوب عني في الخدمة العسكرية. وإن رفضت، أجل هذا ما أريد قوله، لن أغفر لك.

لم يجرؤ جاك أن يرفض؛ وضع المال في جيبه ومدّ يده إلى بياروت قائلاً ببساطة:

الوداع يا بياروت وشكراً!

فأمسك بياروت بيده. وبقيا على هذا النحو بعضاً من الوقت، متأثرين وصامتين، الواحد قُبالة الآخر. أراد الإثنان أن يلفظا اسم دانيال، لكنهما لم يجرؤا على ذلك، لأن كلاً منهما أراد أن يراعي شعور الآخر... فذاك الأب وتلك الأم يفهمان جيداً بعضهما البعض!... فانسحب جاك أولاً بلطف لأنه شعر بأن دموعه ستنهمر؛ وأراد أن يخرج بسرعة. رافقه بياروت لغاية الممرّ، وحينما وصل إلى هناك لم يعد في وسع الرجل المسكين أن يكبُت مدة أطول الحزن الذي يملأ قلبه. ثم بدأ يتكلم بنبرة تأنيبية: «آه! يا سيد جاك... يا سيد جاك... ما أريد أن أقوله!...». لكنه لم يتمكن من متابعة التعبير من شدة تأثره، ولم يتوصل إلا إلى تكرار تلك الجملة مرتين متتاليتين: «ما أريد أن أقوله... ما أريد أن أقوله...».

أوه! أجل لقد أجاد القول!...

ذهب جاك عند صاحب المطبعة بعدما ودّع بياروت.. رغم اعتراضات «الألزاسي»، أراد أن يعيد إليه فوراً الأربعمئة فرنك التي أقرضها لدانيال. علاوة على ذلك، ولكي لا يقلق بعد الآن،

سدّد قيمة السندات الثلاثة. عندئذ شعر بارتياح فقال في نفسه: «لنبحث عن الصبي». ولسوء الحظ، أصبح الوقت متأخراً جداً للبحث في النهار نفسه. على كل حال فإن الأم جاك المسكينة تشعر بأنها خائرة القوى بسبب السفر، والتأثر، والسعال الناشف والمستمر الذي يقتلها ببطء. لذا اضطر أن يعود إلى شارع بونابرت ليرتاح قليلاً. عندما دخل إلى الغرفة الصغيرة ورأى على ضوء شمس تشرينية عجوز جميع تلك الأشياء التي تذكره بدانيال: طاولة الأبيات الشعرية أمام النافذة، كأسه، محبرته، غلايينه القصيرة كالتي يستعملها الأب جرمان؛ وعندما سمع أجراس سان جرمان الطيبة تقرع وقد أبح الضباب صوتها، وحينما قرعت أجراس المساء - تلك الأجراس الحزينة التي طالما أحبها دانيال - ورفرفت قرب النافذة الرطبة؛ بعد كل ذلك قاست الأم جاك الأمرّين؛ وما عانته، تستطيع أن تعبّر عنه...

جال مرتين أو ثلاثاً في الغرفة، ففتش أينما كان، وفتح جميع الخزانات على أمل العثور بشيء ما ليدله على مكان الهارب. لكنه للأسف وجد الخزانات فارغة. لقد ترك دانيال قمصاناً وثياباً داخلية قديمة، أشياء ممزّقة وبالية. فالغرفة بأكملها توحي بحلول كارثة وبالهجر. لم يرحل بل هرب. كان هنالك، في زاوية وعلى الأرض، شمعدان. ووجد في المدخنة، تحت كومة من الورق المحروق، علبة بيضاء ذات خيوط ذهبية. لقد عرف تلك العلبة، فقد كانت توضع فيها رسائل سوداء العينين. أما الآن فإنه وجدها

تحت الرماد. يا للتجديف! وفيما هو يتابع تفتيشه، وجد في أحد جوارير الطاولة بضعة أوراق يعلوها خط غير مُنتظم، محموم، وهو خط دانيال عندما يكون مُلهمًا. فقالت الأم جاك في نفسها وهي تقترب من النافذة لكي تقرأ: «لا شك أنها قصيدة» هي بالفعل قصيدة، قصيدة حزينة تبدأ على النحو الآتي:

«لقد كذبت عليك يا جاك. أكذب عليك منذ شهرين».

تلك الرسالة لم تُرسَلْ، لكنها وصلت إلى المُرسل إليه كما نرى. فهذه المرة قام القدر بعمل البريد.

قرأ جاك الرسالة بأكملها. وعندما وصل إلى المقطع الذي يتحدث عن عقد عمل في مونتبارناس، وقد اقترح بإصرار ورُفِض بحزم، قفز من الفرح وصرخ قائلاً:

أعرف أين هو.

وبعدما وضع الرسالة في جيبه، اضطجع مطمئن البال. لم ينم، رغم أنه منهمك، وذلك بسبب السعال اللعين الذي لا يفارقه. وعند بزوغ الفجر، فجر خريفي كسول وبارد، نهض برشاقة. لقد صمّم خطّته.

إلتقط الخِرَق التي بقيت في قعر الخزانة ووضعها في حقيبته، ودون أن ينسى العلبة الصغيرة ذات الخيوط الذهبية، وودع لآخر مرة برج سان جرمان القديم وخرج بعدما ترك كل شيء مفتوحاً: الباب، النافذة، والخزائن، لكي لا يبقى شيء من حياتهما الجميلة في هذا المنزل الذي سيسكنه أشخاص آخرون من الآن فصاعداً،

في أسفل المبنى، أعلم البواب بعزمه على ترك الغرفة، ودفع أقساط الإيجار المتأخرة. ودون أن يجيب عن أسئلة البواب المخادعة، أوقف عربة مارة، وذهب إلى فندق «بيبلوا»، شارع «ديدام» في «الباتينيول».

يهتم بإدارة هذا الفندق أحد أشقاء «بيبلوا» العجوز، طباخ المركيز. لا يؤجرون سوى لأشخاص موصى بهم ولفترة ثلاثة أشهر فقط. لذا فإن هذا الفندق يتمتع في الحي بسمعة مميزة. والسكن في فندق «بيبلوا» هو في ذاته شهادة حسن سلوك. وجاك الذي كسب ثقة طباخ منزل «أكوفيل»، جلب مراراً من الأخير لأخيه سلّة نبيذ من «مرسالا».

تلك التوصية كانت كافية. فحينما طلب بخجل أن يكون من عداد المستأجرين، أعطي دون تردد غرفة جميلة، في الطابق السفلي، وذات نافذتين تطلان على حديقة الفندق، كنت على وشك أن أقول الدير. الحديقة ليست كبيرة، وتضمّ ثلاثة أو أربعة أشجار طلح، ومربعاً من الخضرة الفقيرة ـ خضرة «الباتينيول» ـ وشجرة تين بلا تينا، وكرمة مريضة وبضع نبتات من الأقحوان. لكن هذا يكفي لإضفاء جو مرح على تلك الغرفة الحزينة قليلاً والرطبة بطبيعتها...

جهز جاك الغرفة للسكن دون أن يضيّع دقيقة واحدة. فغرز في الجدران مسامير عدة، ورتّب الثياب الداخلية والقمصان، وحضر مشكاً لغلايين دانيال، علّق صورة السيدة أيسات فوق

السرير، وأخيراً عمل جهد ليقضي على الابتذال الذي يدحرج الشقق المفروشة. عندما انتهى من التنسيق، تناول غداءه بسرعة، وخرج بعد ذلك مباشرة. فيما هو مار، أعلم السيد بيبلوا بأنه ربما سيتأخر في العودة هذا المساء، استثنائياً، وطلب منه، مترجياً، أن يحضر في غرفته عشاء ناعمًا، وأن يأتي بطبقتين وبنبيذ معتق. عوض أن يفرح بهذا المصروف الإضافي، احمر السيد بيبلوا الطيب ككاهن حديث العهد، وقال مرتبكاً:

ـ الواقع... لا أعلم إن... أنظمة الفندق ترفض... عندنا رجال دين...

فابتسم جاك وقال:

ـ آه! حسناً. لقد فهمت... لقد أرعبك الطبقان... إطمئن يا عزيزي السيد بيبلوا، إن الأمر لا يتعلق بإمرأة.

وقال في سره وهو ذاهب إلى مونتبارناس:

«معه حق، إنها امرأة، إمرأة غير شجاعة، طفل غير مدرك، لا يجب أن يترك وحيداً بعد اليوم».

لا أعرف لماذا كانت أمي جاك واثقة كل تلك الثقة من إيجادي في مونتبارناس. كان في إمكاني مغادرة ذلك المسرح بعد مرور الوقت الذي كتبت فيه الرسالة الرهيبة التي لم أرسلها. كما أنه من المحتمل أن لا أكون قد دخلت إليه بتاتاً... لكن لا! غريزة الأم قادته. إقتنع اقتناعاً كلياً بإيجادي هناك، وبإعادتي في المساء نفسه، ففكر عن حق قائلاً: «يجب أن يكون بمفرده لأخطفه، وأن

لا تشك تلك المرأة بشيء ما». وهذا ما منعه من الذهاب مباشرة إلى المسرح للاستفسار. فالكواليس ثرثارة، وكلمة واحدة كفيلة بأن تقضي على المشروع... ففضّل بكل بساطة أن يستوضح الأمور عن طريق الإعلانات، وهذا ما فعله بسرعة. فإعلانات إستعراضات الضاحية توضع على أبواب باعة النبيذ في الحي، وراء شباك ذي شعرية، فهي كإعلانات الزواج تقريباً في قرى الألزاس.

وبينما هو يقرأها صرخ جاك من الفرح، فمسرح مونتبارناس يقدم في ذلك المساء: «ماري ـ جان». مأساة من خمسة فصول، تمثيل: السيدات: «إيرما بوريل، دزيريه لوفرو، غينيه، ألخ». ويُعرض قبل تلك المأساة: «حب وخوخ مجفف»، كوميديا من فصل واحد، تمثيل السيدين «دانيال، أنطونين» والآنسة «ليونتين».

فقال في نفسه: كل شيء يسير على أحسن ما يرام. إني متأكد من نجاح الخطوة التي سأقوم بها لأنهما لا يمثلان معاً في المسرحية ذاتها.

دخل إلى مقهى في «لوكسومبور» في انتظار ساعة الخطف.

عندما حلّ الليل ذهب إلى المسرح، وكان العرض قد بدأ. سار زهاء ساعة في الرواق الكبير، أمام الباب، ومع حراس البلدية.

من حين إلى آخر، يعلو تصفيق من الداخل فيطرق سمعه كهطول البرد في البعيد فينقبض قلبه عندما يفكر أنها ربما حركات

أخيه المُضحكة التي يصفقون لها على هذا النحو. . . نحو الساعة التاسعة، خرج جمع غفير محدثاً جلبة كبيرة في الشارع. لقد انتهى «الفودفيل» لتوّه، كان هنالك أشخاص يضحكون. يصفرون لبعضهم البعض ويتنادون قائلين: هاي. . . «بيلويت. . . لالايتو»! فيسمع صياح حديقة الحيوانات الباريسية. . . أن خروجهم طبعاً ليس على غرار الإيطاليين!

انتظر مدة بعد تائهاً في تلك الزحمة، عندما شارفت فترة الاستراحة على الانتهاء، وعندما دخل الجميع إلى الصالة، مشى في رواق أسود ولزج بجانب المسرح ـ مدخل الفنانين ـ وطلب أن يتحدث إلى السيدة إيرما بوريل. فقيل له:

ـ مستحيل، أنها الآن على خشبة المسرح. . . .

إن الأم جاك داهية في الذكاء! فأجاب بهدوء تام:

ـ بما أني لا أستطيع أن أرى السيدة إيرما بوريل، أرجوكم أن تستدعوا السيد دانيال لأنه سيكون صلة الوصل بيني وبينها.

وبعد دقيقة، استعادت الأم جاك طفلها وأخذته بسرعة قصوى إلى الطرف الثاني من باريس.

XIV

الحُـلـم

قالت لي أمي جاك ، عندما دخلنا الى الغرفة في فندق «بيبلوا» .

ـ أنظر يا دانيال ، إن هذه الليلة كليلة وصولك الى باريس !

وبالفعل ، تماماً كتلك الليلة ، كان في انتظارنا وليمة صغيرة على غطاء ناصع البياض : فرائحة اللحم شهية ، ويبدو النبيذ عريقاً ، وشعلة الشموع المتوّهجة تضحك في قعر الكؤوس . . . لكن لم تعُدْ الأشياء على حالها ! هنالك أوقات سعيدة لا تتكرّر . الوليمة هي هي ، ولكن تنقصها براءة ضيوفنا القدامى ، حرارة الإشتياق ، مشاريع العمل ، أحلام المجد ، وتلك الثقة الراسخة التي تُضحك وتُشعر بالجوع . لم يأت للأسف أحد من اولئك المدعوين ، الذين أتوا في الماضي الى وليمة منتصف الليـل . والحقيقة انهم هذه المرة رفضوا المجيء عند السيد بيبلوا. لقد مكثوا جميعهم في برج اجراس سان جرمان ؛ حتى ان سيدة

« البوح باسرار القلب » التي وعدت بالمجيء ، إعتذرت في اللحظة الاخيرة عن عدم الحضور .

أوه ! لم يعُدْ الأمر كما كان عليه . وبدل أن أفرح فإن ملاحظة جاك جعلتني أبكي بغزارة . أنا متأكد من أنه هو ايضاً يشعر ، ضمناً ، برغبة كبيرة في البكاء . لكنه تمالك أعصابه بشجاعة ، وقال لي بخفّة متكلّفة : « هيا يا دانيال ! كفاك بكاء ! منذ ساعة لم تفعل شيئاً سوى البكاء . (في العربة وفيها هو يكلمني ، لم أكفَّ عن البكاء على كتفه) . انه لاستقبال غريب ! انك تذكرني بوضوح بأسوأ أيام حياتي ، أي بالغِراء وبـ : «جاك أنت حمار ! » هيا ! جفّف دموعك أيها التائب الشاب ، وانظر الى نفسك في المرآة فذلك سيضحكك » .

نظرت الى نفسي في المرآة ، لكني لم أضحك ، بل خجلتُ . . . فالشعر المستعار الأصفر التصق بجبيني ، والمساحيق الحمراء والبيضاء تغطي خدي ، وبكل ذلك امتزج العرق والدموع . . . كان ذلك قبيحاً ! إنتزعت الشعر المستعار باشمئزاز ! هممتُ بأن أرميه ، لكني فكرت قليلاً ، ثم علّقته في منتصف الجدار . نظر إليّ جاك بدهشة ، وقال : لماذا تضعه في هذا المكان يا دانيال ؟ كأنه غنيمة محارب هندي . . . نبدو كأننا سلخنا رأس « بوليشينال » .

فأجبته بوقار : « لا يا جاك ! انه ليس بغنيمة . إنه تبكيت ضميري . ونَدَمي الحسّي والمرئيّ الذي أريد أن أراه دوماً أمامي » .

ارتسمت بسمة حزينة على شفتي جاك ، لكنه استعاد مرحة بسرعة وقال ، « مَهْ ! لندع ذلك جانباً ، الآن وقد غسلت وجهك ، ورأيت من جديد رأسك العزيز ، فلنجلس الى المائدة يا جميلي الأشعث لأني أكاد أموت من الجوع » .

ليس هذا صحيحاً ؛ لم يكن جائعاً . ولا أنا ، يا إلهي ! حاولت أن أبدو مرحاً في تلك الوليمة ، لكني لم أتمكن من هضم ما آكله ، ورغم جهودي لأظل هادئاً ، بللتُ قطعة اللحم التي أمامي ، بدموع صامتة . وجاك ، الذي يراقبني بطرف عينه ، قال لي بعد مرور وقت قصير : « لماذا تبكي ؟ . . . أأنت نادم لأنك هنا ؟ هل حقدت عليَّ لأني خطفتك ؟ . . . »

أجبته بحزن : « كلامك سيىء يا جاك ! لكني سمحت لك بأن تكون صريحاً معي » .

تابعنا تناول الطعام فترة من الوقت ، أو بالأحرى تظاهرنا بذلك . وفي النهاية عِيلَ صبر جاك من تلك المسرحية التي نحن أبطالها ، فوضع صحنه جانباً ثم نهض قائلاً « من المؤكد ان الوليمة غير ناجحة ، والأفضل أن ننام . . . »

هنالك مثل شعبي عندنا يقول : « الألم والنعاس لا يتفقان » وهذا ما ادركته في تلك الليلة . إن عذابي هو وليد تفكيري في الخير ، الذي قدّمته لي أمي جاك ، وفي السوء الذي بادلتها به ؛ ووليد مقارنة حياتي بحياته ، أنانيّتي التي لا تتوافق مع إخلاصه ، نذالتي التي تتناقض مع بطولته ، خاصة بعدما اعتنق شعار : « لا

يوجد غير سعادة واحدة في العالم ، وهي سعادة الآخرين » .
تعذّبت أيضاً عندما قلت لنفسي : « لقد فَسدُت الآن حياتي .
فقدت ثقة جاك ، حب العينين السوداوين واعتباري لنفسي . . .
ماذا سيحلّ بي؟» .

هذا الألم الرهيب الذي يحزّ في قلبي ، أبقاني مستيقظاً حتى الصباح . . . جاك أيضاً لم ينم . سمعته يدور برأسه يمنةً وشمالاً على وسادته ، ويسعل سعالاً ناشفاً حذف عيني . سألته مرة بلطف : « أنت تسعل يا جاك ! هل أنت مريض ؟ . . . » فأجابني : « ليس بي شيء نَمْ . . . » . وفهمت من وراء نبرته انه غاضب مني رغم هدوئه الظاهري . تلك الفكرة ضاعفت حزني ، فعدتُ الى البكاء بمفردي تحت غطائي . بكيتُ كثيراً وأخيراً غفوتُ . إذا كان الألم عائقاً للنوم فالدموع مُخدِّرة .

عندما استيقظت ، كانت الشمس مشرقة . لم أجِد جاك بجانبي ، حسبت انه خرج . ولكن عندما أزحت الستائر ، رأيته في الطرف الثاني من الغرفة نائمًا على اريكة وشاحباً ، أوه ! كم هو شاحب . . . لا أدري ما هي تلك الفكرة الرهيبة التي خطرت لي ، فصرخت وأنا مُنطلق نحوه : « جاك ! » . . . إنه نائم وصرختي لم توقظه . وغريب ان يظهر على وجهه ، خلال النوم ، ذلك الألم الحزين الذي لم أعهده فيه رغم اني الفتُ الحزن والعذاب ، تألّمت حين رأيت ملامحه التي نحُلَتْ ، وجهه الطويل ، شحوب خدّيه ، وشفافية يديه المسقامة . لكن سبق لي ان شعرت بذلك .

إلّا ان جاك ، لم يمرض في يوم من الأيام . ولم أر تحت عينيه هذه النصف دائرة المائلة الى الزرقة ، وهذا الوجه الهزيل . . . في أي عالم سابق رأيت تلك الأشياء ؟ . . . فجأة تذكرت الحلم الذي يراودني باستمرار . أجل ! هذا تماماً ما رأيته ، هوذا جاك الحلم ، شاحباً شحوباً رهيباً ، ممُدّداً على أريكة وقد مات لتوّه . . . لقد مات جاك يا دانيال أيسات وأنت قتلته . . . في تلك اللحظة ، دخل شعاع الشمس الرمادي بخجل من النافذة ، وركض كحرزوْن على هذا الوجه الشاحب الميْت . . . أوه ! ما هذه الرؤيا اللطيفة ! لقد استفاق الميت، فرك عينيه ؛ وحينها رآني واقفاً أمامه ، قال لي ببسمة مرحة :

ـ صباح الخير يا دانيال ! هل نمتَ جيداً ؟ لقد سعلتُ كثيراً ، لذا استلقيت على هذه الأريكة لكي لا أوقظك .

وفيما هو يحدثني بهدوء تام ، شعرت بأن رجلّي ما زالتا ترتجفان تحت وطأة الرؤيا الرهيبة التي رأيت قبل قليل ، فقلت في أعماقي :

ـ «يا إلهي السرمدي ، إحفظ لي والدتي جاك ! » .

رغم هذا الاستيقاظ الحزين. مرت الصبيحة بفرح نسبي. حتى اننا استرجعنا صدى الضحكات القديمة، عندما أدركت وأنا أرتدي ثيابي انني املك فقط سروالاً قصيراً من القطن وصُدرة حمراءة ذات رفارف كبيرة، ثياب مسرحية رثة كنت أرتديها عندما خطفت فقال جاك:

ـاللعنة! لا يفكر المرء في كل الامور. فقط الدون جوان الذي يفتقر الى أصول المراعاة، يفكر في جهاز العروس عندما يخطفها. لكن لا تخف. سنشتري لك ثياباً جديدة... تماماً كما فعلنا عند وصولك الى باريس.

قال ذلك ليفرحني، لأنه شعر مثلي بأن الأمور قد تبدلت.

أضاف جاك الطيب عندما رآني أستسلم من جديد الى التفكير العميق:

ـهيا يا دانيال، فلننس الماضي. ها حياة جديدة شرعت لنا أبوابها، فلندخل دون ندم، ودون حذر لنحاول فقط أن نتحاشى الوقوع في المكائد نفسها... لن أسألك يا أخي عن مشاريعك لكني أشعر بأنه لو اردت أن تباشر نظم قصيدة جديدة، فالمكان هنا جيد للعمل. الغرفة هادئة، وثمة عصافير تغني في الحديقة. ستضع الطاولة أمام النافذة...

قاطعته بقوة قائلاً:

ـلا يا جاك! لن أنظم الشعر بعد اليوم. فالقصائد تكلفك غالياً. ما أريده الآن هو أن أعمل مثلك، فأكسب عيشي وأساعدك بكل قواي لاعادة بناء المنزل العائلي.

أما هو فقد أجابني مبتسماً وبهدوء:

ـتلك فكرة رائعة يا حضرة الفراشة الزرقاء، لكن ليس هذا المطلوب. وليس عليك أن تكسب عيشك، آه! لو تعد فقط... لكن سنتحدث عن ذلك لاحقاً... هيا لنشتري ثيابك.

ولكي أخرج اضطررت أن ارتدي احدى ستراته التي تصل
لى كاحلي، فبدوت كعازف قروي، ولم يكن ينقصني سوى
لعود. لو كان علي قبل أشهر أن أجوب الشوارع في لباسٍ مماثل
ـت من الخجل. لكن في الوقت الحاضر، شغلت رأسي مخاوفٍ
كثيرة، وفي وسع النساء أن يسخرن مني عند مرورهن قربي،
ذلك لا يهمني لأن الأمر لم يعد كما كان في السابق، عندما كنت
رتدي الحذاء المطاطي... أوه! لا! لقد تغيرت أشياء كثيرة.

قالت لي الأم جاك عند خروجنا من مخزن بائع الخرق:

ـالآن وقد أصبح مظهرك لائقاً، سأعيدك الى فندق بييلوا.
ـم سأذهب لأرى ان كان بائع الحديد، الذي تسلمت دفاتر
حساباته قبل رحيلي، مازال يريد أن يوظفني... فمال بياروت
لن يدوم الى الأبد، يجب أن أفكر في المصاريف.

وددت أن أقول له: «حسناً يا جاك، اذهب عند بائع
الحديد، أستطيع العودة بمفردي الى المنزل» لكني أدركت معنى
تصرفه. يريد أن يتأكد من اني لن أعود الى مونتبارناس. آه! لو
استطاع ان يقرأ مافي قلبي... ولأطمئنه، سمحت له أن يعيدني
الى الفندق. لكني خرجت فور ذهابه. كان علي أنا ايضاً أن
أشتري بعض الحاجات...

عندما عدت كان الوقت قد أصبح متأخراً. رأيت ظلاً أسود
كبيراً يتمشى بقلق في الحديقة التي يغلفها الضباب. تلك كانت
الأم جاك. قال لي مرتجفاً:

ـحسناً فعلت بالمجيء. أوشكت أن اذهب الى مونتبارناس . .

قلت بغضب:

ـأنت تشكك فيّ يا جاك، لماذا تقسو علي؟ أسنبقى هكذا دائماً؟ ألن تثق فيّ يوماً؟ أقسم لكِ بأعز شيء عندي في العالم أني لست آتياً من المكان الذي تفكر فيه، وان تلك المرأة ماتت بالنسبة لي، لن أراها ابداً، لقد استعدتني بكاملي، وهذا الماضي الرهيب الذي خلصتني منه بعطفك لم يترك في قلبي سوى الندم، ولم أتأسف على فقدانه. . . ماذا يجب أن أضيف الى ما قلته لأقنعك؟ آه منك أيها الشرير! أود أن أشق لك صدري لترى اني لا أكذب.

لم أحفظ ما قاله لي، لكني أتذكر اني رأيته في الظلام يهز رأسه بحزن، كأنه يقول: «للأسف! أود أن اصدقك. . .» مع اني كنت صادقاً في كلامي. لاشك اني لو تركت وحدي لما وجدت الشجاعة الكافية لاتخلص من تلك المرأة، لكن الآن، وبعدما انكسر هذا القيد أشعر بارتياح يعجز اللسان عن وصفه. ان وضعي ينطبق على أولئك الأشخاص الذين يحاولون أن ينتحروا برائحة الفحم، ويندمون على فعلتهم في آخر لحظة، وعندما يفوت الأوان، فيشد الاختناق الحصار عليهم ويشلهم عن الحركة. وفجأة يأتي الجيران ويكسرون الباب، فيجري الهواء

المنقذ في الغرفة، عندئذ يتنشقه المنتحرون المساكين بلذة، وهم سعداء لأنهم ما زالوا على قيد الحياة، ويعدون بأن لا يكرروا ما فعلوه. أنا أيضاً أرشف بقوة هواء الحياة الشريفة النقي والمتين، بعد خمسة أشهر من الاختناق الأخلاقي، فأملأ به رئتي، وأقسم بالله أنه ليس لي نية العودة الى حياتي السابقة.

هذا ما لا يريد جاك أن يصدقه، وكل قسم العالم غير قادر على اقناعه بصدقي... مسكين! لقد اسأت اليه كثيراً!

أمضينا سهرتنا الأولى بجانب النار كما في الشتاء، لأن غرفتنا رطبة، وضباب الحديقة اخترق عظامنا. ثم كما تعلمون، عندما يكون المرء حزيناً يرتاح لرؤية اللهيب... كان جاك يعمل ويحصي أرقاماً. أثناء غيابه، أراد بائع الحديد أن يهتم شخصياً بدفاتر حساباته، فنتج عن ذلك خط غير مقروء وأخطاء حسابية تحتم شهراً كاملاً من العمل المتواصل لاعادة الأشياء الى نصابها. أود من كل قلبي أن أساعد والدتي جاك في حل تلك المسائل الحسابية. لكن الفراشات الزرقاء لا تفهم شيئاً في الحساب. أمضيت ساعة محاولاً فك رموز دفاتر التجارة الكبيرة الممتلئة بالخطوط الحمراء، والمثقلة بالرسوم الغريبة، لكني لم أفلح، فتخليت عن تلك المهمة.

أما جاك فكان يبرع في ذلك العمل الممل. يحاول ورأسه منحن أن يجد حلاً للأعداد الكبيرة، ولم يكن يخشى الاعمدة الحسابية الكبيرة. من وقت الى آخر، وفيما هو يعمل، ينظر اليَّ

ويقول لي بعد أن يقلق من تخيلاتي الصامتة:

ـنحن على ما يرام أليس كذلك؟ انك لا تمل على الاقل؟

لم اكن أمل، بل كنت حزيناً لرؤ يته يكد في العمل، وأفكر بمرارة قائلاً: «لماذا أعيش؟... لا أجيد القيام باي عمل يدوي... ولا أدفع ثمن المكان الذي أشغله. لا أجيد سوى تعذيب من حولي واستذراف دموع العيون التي تحبني». وفيما أقول ذلك فكرت في سوداء العينين، ونظرت بألم الى العلبة الصغيرة ذات الخيوط المذهبة التي وضعها جاكـ ربما عن قصدـ على قبة الساعة المربعة. تلك العلبة تذكرني بأشياء كثيرة! وكم من خطب بليغة ترسلها الي من علياء قاعدتها البرونزية! فتقول لي: «لقد أعطتك سوداء العينين قلبها فماذا فعلت به؟... لقد أعطيته فريسة للبهائم... ان كوكو بلان هي التي أكلته».

أما أنا فقد احتفظت بشعاع من الأمل في قلبي، وحاولت أن أعيش مجدداً، وأن أحيي جميع تلك الأفراح القديمة التي قتلتها بيدي. وفكرت قائلاً: «نّ كوكو بلان هي التي أكلته!... ان كوكو بلان هي التي أكلته»!...

... تلك الامسية الحزينة الطويلة التي أمضيناها أمام النار، في العمل وفي الاحلام، تعطيكم نموذجاً واضحاً عن الحياة الجديدة التي سنقضيها من الآن فصاعداً. فجميع الأيام التي توالت تشبه تلك الأمسية... ان جاك لم يكن طبعاً يسترسل في الأحلام. بل ينكب على دفاتره الكبيرة نحو عشر ساعات

متتالية، محاولاً ايجاد حل للعقد الحسابية. أما أنا فخلال هذا الوقت أحرك الحطب، وفيما أحركه أقول للعلبة الصغيرة ذات الخيوط الذهبية: «لنتحدث قليلاً عن العينين السوداوين! اترغبين؟...» لأنه من المستحيل التحدث عنها مع جاك. فهو، لسبب أو لآخر، يتحاشى التحدث بهذا الموضوع. لم ينطق بكلمة عن بياروت، لا شيء بتاتاً... لذا ثأرت لنفسي بواسطة العلبة الصغيرة، وكانت أحاديثنا تكاد لا تنتهي. في منتصف النهار تقريباً، وعندما أرى «امي» تعمل بنشاط، أتوجه نحو الباب بخفة وأخرج بهدوء قائلاً: «الى اللقاء يا جاك!» لم يسألني يوماً اين أذهب، ولكن عندما أراه حزيناً وأسمعه يقول لي بقلق: «هل انت ذاهب؟» أدرك انه لا يثق بي، ففكرة الوقوع من جديد في حبائك تلك المرأة اصبحت هاجسه الدائم، وهو يفكر في نفسه قائلاً: «سيقضى علينا ان رآها من جديد...» ومن يدري؟ ربما كان على حق. ربما لو رأيت من جديد تلك الساحرة لأصبحت أسير سحرها الذي تمارسه على نفسي المسكينة بشعرها الذهبي الشاحب وعلامتها الفارقة البيضاء على طرف الشفة... لكني، والحمد لله، لم أرها مجدداً. لا شك أن سيد «من الثامنة الى العاشرة» قد أنساها حبيبها «داني دان» ولم أعد أسمع شيئاً عنها ولا عن الزنجية كوكو بلان التي تعمل عندها.

ذات مساء، وعند عودتي من احدى جولاتي الغامضة، دخلت

الى الغرفة فصرخت من الفرح قائلا:

ـجاك! جاك! نبأ سار. لقد وجدت عملاً... منذ عشرة أيام وأنا أجوب الشوارع بهذا الشأن دون أن أقول لك شيئاً... اخيراً وجدت عملاً... منذ الآن ـ سأبدأ كمراقب عام في مدرسة «أولي» في «مونمارتر» بالقرب من هنا... سأذهب في السابعة صباحاً حتى السابعة مساء... سأقضي بذلك وقتاً كبيراً بعيداً عنك، لكني سأكسب عيشي على الأقل وسأريحك قليلاً.

رفع جاك رأسه وأجابني بجفاء:

ـأحسنت يا عزيزي بتصميمك على مساعدتي... فالعبء ثقيل علي بمفردي... لا أعلم ماذا بي، لكني أشعر منذ فترة بأني مريض.

لم يتمكن من متابعة كلامه بسبب السعال الحاد الذي انتابه. فترك ريشته بحزن وألقى بنفسه على الأريكة... عندما رأيته ممدداً، شاحباً شحوباً مرعباً، مرت من جديد أمام ناظري رؤيا حلمي المرعبة، لكنها مرت بسرعة كلمح البصر... بعد ذلك مباشرة نهضت امي جاك وضحكت حين رأتني مذعوراً:

ـليس بي شيء أيها الأبله! اني تعب قليلاً. لقد عملت كثيراً في الآونة الأخيرة... الآن وقد وجدت عملاً سأخفض ساعات العمل وسأشفى خلال ثمانية أيام.

قال ذلك ببساطة وبوجه ضاحك، مما سمح لافكاري الحزينة

التي يحدثني بها قلبي بأن تطير؛ ومر شهر كامل دون أن أسمع خفقان اجنحتها السوداء في رأسي . . .

في اليوم التالي دخلت الى مدرسة «أولي»

رغم اسمها المفخم، فان مدرسة «أولي» صغيرة ولا تملك مستوى ثقافياً لائقاً. تديرها امرأة عجوز يدعوها الاولاد «الصديقة الطيبة» كان هنالك حوالي عشرين ولداً، لكنهم في الحقيقة صغار جداً كاولئك الذين يأتون الى الصف واضعين فطورهم في سلة.

اولئك كانوا تلامذتنا. السيدة «أولي» تعلمهم التراتيل، أما أنا فقد درستهم حروف الابجدية الغامضة بالنسبة اليهم. كنت مسؤولاً كذلك عن مراقبتهم خلال فترة الاستراحة، في ملعب يحتوي على دجاج وعلى ديك حبشي يرعب أولئك السادة.

أحياناً أيضاً، عندما تمرض «الصديقة الطيبة»، كنت أكنس الصف. هذا عمل لا يليق بمراقب عام، لكني أقوم به دون اشمئزاز من فرط سعادتي بتمكني من كسب عيشي . . . في المساء عندما أعود الى فندق بييلوا، أجد العشاء جاهزاً والأم جاك في انتظاري . . . بعد العشاء نجول قليلاً في الحديقة بخطوات كبيرة، ثم نمضي السهرة قرب النار . . . هذه صورة مفصلة عن حياتنا . . . من حين إلى آخر، نتلقى رسالة من السيد او من السيدة ايسات؛ وتلك الرسائل تشكل حوادث مهمة. ما زالت

السيدة ايسات تعيش عند العم باتيست؛ ومازال السيد ايسات يسافر لحساب شركة تصنيع النبيذ، والاعمال لا بأس بها. وقد سددت معظم ديون ليون. خلال سنة أو سنتين سينظم كل شيء، وسنتمكن من التفكير في استئناف العيش كلنا معاً...

أردت في انتظار ذلك الوقت أن آتي بالسيدة ايسات لتعيش معنا في فندق بييلر، لكن جاك رفض اقتراحي. كان يقول لي دائمًا بطريقة غريبة:

-لا! لم يحن الوقت بعد، ليس بعد... لننتظر!

تلك الاجابة التي تتكرر دوماً حزت في قلبي. وكنت اقول في نفسي: «انه يحترس مني... يخشى أن أقوم بعمل طائش عندما تصبح السيدة ايسات معنا... لذلك يريد أن ننتظر...» لقد أخطأت التقدير... فليس من اجل ذلك قال جاك: «لننتظر».

XV

(. . . . . . .)

أيها القارىء ، إن كنت ذا عقل ثاقب، ولا تؤمن بالأحلام، ولم تُصبْ بهاجس التنبؤات المشؤومة، إن كنت رجلاً إيجابياً صلبا لا تتأثر سوى بالواقع ولا تدع سبيلاً إلى الإعتقادات الباطلة لتغزو رأسك، إن رفضت رفضاً قاطعاً الإعتقاد بما هو فوق الطبيعة، وقبول اللا ممكن شرحه، لا تكمل قراءة هذه المذكرات. ما بقي علي أن أقوله في تلك الفصول الأخيرة هو حقيقي كالحقيقة الأبدية، لكنك لن تصدّقه.

حدث ذلك في الرابع من كانون الأول. . .

رجعت من مدرسة «أولي» بعدما أسرعت في المجيء أكثر من العادة .في الصباح تركت جاك في المنزل وهو يتشكى من تعب شامل، لذا أضنيت لرغبتي في معرفة أحواله. وبينما كنت أجتاز الحديقة، وقعت أمام السيد بيبلوا الواقف أمام شجرة التين وهو يتحدث بصوت خافت مع شخص ضخم قصير ذي يدين كبيرتين ويجد صعوبة في تزرير قفازيه.

أردت أن أعتذر وأن أكمل طريقي لكن صاحب الفندق إستوقفني قائلاً:

ـ أريد أن أقول لك شيئاً يا سيد دانيال!

ثم استدار نحو الآخر وأضاف:

ـ هذا هو الشاب الذي كلمتك عنه. أعتقد أنه عليك أن تبلغه بما حصل...

توقفت راغباً في معرفة المزيد: ماذا يريد أن يقول لي هذا الرجل السمين؟ إن قفازيه ضيقان ويجد صعوبة في ارتدائهما؟ اللعنة! لقد لاحظت ذلك جيداً.

مرّت فترة صمت وانزعاج. رفع السيد بيبلوا رأسه ونظر إلى شجرة التين كأنه. يبحث عن بعض الثمار التي لا وجود لها أصلاً. والرجل السمين مازال يحاول تزرير قفازيه... لكنه نطق أخيراً ودون أن يترك أزراره وشأنها. قال:

ـ يا سيدي، أنا طبيب فندق بيبلوا منذ عشرين سنة، وأستطيع أن أؤكد...

لم أدعه يكمل جملته: فكلمة طبيب عنت لي أشياء كثيرة. فسألته مضطرباً:

ـ أتيت من أجل أخي... إنه مريض جداً أليس كذلك؟

لا أعتقد أن ذلك الطبيب رجل شرير، لكن ما كان يشغله في تلك اللحظة هو تزرير قفازيه، وأجابني بجفاء دون أن يفكر أنه

يكلّم شقيق جاك، ودون أن يحاول تخفيف وطأة هذا الخبر عليّ:

ـ يسألني إن كان مريضاً؟ إني متأكد من ذلك... وربمّا سيتوفى قبل بزوغ الفجر.

أؤكد لكم أن هذا النبأ المشؤوم قد أصاب الهدف. مما جعلني أرى كل شيء يدور من حولي: المنزل، الحديقة، السيد بيبلوا والطبيب. وجدت نفسي مُضطراً أن أتكىء على شجرة التين. لم يلاحظ شيئاً بل تابع قوله بهدوء تام ودون أن يتوقف عن تزرير قفازيه:

إنه مصاب بالسل وحالته خطيرة جداً... لم يعد ينفع أي علاج.... لقد استدعوني على كل حال بعد فوات الأوان، كما يحصل دائماً.

فقال السيد بيبلوا الطيّب:

ـ الذنب ليس ذنبي أيها الطبيب ـ قال ذلك وهو يتابع البحث، بإصرار وبدقة متناهية، عن التين، محاولاً بذلك إخفاء دموعه ـ ليس الذنب ذنبي. عرفت منذ زمن طويل أن السيد إيسات المسكين مريض، ونصحته بأن يستدعي الطبيب، لكنه رفض إقتراحي. خشي طبعاً أن يخيف أخاه... ذلك أن هذين الطفلين كانا على أتم وفاق!

عندئذ شهقت ببكاء حاد مصدره اليأس. فقال لي الرجل ذو القفازين بتحبّب:

ـ هيا! تشجع يا ولدي... من يدري؟ لقد قال العلم كلمته

الأخيرة، لكن الطبيعة لم تعط بعد حكمها. . . سأرجع صباح غد.

بعد ذلك استدار وابتعد مسروراً، لقد زرّر أحد الأزرار.

بقيت خارجاً لأجفف دموعي ولأهدىء من روعي قليلاً. ثم استجمعت كل قواي ثم دخلت بعزم إلى غرفتنا.

ما رأيته عندما فتحت الباب أرعبني. وضع جاك فراشاً على الأريكة ليترك لي السرير. وجدته شاحباً شحوباً مُرعباً ومطابقاً لجاك الذي رأيته في حلمي.

أول فكرة طرأت لي هي أن أرمي بنفسي عليه، أحمله بين ذراعي وأضعه على سريره، أينما كان، لكن المهم أن أبعده عن تلك الأريكة. لكني فكرت حالاً في نفسي قائلاً: «لن تستطيع القيام بذلك، فهو كبير جداً»!. وحينما رأيت أمي جاك ممدّداً دون رحمة في ذلك المكان وحيث قال الحلم أنه سيموت، خانتني شجاعتي. عندئذ خلعت قناع المرح المتكلف الذي نلصقه على وجهنا لنطمئن المشرفين على الموت، ثم جثوت قرب الأريكة وذرفت شلالاً من الدموع.

إستدار جاك نحوي بصعوبة قائلاً:

ـ هذا أنت يا دانيال؟. . . لقد التقيت بالطبيب أليس كذلك؟ رغم إني أوصيت ذاك السمين بأن لا يخيفك. لكني أرى من خلال مظهرك أنه لم يتبع تعليماتي وأنك تعرف كل شيء. . .

إعطني يدك يا أخي الصغير. . . من كان ليشكّ يوماً بشيء مماثل؟ هنالك أشخاص يذهبون إلى نيس ليشفوا من السل، أما أنا فقد ذهبت إلى ذلك المكان لأمرض، فهذا شيء فريد من نوعه. . . آه! إذا حزنت أمامي ستنتزع شجاعتي، وأنا لم أعد قويا ولا باسلاً. . .

هذا الصباح، بعد ذهابك فهمت أن حالتي أصبحت سيئة. فطلبت أن يأتي كاهن «سان ـ بيار». لقد زارني وسيعود بعد قليل ليعطيني مسحة المرضى. . . فذلك سيفرح والدتنا، أنت تفهم ما أعني! . . . هذا الكاهن رجل طيب. ويحمل اسم صديقك في مدرسة سارلاند.

لم يتمكن من أن يتكلم طويلاً، فأغمض عينيه وألقى برأسه على وسادته. ظننت أنه سيموت وبدأت أصرخ عالياً، «جاك! جاك يا صديقي!» فأشار لي بيده دون أن يتكلم، وهمس لي مراراً: صَهْ! صَهْ!».

تلك اللحظة فتح الباب. دخل السيد بييلوا الغرفة وقد تبعه رجل سمين، توجه هذا نحو الأريكة كما تتدحرج الكرة وصرخ قائلاً:

ـ أصحيح ما قيل لي يا سيد جاك؟. . . أجل هذا ما أردت أن أقوله. . .

فقال جاك بعدما فتح عينيه:

ـ صباح الخير يا بياروت! صباح الخير يا صديقي الحميم!

كنت متأكداً من أنك ستأتي عند أول إشارة مني. . . دعه يجلس هنا يا دانيال، علينا أن نتحدث معاً.

أحنى بياروت رأسه الكبير لغاية شفتي المُحتضر الشاحبتين وظلا على هذا النحو مدة طويلة وهما يتحادثان بصوت خافت. . . وقفت دون حراك في وسط الغرفة وتأمّلتهما. كنت ما أزال محتفظاً بكتبي تحت إبطي، فأخذها مني السيد بيبلوا بهدوء وقال لي شيئاً لم أسمعه. ثم أشعل الشموع ووضع على الطاولة غطاء أبيض، فقلت في نفسي: «لماذا يُجهّز الطاولة؟. . . هل سنتناول العشاء؟. . . لكني لست جائعاً!».

حلّ الليل، وخارجاً في الحديقة، بضعة نزلاء في الفندق يشيرون بعضهم إلى بعض وهم ينظرون إلى نوافذنا. ما زال جاك وبياروت يتحدثان. من حين إلى آخر، أسمع السفينولي يقول بصوته الغليظ المليء بالدموع: «أجل يا سيد جاك. . . أجل يا سيد جاك. . .». لكن لم أجرؤ على الاقتراب منهما. . . رغم ذلك ناداني جاك في النهاية وأجلسني قربه وبجانب بياروت، ثم قال لي بعدما توقف فترة طويلة عن الكلام:

إني حزين جداً يا عزيزي دانيال لأني مضطرّ ان اتركك؛ لكنّ شيئاً واحداً يعزيني : لن أتركك بمفردك في هذه الحياة . . . سيبقى معك بياروت ، بياروت الطيب الذي سامحك وتعهّد بأن يحلّ مكاني بقربك . . .

ـ أجل أجل ! يا سيد جاك ، اني اتعهدّ . . . هذا ما أريد ان

اقوله . . . إني أتعهّد .

وأضافت الأم جاك :

ـ لن تتمكن أبداً ياصغيري المسكين من إعادة بناء المنزل العائلي بمفردك . . . لا أريد أن أؤلمك ، لكنك لست أهلاً لإعادة جمع شمل العائلة . . . لكني أعتقد أنك ستحقّق حلمنا بمساعدة بياروت . . . لا أطلب منك ان تحاول ان تصبح رجلاً ، لأني أعتقد ، مثل الأب جرمان أنك ستظل طفلاً طوال حياتك . لكني أتوسل اليك ، أن تظل دائماً طفلاً طيباً ، طفلاً شجاعاً وخصوصاً . . . إقترب قليلاً لأهمس اليك ذلك . . . وخصوصاً أن لا تُبكي سوداء العينين .

وهنا استراح ايضاً حبيبي المسكين ؛ ثم اضاف قائلاً :

ـ عندما ينتهي كل شيء اكتب الى أبي وأمي . لكن يجب ان تعلمهما بما حصل على دفعات . . . ان اخبرتهما بذلك دفعة واحدة ستؤلمهما كثيراً . . . أفهمتَ الآن لماذا لم استدع السيدة أيسات الى هنا ؟ لم أردْ ان تكون معنا في هذه اللحظة . فتلك أوقات عصيبةبالنسبة الى الأمهات . . .

ثم توقف عن الكلام ونظر جهة الباب ، ثم قال مُبتسماً :

ـ ها قد أتى الرب .

ـ ثم اشار إلينا بالإبتعاد .

لقد جلبوا الزاد الأخير . وُضع القربان والزيوت المقدسة على غطاء أبيض وسط الشموع . بعد ذلك اقترب الكاهن من السرير

وبدأت الصلاة . . .

عندما انتهت الرتبة الدينية ـ أوه ! كم بدا الوقت طويلاً ! ـ ناداني جاك بهدوء لأجلس قربه ، وقال لي :

ـ قبّلني .

كان صوته ضعيفاً للغاية وكأنه يحدثني من مكان بعيد . . . لقد اصبح بالفعل بعيداً ، ذلك انه يعاني منذنحو اثنتي عشرة ساعة نوبـة السِل الرهيبة التي اجبرته على التمدّد على ظهره النحيل ، والتي ستأخذه بسرعة الى أحضان الموت ! . . . .

وعندما اقتربت لأقبّله التقت يدي بيده ، تلك اليد العزيزة الـرطبة بفعـل عـرق النـزاع الأخـير ، فـأخـذتهـا بـين يـديّ واحتفظت بها . . لا أدري كم من الوقت بقينا على هذه الحال ، ربما ساعة ، ربما دهراً ، لم أعد أذكر بتاتاً . . . . لم يعد يراني أو يُكلمني ، لكن يده تحركت في يدي مراراً وكأنها تقول لي : « أشعر بأنك هنا » . فجأة انتفض بقوة جسمه المسكين من رأسه حتى أخمص قدميه . رأيت عينيه تنفتحان تنظران حولهما لتبحثا عن شخص ما ؛ وفيما أرنو عليه ، سمعته يقول مرتين بهدوء : « جاك ، أنت حمار . . . جاك ، أنت حمار ! . . . » ثم لم أعُد أسمع شيئاً . . . لقد مات . . .

. . أوه ! لقد تحقق الحلم ! . . .

هبّت ريح قوية في تلك الليلة . وأرسل كانون الأول حُفنات من البَرَد الدقيق فجاءت ترتطم بالزجاج ، وعلى الطاولة في طرف

الغرفة يتوهج صليب من الفضة بين شمعتين . وكاهن لا أعرفه يُصليّ بصوت قوي على أنغام الريح ، وهو راكع على ركبتيه أمام الصليب . . أما أنا فلم أكن أصلي ؛ ولم أكن أبكي . . . لقد استحوذت فكرة واحدة على عقلي وهي تدفئة يد حبيبي التي أُمسِك بها باحكام بن يديّ . للأسف ! كلما اقترب الصباح ، ثقُلت تلك اليد ، وتجمّدت .

فجأة نهض الكاهن الذي كان يصليّ باللاتينية هنالك أمام الصليب وربت على كتفي قائلاً :

ـ حاول ان تصليّ . . . فذلك سيّريحك . . .

حينئذٍ فقط عرفته . . . فهو صديقي القديم في مدرسة سرلاند ، الأب جرمان نفسه ، بوجهه الجميل المشوّه وهيأته كتنين في ثوب كاهن . . . لم أندهش لرؤيته لأن العذاب قد أضناني . بدا لي وجوده طبيعياً جداً . . . لكنني سأخبركم كيف جاء الى هنا .

يوم رحل « الشيء الصغير » من المدرسة ، قال له الأب جرمان : « لي أخ في باريس ، وهو كاهن طيب . . . لكن لن يجُدي اعطاؤك عنوانه . . . إني متأكد من انك لن تذهب لتراه » . لكن القدر شاء غير ذلك ! فأخ الأب هو كاهن كنيسة « سان بيار » في مونمارتر ، وهو الذي استدعاه أمي جاك المسكين على فراش الموت . في هذا الوقت تماماً كان الأب جرمان في باريس وقرر أن يمُضي ليلته في الدير . . . قال له أخوه بعدما رجع

ليلة الرابع من كانون الأول :

ـ لقد أعطيت مسحة المرضى منذ حين فتى مسكيناً يحتضر بالقرب من هنا . يجب أن تصليّ له يا ابني ! .

فأجابه الأب :

ـ ـ سأفعل ذلك غداً خلال القداس. ما أسمه ؟

ـ انتظر . . . هو اسم من الجنوب من الصعب حفظه . . . جاك أيسات . . أجل هكذا يُدعى ، جاك أيسات . . .

لقد ذكّر ذلك الأسم الأب بناظر صغير يعرفه ؛ ودون أن يُضيع دقيقة واحدة ، أسرع نحو فندق بيبلوا. . . عندما دخل رآني ، واقفاً ومُمسكاً بيد جاك . أبى أن يزعجني في تلك الفترة الأليمة وطلب من الجميع أن يخلوا المكان قائلاً لهم أنه سيسهر معي ؛ ثم جثا على ركبتيه ، ولم يربت على كتفي ليُعرّف عن نفسه إلا في ساعة متأخرة من الليل بعدما جَزع من عدم حراكي .

إعتباراً من تلك اللحظة لم أعد أدري تماماً ماذا حصل . لم يبق لي سوى ذكريات غير واضحة ومُبهمة عن نهاية تلك الليلة الرهيبة ، وعن اليوم الذي تلاها واليوم الذي تلا هذا النهار وعن أيام أخرى كثيرة تلت .

هناك فراغ كبير في ذاكرتي حول تلك الحقبة . مع اني أذكر ـ لكني أتذكر تلك الأشياء وكأنها حصلت من قرون ـ مسيرة طويلة لا نهاية لها في وحول باريس ووراء العربة السوداء . أرى نفسي

ذاهباً ، مكشوف الرأس ، بين بياروت والأب جرمان ، يلفح وجوهنا مطر بارد وممزج بالبَرَد الدقيق . بياروت يحمل مِظلة كبيرة ، لكنه أمسك بها بطريقة سيئة جداً ، وانهمر المطر بغزارة فتبلل ثوب الكاهن وأصبح لمّاعاً ! . . . انهمر المطر ! انهمر المطر ! أوه ! كم كانت الأمطار غزيرة !

بالقرب منا ، وبجانب العربة ، مشى سيد طويل يرتدي ثياباً سوداء ويحمل عصاً من خشب الأبنوس . انه المشرف على الاحتفالات الدينية ، وهو كسيد التشريفات في بلاط الموت . وكجميع من هم في تلك الوظيفة ، يرتدي مِعطفاً من الحرير وسروالاً قصيراً ، يحمل سيفاً ويعتمر قبعة عالية . . . هل إن ما أراه وهم ؟ أرى أن هذا الرجل يشبه السيد فيو ، الناظر العام في مدرسة سرلاند ، انه طويل مثله ، ويُحني رأسه على كتفه أيضاً مثله ، وكلما نظر اليَّ ابتسم ابتسامة متكلفة وباردة كالتي كانت تسري على شفتي حامل المفاتيح المرعب . إنه ليس السيد « فيو » وربما هو ظلّه .

بقيت العربة السوداء تسير على مهل ، وببطء شديد . . . خيل إليَّ أننا لن نصل أبداً وها نحن أخيراً في حديقة حزينة مليئة بالوحول بلونها الأصفر الباهت ، وحيث غرقت أقدامنا لغاية كواحلنا . توقفنا على حافة حفرة كبيرة . جلب رجال ، يرتدون معاطف قصيرة ، علبة كبيرة ثقيلة جداً لينزلوها في تلك الحفرة . يظهر أن المهمة صعبة . فالحبال أصبحت صلبة

بسبب المطر ولم تعُد تزلق . سمعتُ أحد الرجال يصرخ قائلاً : « القدمان الى الأمام ! القدمان الى الأمام ! . . . »

قُبالتي ، وفي الجهة المقابلة من الحفرة ، ما فتيء ظل السيد فيو ، برأسه المُنحني على كتفه ، يبتسم لي بهدوء . طويل ، رفيع ، يكاد يختنق في ثياب الحداد الضيقة ، يبدو ، ومن ورائه السماء الرمادية ، كجرادة سوداء مُبللة .

إني الآن وحدي مع بياروت . . . مررنا في ضاحية مونمارتر . . . بحث بياروت عن عربة ، لكنه لم يُوفق . سرت الى جانبه وقبعتي في يدي ؛ يبدو لي إني ما زلت أمشي وراء عربة الموتى . . . فيما نحن سائرون ، التفت الينا المارّة ليروا ذلك الرجل الضخم الذي يبكي وهو يستدعي العربات ، والفتى الذي يسير مكشوف الرأس تحت المطر الغزير . . . .

مشينا مدة طويلة ، تعبت وثقُل رأسي . . . وأخيراً أطل ممرسومون ، ومنزل لالوات القديم بنوافذه المطلية التي تسيل منها مياه خضراء . . . دون أن ندخل الى المخزن ، صعدنا عند بياروت . . . خارت قِواي في الطابق الأول . فجلست على درجة من السُلّم . يستحيل عليّ ان أذهب أبعد من ذلك ، فرأسي ثقيل جداً . . . حينئذٍ حملني بياروت بين ذراعيه . وفيما هو صاعد الى منزله وهو ميت أكثر منه حي ، ويرتجف من الحمّى ، سمعت البَرَد الدقيق يطرق واجهة الممر ومياه المزاريب تنزل في الباحة محدثة ضجة كبيرة . . . يهطل المطر ! يهطل المطر ! أوه ! كم إن الأمطار غزيرة ! .

XVI

نهاية الحلم

« الشي الصغير » مريض ؛ « الشيء الصغير » سيموت . . . لقد حكم عليه جميع الاطباء بالموت ، بعدما اصيب مرتين بحمى التيفوئيد خلال سنتين ، وهو كثير على الشخص القصير والنحيل ! هيا ! هيئوا العربة السوداء ! ولتحضر الجرادة الكبيرة عصاها المصنوعة من خشب الأبنوس ، ولتحضر بسمتها الحزينة ! « الشيء الصغير » مريض ؛ « الشيء الصغير » سيموت .

ساد ذهول شامل في منزل لالوات القديم . فبياروت لم يعد ينام ، وسوداء العينين حزينة . والسيدة ذات الشأن الكبير تتصفح كتاب « رسباي » الطبي بحدة ، وهي تتوسل إلى القديس « كافور » الطوباوي أن يقوم بأعجوبة جديدة ليشفي المريض العزيز . . . لقد هجر البهو الأصفر ، مات البيانو وجرح المزمار . لكن المحزن في كل هذا ، أوه ! المحزن هو ثوب صغير أسود جالس في زاوية من المنزل ، ويحيك الصوف من الصباح حتى

المساء ، دون ان يتفوه ببنت شفة ، وتنهمر دموع سخية من عينيه .

بينما ينتحب منزل لالوات القديم ، ليلاً ونهاراً ، ينام « الشيء الصغير » بطمأنينة في سريرٍ كبير محشو بالريش ، دون أن يدري بالدموع التي يستذرفها من حوله . عيناه مفتوحتان ، لكنه لا يرى شيئاً ، لأن دماغه لا يلتقط ما يراه . انه لا يسمع شيئاً ايضاً ، سوى طنين وطيء ، ودحرجة مبهمة ، كأن أذنيه تحولتا إلى صدفتين بحريتين من تلك الاصداف الكبيرة ذوات الشفاه الوردية وحيث نسمع هدير البحر . لا يتكلم ، ولا يفكر ، كزهرةٍ مريضة . . . المهم ان يضعوا له عصبة من الماء البارد على رأسه وقطع من الثلج في فمه ، هذا كل ما يطلبه . عندما يذوب الثلج ، وتجف العصبة على نار جمجمته ، يهمهم : هذا هو كل حديثه .

مرت أيام على هذا النحو ـ أيام دون ساعات ، ايام خاوية ؛ ثم فجأة ، وذات صباح ، شعر « الشيء الصغير » باحساس غريب . يبدو أنه قد أنقذ من قعر البحر . عينان تريان وإذنان تسمعان . إنه يتنفس ، واستعاد نشاطه . . . فآلة التفكير ، التي كانت تنام في احدى زوايا الدماغ بدواليبها الدقيقة كشعر الساحرة قد استفاقت وتحركت من جديد . عملت في البدء على مهل ، ثم أسرعت قليلاً ، ثم سارت بسرعة جنونية ـ تيك : تيك : تيك ! » وكأنها ستحطم كل شيء . يشعر المرء بان تلك الآلة الجميلة لم تصنع لتنام وبانها تريد ان تعوض الوقت الذي فات . . . تيك !

تيك ! تيك ! تيك ! . . . تتلاقى الافكار وتتشابك كخيوط من الحرير : « اين انا يا الهي ؟ . . .

ما هذا السرير الكبير؟ . . . وماذا تفعل هذه السيدات الثلاث ، هنالك قرب النافذة ؟ . . . . وذلك الثوب الصغير الأسود الذي يدير لي ظهره ، ألا أعرفه ؟ . . . كأنه . . . »

ولكي ينظر بطريقة أفضل إلى الثوب الأسود الذي يعتقد أنه تعرف عليه ، رفع جسمه قليلاً بصعوبة بعدما اتكأ على مرفقه وانحنى خارج السرير ، ثم ارتد في الحال إلى الوراء مرتعباً . هنا ، أمامه ، وفي منتصف الغرفة ، رأى لتوه خزانة من خشب الجوز ذات حدائد قديمة تعربش من الجهة الأمامية . لقد تعرف على تلك الخزانة ؛ لقد رآها سابقاً في حلم ، في حلم رهيب . . . تيك ! تيك ! تيك ! فآلة التفكير أصبحت سريعة كالهواء . . . أوه ! بدأ الآن « الشيء الصغير » يتذكر فندق بيبلوا ، موت جاك ، الجنازة ، والوصول عند بياروت تحت المطر ، كل شيء يمر أمامه من جديد ، ويتذكر كل شيء . للأسف ! عندما استعاد الحياة ، استعاد الألم ، وأول كلمة تفوه بها كانت نواحاً . . . عندما سمعت ذلك الأنين ، إرتعشت النساء الثلاث اللواتي يعملن هنالك ، قرب النافذة . إحداهن الأصغر سناً ، نهضت وصرخت قائلة : « ثلج ! يجب أن نأتي بالثلج ! » وبسرعة ركضت نحو المدخنة ، أخذت قطعة من الثلج وقدمتها إلى « الشيء الصغير » ؛ لكن « الشيء الصغير » رفضها . . . وبلطف دفع جانباً اليد التي

تبحث عن شفتيه هي يد ناعمة جداً ولا يعقل أن تكون ممرضة ! ـ
وقال بصوت مضطرب :
ـ صباح الخير يا كميل ! . . .

دهشت كميل بياروت كثيراً عندما سمعت المحتضر يتكلم ، حتى إنها ظلت حائرة ودون حراك ، ذراعها ممدودة ، يدها مفتوحة وعليها قطعة الثلج الصافية التي ترتعش على طرف أصابعها المتوردة من البرد . فكرر « الشيء الصغير » قوله :

ـ صباح الخير يا كميل ! أوه ! لقد عرفتك جيداً . . . لقد استعدت صوابي الآن . . . وأنت ؟ هل ترينني ؟ . . . أتستطيعين رؤ يتي ؟

نظرت إليه كميل بياروت بعيني كبيرتين قائلة :

ـ تسألني إن كنت أراك يا دانيال ! . . . إني متأكدة من اني اراك ! . . . .

عندما ادرك أن الخزانة كذبت ، وان كميل بياروت لم تصب بالعمى ، وان الحلم ، ذلك الحلم الرهيب لن يتحقق بأكمله ، إستعاد « الشيء الصغير » شجاعته ، وتجرأ على طرح أسئلة أخرى :

ـ كنت مريضاً جداً ، أليس كذلك يا كميل ؟

ـ أوه ! أجل يا دانيال ، مريض جداً . . .

ـ هل أنا نائم منذ فترة طويلة ؟ . . . .

ـ غداً تصبح تلك المدة ثلاثة أسابيع . . .

ـ رحماك يا إلهي ! ثلاثة أسابيع ! . . . مضى على موت أمي جاك المسكينة ثلاثة أسابيع . . .

لم يكمل جملته بل خبأ رأسه في وسادته بعدما شهق بالبكاء .

في تلك اللحظة ، دخل بياروت إلى الغرفة . لقد جاء بطبيب جديد (لو طالت فترة المرض ، لعاينه جميع أطباء كلية الطب) ذو شهرة كبيرة ، يدعى « بروم بروم » . وهو شاب ينجز عمله بسرعة ، ولا يلهو بتزرير قفازيه امام المرضى . إقترب من « الشيء الصغير » ، جس نبضه ، نظر إلى عينيه ولسانه ، ثم استدار نحو بياروت قائلاً :

ـ لكن ما هذا الذي قلته لي ؟ . . . هذا الفتى شفي تماماً . . .

فقال بياروت الطيب وهو يطبق يديه :

ـ شفي !

ـ شفي تماماً ؛ إرموا حالاً هذا الثلج من النافذة ، وقدموا لمريضكم جناح دجاج مع المرقة . . . هيا ! لا تحزني بعد الآن يا آنستي الصغيرة ؛ أؤكد لك أنه خلال ثمانية أيام ، سيستعيد هذا الشاب ، الذي نجا من الموت بأعجوبة ، نشاطه . . . . لكن في أثناء ذلك ، لا تتركيه يغادر سريره ؛ والمهم أن تبعديه عن كل انفعال يشكل خطراً على وضعه النفسي . . . ولندع الطبيعة تقوم

بالقسم الثاني من المهمة ، فهي تعرف كيف تعالجه أفضل منك ومني . . .

بعد ذلك ، ضرب الطبيب المشهور « بروم بروم » الشاب ، الذي نجا من الموت بأعجوبة ، بطرف سبابته ، ابتسم لكميل وابتعد بخفة ، بعدما واكبه بياروت الطيب الذي بكى من الفرح وردد طول الوقت :

ـ آه ! يا حضرة الطبيب ، ما أريد أن أقوله . . . ما أريد أن أقوله . . .

بعدما خرجا ، حاولت كميل أن تحث المريض على النوم ؛ لكنه رفض اقتراحها رفضا قاطعا ؛ وقال لها :

ـ أرجوك يا كميل لا تذهبي . . . لا تدعيني وحيداً . . . . كيف تريدني أن أغفو وذلك الحزن الكبير يثقل كاهلي ؟

ـ حاول يا دانيال فهذا ضروري . . . يجب أن تنام . . . أنت في حاجة إلى الراحة ؛ هذا ما قاله الطبيب . . . هيا ! كن عاقلاً ، إغمض عينيك ولا تفكر في شيء . . . سأراك بعد قليل ؛ فإن وجدتك نائمًا سأبقى معك فترة طويلة .

قال الشيء الصغير وهو يغمض عينيه :

ـ إنّي أغفو . . . إني أغفو . . . ثم بدل رأيه وقال :

ـ أريد أن أسألك شيئاً ، ولآخر مرة يا كميل ! . . . ما هذا الثوب الصغير الأسود الذي رأيته من قليل ؟

- ثوب أسود ! . . .

- أجل ! تعرفين جيداً ، ذلك الثوب الأسود الصغير الذي كـان يعمل معـك هنالـك ، قرب النـافذة . . . لقـد اختفى الآن . . . لكني رأيته منذ قليل ، أنا متأكد من ذلك . . .

- أوه ! لا يا دانيال ، أنت مخطىء . . . عملت هنا طوال الصبيحة مع السيدة تريبو ؛ إنك تعرف جيداً صديقتك القديمة السيدة تريبو ! تلك التي دعوتها « السيدة ذات الشأن الكبير » لكن السيدة تريبو لا ترتدي ثوباً أسودا . . . فهي لا تخلع بتاتاً ثوبها الأخضر . . . لا ! لا ثوب اسود في هذا المنزل . . . لابد انك حلمت بذلك . . . هيا ! سأذهب . . . نم جيداً . . .

بعد ذلك ، خرجت كميل بياروت بسرعة ، مرتبكة ، وعلت خديها حمرة كأنها كذبت لتوها .

بقي « الشيء الصغير » وحيداً لكن النعاس لم يجد سبيلاً إليه . فالآلة ذات الدواليب الدقيقة تحدث جلبة هائلة في دماغه . وخيوط الحرير تتلاقى وتتشابك . . . إنه يفكر في حبيبه الذي ينام تحت تراب مونمارتر ؛ ويفكر أيضاً في العينين السوداوين في نورهما الحالك الذي يبدو ان العناية الالهية قد اضاعته له ، والذي هو الآن . . .

وهنا ، فتح باب الغرفة قليلاً وبهدوء متناهٍ ، كأن شخصاً يريد أن يدخل . لكن جاء صوت كميل بياروت مباشرة يقول خافتاً :

ـ لا تدخلي . . . إن استيقظ سيقتله الإنفعال . . .

وهكذا ، أغلق باب الغرفة بهدوء كما فتح . لسوء الحظ ، ظل طرف من ثوب أسود عالقاً في فرضة الباب ، فرآه « الشيء الصغير » وهو في سريره . . .

وللحال قفز قلبه من الفرح ، وتوهجت عيناه ؛ ثم رفع جسمه قليلاً بعدما اتكأ على مرفقه ، وبدأ يصرخ بصوت عالٍ : « أمي ! أمي ! لما لا تأتين لتقبليني ؟ . . . »

وفي الحال فتح الباب ، وهرع الثوب الأسود الصغير ـ الذي لم يعد يتحمل البعاد ـ إلى الغرفة . لكن عوض أن تتوجه نحو السرير ، ذهبت مباشرة إلى الطرف الثاني من الغرفة ، بذراعين ممدودتين وهي تنادي : « دانيال ! دانيال ! » .

ـ من هنا ، يا أمي . . . من هنا ؛ ألا ترينني ؟ . . .

حينئذٍ أجابته السيدة أيسات بصوت محزن ، بعدما استدارت جزئياً نحو السرير وهي تتلمس طريقها بيديها المرتجفتين :

ـ للأسف ! لا ! يا كنزي العزيز ، إني لا أراك . . . لن أستطيع أن أراك بعد اليوم . . . أصبحت عمياء .

عندما سمع « الشيء الصغير » ذلك ، أطلق صرخة كبيرة وارتمى دون حراك على وسادته . . .

أن تكون عينا الأم أيسات ، المسكينة ، الإلهية ، قد احترقتا بالدموع بعد عشرين سنة من البؤس والآلام ، وبعدما مات

ولداها وتهدم بيتها وأصبح زوجها بعيداً عنها ، فهذا ليس شيئاً غريباً . . . لكن الواقع أضحى مطابقاً لحلم « الشيء الصغير » .
إن تلك الصدمة الأخيرة التي خبأها له القدر رهيبة ! ألن يموت من جرائها ؟ كلا ! . . . « الشيء الصغير » لن يموت . لا يجب أن يموت . فإن رحل ماذا سيحل بالأم المسكينة العمياء ؟ أين ستجد دموعاً لتبكي ابنها الثالث ؟ وماذا سيحل بالأب أيسات ، الذي وقع ضحية الشرف التجاري والذي لا يجد وقتاً حتى لتقبيل ولده المريض ، أو لوضع زهرة على ضريح ولده المتوفي ! من سيعيد بناء المنزل العائلي ، ذاك المنزل الجميل حيث سيأتي العجوزان يوماً ما لتدفئة أيديهما المسكينة التي جمدها البرد ؟ . . .
لا ! لا ! لا يريد « الشيء الصغير » أن يموت . بل بالعكس ، إنه يتعلق بالحياة بكل قواه . . . قيل له أنه لا يجب أن يفكر ، ليشفى بسرعة ، فتوقف عن التفكير ؛ ولا يجب أن يتكلم ، فلاذ بالصمت ؛ ويجب أن لا يبكي ، فلم يعد يبكي . . . إن رؤيته في سريره متعة حقيقية ، إذ يبدو هادئاً ، عيناه مفتوحتان ويلهو بأزرار اللحاف لتمضية الوقت . إنه يتعافى من مرضه بسكون تام .

يتحرك الجميع من حوله ، في منزل لالوات ، بصمت . فالسيدة أيسات تمضي النهار بأكمله وهي تحيك بجانب سرير « الشيء الصغير » . تلك العمياء العزيزة تحيك الصوف بمهارة كما لو كانت مبصرة ، لأنها اعتادت استعمال الصنانير . والسيدة ذات الشأن الكبير موجودة أيضاً ؛ ويظهر أيضاً في كل لحظة وجه

بياروت الطيب الذي يطل من الباب . حتى عازف المزمار يأتي أربع أو خمس مرات في النهار ليتلقف آخر الأخبار . ويجب أن نقر بذلك ، لا يأتي من أجل المريض ، إن ما يجذبه إلى هذا المكان ، هو وجود السيدة ذات الشأن الكبير . . . منذ ان صرحت له كميل بياروت بشكل قاطع ، بأنها لا تريده ولا تريد مزماره ، أراد العازف الغيور أن يجرب حظه مع الأرملة تريبو . ورغم انها أقل جمالاً وثراء من إبنة السفينولي ، فهي جذابة نوعاً ما ، وتملك كمية من المال لا بأس بها . إن الرجل ذو المزمار قد نجح بسرعة في تقربه من السيدة الرومنسية الطبع . لقد أتيا على ذكر الزواج منذ المقابلة الثالثة؛ وتكلما بطريقة مبهمة عن إنشاء تجارة لبيع الحشائش الطبية في شارع « لومبار » ، بواسطة مدخرات السيدة . ولكي لا يطوي الزمن تلك المشاريع القيمة ، كان الشاب الموهوب يأتي مراراً ليكون على بينة من التطورات الجديدة .

وماذا عن الآنسة بياروت ؟ . . . لماذا لم يؤت على ذكرها ؟ ألم تعد موجودة في المنزل ؟ . . . بل انها تلازمه دوماً . لكن منذ ان تحسنت حالة المريض ، لم تعد تدخل غرفته إلا نادراً وهي تأتي فقط لتأخذ العمياء ولتقودها إلى المائدة ؛ تدخل ثم تخرج دون أن تحدث « الشيء الصغير » . . . آه ! كم تبدو بعيدة تلك الأيام التي قدمت له فيها وردة حمراء ، حينها كانت تتفتح عيناها السوداوان كزهرتين مخمليتين كلما أرادات أن تقول له : « أحبك ! » ويتنهد المريض في سريره عندما يفكر في تلك السعادة التي فقدها . لقد

أدرك جيداً انها لم تعد تحبه ، تتحاشى اللقاء به ، وتكرهه . لكنه هو الذي أراد ذلك . ليس له الحق بأن يتذمر . وكم كان ليكون جميلاً لو حصل على قليل من الحب ليدفىء قلبه وسط هذا الحداد وتلك الأحزان ! وجميل أن يبكي المرء على كتف صديق ! . . . ثم قال الولد المسكين في نفسه : « لقد أسأت إليها إساءة بالغة ، فلا يجب أن أفكر فيها بعد الآن ، وعلي أن أدع الأحلام جانبا ! لم تعد السعادة هدفي في الحياة ، علي فقط أن أقوم بواجبي . . . وسأكلم بياروت بهذا الشأن غداً » .

وبالفعل ، في اليوم التالي ، وساعة كان السفينولي يجتاز الغرفة بخفة لينزل إلى المخزن ، كان « الشيء الصغير » يترقب مجيئه منذ الفجر ، من وراء ستائره ؛ وحين رآه ناداه بلطف :

ـ يا سيد بياروت ! يا سيد بياروت !

إقترب بياروت من السرير . عندئذٍ قال له المريض متأثراً ودون أن يرفع عينيه :

ـ إني مشرف على الشفاء يا سيدي بياروت الطيب ، وأشعر بحاجة ملحة للتحدث معك في أمر مهم . لا أريد أن أشكرك على ما فعلته من أجل أمي ومن أجلي . . .

فقاطعه السفينولي بحدة قائلاً :

ـ لا تكلمني في هذا يا سيد دانيال ! فمن واجبي أن أقوم بكل ما أفعله . لقد اتفقت على ذلك مع السيد جاك .

ـ أجل ! أعرف هذا يا بياروت ، ولن أطرق هذا الموضوع

بالعكس ، إستدعيتك لأطلب منك خدمة . إن مستخدمك سيتركك قريباً . أتريد أن أحل مكانه ؟ أوه ! أرجوك يا بياروت إسمعني حتى النهاية . لا تقل لي « لا » قبل أن تسمعني حتى النهاية . . . أعرف ، فبعد تصرفي السيء لم يعد لي الحق بأن أعيش بينكم . وهنالك شخص في المنزل يؤلمه وجودي ، شخص يكره رؤيتي ، وله كل الحق في ذلك ! . . . لكن إن تعهدت بأن لا يراني أحد ، وأن لا أصعد إلى هنا بتاتاً ، وان أبقى دائمًا في المخزن ، وإن عملت عندكم دون أن أكون فرداً من أفراد المنزل ، تماماً كالكلاب الكبيرة التي تحرس المزارع ولا تدخل أبداً إلى المنازل ؛ أتقبل بأن أعمل عندك وفقاً لتلك الشروط ؟

رغب بياروت بشدة أن يأخذ بين يديه الكبيرتين رأس « الشيء الصغير » الأشعث ليقبله بقوة . لكنه تمالك نفسه وأجابه بهدوء :

- إسمع يا سيد دانيال ، أريد أن أستشير الصغيرة قبل أن أعطيك جوابي . . . بالنسبة الي ، اقتراحك يناسبني جداً ؛ لكنني لا أدري إن كانت الصغيرة . . . على كل حال سنرى . لا بد ان تكون قد استيقظت . . . كميل ! كميل !

كانت كميل بياروت ، التي تنهض باكراً ، تسقي شجرة الورد الأحمر الموضوعة على مدخنة البهو . جاءت بمبذل الصباح ، شعرها مرفوع على الطريقة الصينية ، نضرة ، مرحة ، وتفوح منها رائحة جميلة . فقال لها السفينولي :

ـ إسمعي يا ابنتي . السيد دانيال يطلب أن يعمل عندنا كمستخدم . . . لكن ، بما انه يعتقد أن وجوده هنا سيؤلمك . . .

قاطعته كميل بياروت ، بعد ان تغير لونها ، مرددة :

ـ وجوده سيؤلمني ! ؟

ولم تضف شيئاً لكن سوداء العينين أكملت جملتها . أجل ، لقد ظهرت سوداء العينين بنفسها أمام « الشيء الصغير » ، عميقة كالليل ، براقة كالنجوم ، وهي تصرخ قائلة : « أحتاج إلى الحب ! أحتاج إلى الحب ! » . قالت ذلك بشغف وبحرارة فأضرمت النار في قلب المريض المسكين .

عندئذٍ ضحك بياروت خفية وقال :

ـ لكن ما الأمر ! أوضحا موقفيكما . . . هنالك سوء تفاهم .

ثم ذهب بياروت نحو النافذة وطرق على الزجاج بطرف أصابعه مقلداً بذلك نغم رقصة سفينولية . وعندما رأى ان الولدين قد تفاهما ـ أوه ! يا إلهي ! لم يتبادلا سوى بضع كلمات ـ إقترب منهما ونظر إليهما قائلاً :

ـ حسناً ، ماذا قررتما ؟

قال « الشيء الصغير » بعدما مد له يديه :

ـ آه يا بياروت إنها طيبة مثلك . لقد سامحتني !

منذ تلك اللحظة ، سار المريض نحو الشفاء الكامل بسرعة هائلة . . . والسبب واضح ! فسوداء العينين لازمت الغرفة . كانا

يمضيان النهار بالتفكير في مشاريع المستقبل . تحدثا عن الزواج ، وعن المنزل الذي سيعيدان بناءه. تحدثا أيضاً عن الأم جاك العزيزة ، فذرفا دموعاً سخية عند ذكر اسمه . لكن الأمر سيان ! لقد نبت الحب في منزل لالوات القديم ، وانتشر أريجه . وإن تعجب أحد من أن يزهر الحب على هذا النحو في أرض الحداد والدموع ، أطلب منه أن يذهب إلى المدافن لرؤ ية . جميع تلك الأزهار الجميلة التي تنبت بين شقوق القبور .

على كل حال ، لا تظنوا ان الحب قد أنسى « الشيء الصغير » واجبه . رغم انه يشعر بالارتياح في سريره الكبير ، وقد أحاطت به السيدة أيسات وسوداء العينين ، فإنه يريد أن يشفى بسرعة لينهض وينزل إلى المخزن . ليس لأن بيع البورسلين يستهويه ، لكنه يرغب بقوة أن يبدأ تلك الحياة ، المليئة بالإخلاص والعمل ، والتي أعطته فيها الأم جاك درساً لا ينسى . وكما كانت تقول الممثلة إيرما بوريل ، من الأفضل بيع الصحون في ممر ، من تكنيس مدرسة « أولي » أو تعريض نفسه للهزء والسخرية في مونتبارناس . أما بالنسبة للشعر ، فإنه لم يعد يتكلم عنه . ما زال دانيال أيسات يحب الأشعار ، لكن ليس ما هو من نظمه . وفي اليوم الذي مل فيه صاحب المطبعة الإحتفاظ بتسع وتسعين نسخة من « المسرحية الرعائية » أرسلها إلى ممر سومون . إذ ذاك ، وجد الشاعر ، السابق والمسكين ، الشجاعة الكافية ليقول :

ـ يجب أن نحرق كل هذا .

فأجابه بياروت العاقل :

ـ حرق كل هـذا ! . . . لا ! أفضل أن أحتفظ بهـا في المخزن . سأعرف كيف أستفيد منها . . . . ما أريد أن أقوله . . . علي أن أرسل قريباً عدداً كبيراً من الظروف إلى « مدغشقر » . يظهر انه في ذلك البلد ، منذ ان رأوا زوجة أحد المرسلين الإنكليز وهي تـأكل البيض نيئـاً ، رفضوا أن يـأكلوا البيض بطريقـة أخرى . . . عن إذنك يا سيد دانيال ، سأغلف ظروفي بأوراق كتبك .

وبالفعل ، بعد مرور خمسة عشر يوماً ، كانت « المسرحية الرعائية » في طريقها إلى بلاد « رنا ـ فولو » المشهورة. فلنتمنَّ لها نجاحاً أكبر من الذي لاقته في باريس ! .

. . . والآن ، أيها القارىء ، قبل ان أنهي تلك القصة ، أريد مرة أخرى أن أدخلك إلى البهو الأصفر . حدث ذلك ذات أحد ، وفي فترة بعد الظهر ، كان يوماً جميلاً من فصل الشتاء ـ بارداً جافاً ، تنيره شمس حارة . ومنزل لالوات بأكمله مشرق . لقد شفي « الشيء الصغير » تماماً ، ونهض للمرة الأولى . في الصباح ، وعلى شرف هذا الحدث السعيد ، ضحوا لاله الطين « سكولاب » ببضع دزينات من الأصداف التي سقيت بنبيذ أبيض معتق من « توران » الجميع الآن مجتمعون في البهو . الطقس دافىء ؛ والحطب يشتعل في المدخنة . على الزجاج المثقل بالجليد ،

رسمت الشمس لوحات فضية .

إلى جانب المدخنة ، جلس « الشيء الصغير » على مقعد صغير ، قرب العمياء المسكينة الغافية ، وتحدث بصوت خافت مع الانسة بياروت وقد احمر وجهها أكثر من الوردة الحمراء الصغيرة التي وضعتها في شعرها . وذلك يعود إلى قربها من النار ! . . . يسمع من وقت إلى آخر قضم خفيف ـ فذلك رأس العصفور الذي ينقر في إحدى الزوايا ؛ أو تعلو صرخة حزن ـ تلك سيدة الشأن الكبير التي تخسر ، في ورق اللعب ، المال المخصص لبيع الحشائش الطبية . أرجوكم أن تلاحظوا كيف يبدو الإنتصار على السيدة لالوات التي تربح ، وبسمة عازف المزمار ، القلقة لأنه يخسر . وأين السيد بياروت ؟ . . . أوه ! السيد بياروت ليس بعيدا . . . إنه هناك ، في فرجة النافذة ؛ لقد أخفى الستار الأصفر الكبير نصفه ، وهو منكب على عمل سري يشغل فكره ، ويجعل العرق يتصبب منه . أمامه على طاولة : دوارات ، أقلام ، مساطر ، مساطر مثلثة الزوايا ، حبر صيني . مناقش ، وأخيراً لوحة كبيرة من الورق يملؤها بإشارات غريبة . . . يبدو انه راضٍ عن عمله . يرفع رأسه كل خمس دقائق ، ينكسه على الجانب ، ويبتسم بإعجاب أمام تلك الخطوط غير المنتظمة .

ترى ، ما هو هذا العمل الغامض ؟ . . .

إنتظروا ، سنعرف ذلك قريباً . . . إنتهى بياروت . خرج من مخبأه ، ووصل بهدوء وراء كميل « والشيء الصغير » ؛

وفجأة ، بسط أمام ناظريها لوحته الكبيرة قائلاً : « ما رأيكما في هذا أيها الحبيبان ؟ » فأجابه هتافان ينمان عن التعجب :

ـ أوه ! أبي ! . . .

ـأوه! سيد بياروت !

فاستيقظت العمياء المسكينة مرتجفة ، وقالت :

ـماذا حدث ؟ . . . ماذا هنالك ؟ . . .

أجابها بياروت بفرح :

ـ تريدين أن تعلمي حقيقة الأمر يا سيدة أيسات ؟ . . . هي . . . أريد أن أقول . . . إنها صورة أولية عن اللوحة الجديدة التي سنعلقها على المخزن بعد أشهر . . . . هيا يا سيد دانيال ! إقرأ لنا ذلك بصوت عالٍ ، لنرى وقعها على الآذان .

وفي أعماق قلبه ، أرسل « الشيء الصغير » دمعة أخيرة إلى فراشاته الزرقاء ؛ ثم أخذ اللوحة بيديه ، وقال في نفسه : « هيا ! كن رجلاً أيها « الشيء الصغير » ! ـ وقرأ بصوت عالٍ وحازم تلك اللافتة ، حيث خطت معالم مستقبله بأحرف كبيرة :

بورسلين وأوان بلوزية
متجر لألوات السابق لصاحبيه الجديدين
أيسات وبياروت

المـــلَف

سيرة الفونس دوديه
تواريخ وملاحظات

نظراً الى أهمية عناصر السيرة الذاتية التي استعملت خلال تأليف « الشيء الصغير » ، ارتأينا اعطاء بعض التفاصيل الدقيقة لغاية العام ١٨٦٧ ، واكتفينا بعدها بذكر تواريخ مهمة حددت معالم حياة دوديه .

I ـ الجذور العائلية

١٦٤٥ ـ ١٠ حزيران : استقر جيهان رينو ، وهو السلف البعيد لجهة الأم ، في مزرعة « لافينياس » في اقليم « جويوز » (الأرداش) .

١٦٧٤ ـ ١٣ أيار : عمد كلود دوديه ، وهو السلف البعيد لجهة الأب ، في « كونكول » في « الغار » .

١٧٥٦ ـ ٢٦ تموز : ولادة جاك دوديه ، جد ألفونس الأبوي .

١٧٦٤ : ولادة فرنسوا رينو ، أخ جد ألفونس لجهة أمه بعدما أصبح كاهناً تسلم ادارة مدرسة « ألس » (١٢ أيلول ١٨٣٥) .

١٧٦٩ ـ ١٤ أيلول : ولادة أنطوان رينو في « نيم » ، وهو شقيق فرنسوا رينو وجد ألفونس لجهة أمه .

١٧٧٣ ـ ١٥ حزيران : ولادة فرنسواز روبير ، جدّه ألفونس لجهة أمه .

١٧٩٦ ـ ١٨ حزيران : زواج أنطوان رينو وفرنسواز روبير .

١٨٠٥ ـ ١٥ كانون الثاني : ولادة ماري أدلاييد في « نيم » والتي تحمل اسم أدلين رينو ، وهي والدة ألفونس .

١٨٠٦ ـ ٣٠ آب : ولادة ڤانسان دوديه في « كونكول » ، وهو والد ألفونس .

١٨٢٨ : استقر ڤانسان دوديه في « نيم » وعمل كسمسار منسوجات حريرية . وكان لفترة شريكاً لأخيه البكر كلود ، فاستثمرا مصنعا يقع في الجهة الأمامية من المدينة .

١٨٢٩ ـ ١٨ أيلول : زواج والدي ألفونس ، ڤانسان دوديه وأدلين رينو في « نيم » . أنجبا سبعة عشر ولداً ، توفي منهم ثلاثة عشر في سن مبكرة .

١٨٣٢ ـ ٧ آذار : ولادة هنري دوديه .

٢١ كانون الأول وفاة الجدة لجهة الأم (فرنسواز روبير) .

١٨٣٥ : بعدما رفع عدد من البلدان الأجنبية قيمة الضريبة على المنسوجات الحريرية من ١٥ الى ٢٠ ٪ ،مر الانتاج الفرنسي بمحنة تصدير عصيبة . بدأت المشاكل المادية في مؤسسة ڤانسان دوديه قبل ولادة ألفونس .

١٨٣٧ ـ ١ حزيران : ولادة أرنست دوديه (« الأم جاك « في الشيء الصغير »)

١٨٤٠ ـ ١٣ أيار : ولادة لوي ـ ماري ـ ألفونس دوديه في الساع الثانية بعد منتصف الليل ، في منزل والديه ، مبنى « سابران » ، ٢ ، شارع غران كور » في « نيم » (يدعى اليوم شارع غاميتا) .

II ـ الطفولة والمراهقة لغاية رحيله الى باريس (١٨٤٠ ـ ١٨٥٧)

١٨٤٤ ـ ١٨٤٦ : أقام ألفونس مراراً في « بزوس » ، قرب « نيم » عند جان ترينكه ، الذي يدعى جان دو لامار ، تعلم الطفل هناك لهجة « البروفونس » .

١٨٤٥ تشرين الأول : ألفونس طالب عند « الفرير » التابعين
١٨٤٨ كانون الثاني : للمدارس المسيحية في « نيم » .

١٨٤٦ ـ ٢٠ شباط : وفاة جد ألفونس : انطوان رينو .

١٨٤٧ في الخريف : سكنت عائلة دوديه في مصنع المنسوجات الحريرية بقصد التوفير . لكن الثورة التي اندلعت عام ١٨٤٨ ، جعلت وضعهم المادي يزداد سوءاً .

١٨٤٨ كانون الثاني : ذهب ألفونس الى معهد « كنيڤه » ، ٩ ، شارع « كولبير » لدرس القواعد اللاتينية .

٣ حزيران : ولادة « أنا » الصغرى .

صيفاً : افلاس فانسان دوديه . باع مصنعه من الكرمليين .

ربيع ١٨٤٩ : رحيل عائلة دوديه الى ليون . سكنوا في المبنى رقم خمسة ، شارع « لافون » (يدعى اليوم شارع « جوزف سارلين ») دخل أرنست وألفونس الى مدرسة كنيسة « سان ـ بيار ـ دو ترو » ، حيث تلقيا دروساً أولية دون أهمية مقابل اشتراكهما في رتبة القداس .

أيلول ١٨٥٠ : دخل الأخوان الى مدرسة « أميار » ، حيث أتم

الفونس دروسه التكميلية والثانوية؛ لكنه لم يكمل حتى النهاية صف الفلسفة. (ربيع ١٨٥٧).

أوائل ١٨٥٢: انتقلت العائلة الى المبنى رقم ١٣، شارع «يا-أتروا».

١٨٥٤ - ١٨٥٦: لم يعد ألفونس يذهب الى المدرسة. أمضى وقته بالتنزه في قارب على مياه نهر «السون»، وباللهو مع رفاقه، وكتب أبياته الشعرية الأولى التي اصطبغت بطابع «موسيه». نشر بضع قصائد من تأليفه في جريدة «لاغازيت» في ليون، وذلك في نهاية ١٨٥٥ وأوائل ١٨٥٦.

خريف ١٨٥٥: انتقلت العائلة من جديد الى شقة من شارع «كستري»، في حي «برّاش».

١٨٥٧ - ٢٥ نيسان: بعد محاولات ڤانسان دوديه العديدة لجمع المال الكافي في ليون للعودة الى تجارة المنسوجات الحريرية، والتي باءت جميعها بالفشل، عمل كسمسار للنبيذ عند «بيليسونيه وبيرو».

١٨٥٧

١ نيسان : بفضل التوصيات والذكرى الطيبة التي تركها عم والدته فرنسوا رينو ، عمل ألفونس كناظر في مدرسة « ألس » . خلال اقامته هناك اتخذ من « ماتيو لوكروا » صديقاً له ، وأطلعه على محاولاته الشعرية .

حوالي ٢٥ تشرين الأول : طرد ألفونس دوديه من المدرسة ، وربما يعود ذلك الى مغامرة عاطفية ، تسبب الافشاء بها في فضيحة .

أول تشرين الثاني : وصول دوديه الى باريس حيث استقبله أخوه أرنست وآواه في غرفته في الفندق ، شارع « تورنون » .

III ـ حياته في باريس لغاية زواجه (١٨٥٨ ـ ١٨٦٧)

كانون الثاني ١٨٥٨ : التقى ماري ريو وعاشرها مدة طويلة ، نحو تسع سنوات . تخللت تلك الفترة مشاجرات عديدة . أنجبت ماري طفلة ، دعيت « سافو » ، وهي بطلة القصة التي تحمل الاسم نفسه .

عيد الفصح : أقام مع ماري ريو في « شفروز » ، وأعطى

مخطوطته « العاشقات » صيغتها النهائية .

أوائل تموز : نشر « العاشقات » ، وهي مجموعة من القصائد ، كتبت على أربع وستين صفحة ، وسحب منها خمسمائة وخمسون نسخة في دار نشر « تارديو » . كان المبيع ضئيلاً جداً ، رغم المدح الذي خصته به الصحف .

١٨٥٩ نيسان : انتقل الأخوان دوديه الى المبنى الرقم ٣٩ ، شارع بونابرت . في الفترة نفسها تقريباً . ذهب أرنست الى « بلوا » ليعمل كمدير تحرير في صحيفة « فرانس سنترال » .

حزيران : نشر « أوديبرت » ، وهي أولى قصص دوديه ، في صحيفة « باري - جورنال » حيث عمل الكاتب الشاب بانتظام خلال الصيف .

تشرين الثاني : بداية عمل دوديه في صحيفة « الفيغارو » .

٢٤ تشرين الثاني : نشر قصة « الناظر » في « الفيغارو » .

١٨٦٠ تموز : أصبح دوديه موظفاً في مكتب الدوق « دو مورني » رئيس الهيئة التشريعية .

١٨٦١ كانون الثاني : أقام الفونس مع ماري ريو في شارع « أمستردام » .

كانون الأول : ذهب دوديه الى الجنوب ليعالج نفسه من مرض زهري ، وليس من بداية سل كما ساد الاعتقاد مدة طويلة .

١٨٦٢ شباط : نجاح أولى مسرحياته : « آخر معبود » .

في الربيع : ترك دوديه شقة شارع « أمستردام » . واستقرت ماري ريو في « بور » حيث اخذ دوديه يذهب ليراها ، عندما لا يكون منشغلاً مع الخليلات الباقيات .

١٨٦٣ - ١١ تموز : اعادة نشر « العاشقات » التي لم تلق أي نجاح . مما دفع دوديه الى العدول عن الشعر .

ربيع ١٨٦٤ : تراكمت الديون على دوديه .

١٠ أذار ١٨٦٥ : موت الدوق دو مورني . انها ضربة قاسية ، نفسياً ومادياً ، بالنسبة الى دوديه الذي اضطر الى ترك وظيفته ، بعدما طلب منه ذلك خليفة دو مورني .

أيار - حزيران : كتب دوديه مأساة شعرية « الابن الضال »

ضاعت المخطوطة ويبدو انها كانت مسودة لبعض فصول « الشيء الصغير » .

١٥ كانون الأول : أعجب ألفونس دوديه بجوليا ألار ، ابنة صناعي في « الماريه » ، وقد التقاها في المسرح .

١٨٦٦ كانون الثاني : ذهب دوديه الى « جونكيار » ، حيث كتب القسم الأول من « الشيء الصغير » .

تموز : أول لقاء له مع جوليا ألار في « فيل دفراي » .

آب ـ تشرين الأول : نشر اثنتي عشرة رسالة من « رسائل طاحونتي » في صحيفة « الأفينومان » .

٢٧ تشرين الثاني : بداية نشر « الشيء الصغير » كقصة متسلسلة في صحيفة « المونيتور أونيفرسل دوسوار » .

١٨٦٧ ٢٩ كانون الثاني : زواج ألفونس دوديه وجوليا ألار .

١٨٩٧ ١٦ كانون الأول : وفاة ألفونس دوديه في منزله . كان له من العمر سبعة وخمسون عاماً . عاش أخوه أرنست ، بعد مماته ، أربعة وعشرين عاماً ، وعاشت أرملته جوليا ألار من بعده ثلاثة وأربعين عاماً .

حكاية « الشيء الصغير »

مقاطع من مقال كتبه دوديه لمناسبة اعادة نشر كتابه عام ١٨٨٢ : « لم »أكتب قبلاً أياً من كتبي بتلك المزاجية وتلك الفوضى . دون تصميم ودون ملاحظات ، بل ارتجال مجنون على صفحات من الورق الطويلة ، المُعدّة اصلاً للتغليف ، خشنة ، صفراء ، ألقيها جانباً ، الواحدة تلو الأخرى ، حالما تسودّ بالكلمات . حدث ذلك في منزل قروي كبير ، مهجور ، وضعه بعض الأقارب تحت تصرفي لبضعة أشهر من الشتاء . ان السكون الحزين في تلك السهول الكبيرة ، وحقول اشجار التوت والزيتون ، وكروم العنب . . . وقربي من المدينة التي وُلدت فيها ، وأسماء تلك القرى الصغيرة حيث كنت العب طفلاً . . . كل ذلك دعاني الى كتابة « الشيء الصغير » ، « قصة طفل » التي هي أشبه بسيرة ذاتية .

لها .

كنت أكتب « النيء الصغير » ، وأنا جالس على مقعد في أقصى الحديقة ، أو على متن مركب يسير في بحيرة ؛ وفي الأيام الماطرة أعمل في غرفتنا ، حيث تعزف لي زوجتي مقطوعات لشوبان . . .

لقد أخبرتكم كيف رأى كتابي النور ، دون تصميم سابق . لكن شائبته الكبيرة ، هي أنه كتب قبل أوانه اذ لا يملك المرء

النضج الكافي في الخامسة والعشرين ليستعيد ويدون ذكريات الماضي . و« الشيء الصغير » ، خاصة في القسم الأول ، ليس سوى صدى لطفولتي وفتوتي . لو انتظرت ، لتكلمت في ما بعد مطولاً ، دون خوف ، عن الطفولة التي تحتوي على تلك الذكريات البعيدة التي تتضمن انطباعاتنا الحافزة ، العميقة ، والتي تضج بالحيوية ، فكل الأحداث التي تلي تلك الحقبة من الزمن ، تجددها دون ان تمحوها . نستطيع أن ننسى تاريخاً حديثاً ، أو وجهاً رأيناه البارحة ؛ لكننا نتذكر دوماً رسوم الورق الذي يغلف جدران غرفتنا ، حيث كنا ننام ونحن أطفال . أو نتذكر لحناً كنا نسمعه عندما لم نكن نعرف القراءة . . . .

لكن الذي دونته باخلاص في « الشيء الصغير » هو الملل ، الغربة ، وحزن عائلة نمت في بلاد تغمرها الشمس ، فضاعت في ضباب ليون . . . كنت في العاشرة آنذاك .

ولكن كيف غفلت عن تدوين مراحل مراهقتي ؟ وكيف لم أتكلم عن المحن الدينية التي هزت كيان « الشيء الصغير » بين سن العاشرة والثانية عشرة ؟ كيف لم أدون انتفاضاتي أمام العبثية والغموض اللذين كنت مضطراً ان اقتنع بهما ، واللذين كان يتبعهما الندم واليأس فيحثان الطفل بذلك على السجود في كنيسة مقفرة مخافة أن يراه أحد ؟ كيف أضفيت على ذلك الرجل الصغير تلك النعومة وحسن التصرف ، دون أن أتكلم عن حياته الصاخبة التي عاشها منذ الثالثة عشرة ، محاولاً بذلك

الهروب من الأحزان التي خنقت ذويه يوماً بعد يوم ، بعدما أعلنوا افلاسهم ؟ فأصبح جريئاً عنيفاً ، قابلاً لارتكاب جميع الهفوات . لا يذهب الى صفه ... يدخن ... يشرب الكحول ... رغم الجهود والأخطار التي حدقت به ، كان يشعر بفرح عارم ، ذلك ان محيطه المكفهر قد اتسعت آفاقه .

أجل هذا هو أنا « الشيء الصغير » الذي اضطر أن يعمل كناظر ، في السادسة عشرة من عمره ، ليكسب معيشته ، وذلك في بلد يرسل الي صغار القرويين الفظين ، فيشتمونني بلهجتهم السفينولية الجافة والقاسية . لكوني فقيراً عانيت الأمرين بين أولئك الوحوش الجهل . لم أصادق في ذلك السجن الأليم سوى الكاهن الذي سميته الأب جرمان . ولم أعطف سوى على « بامبان » الذي كان وجهه دائماً ممرغاً بالحبر والوحل . بعد خروجي بوقت طويل من ذاك السجن الذي اسمه « أليس » ، كنت أستفيق مراراً في منتصف الليل ووجهي مبلل بالدموع . كنت أحلم بانني ما زلت ناظراً وشهيداً . لحسن الحظ لم تجعل مني تلك الفترة من الزمن رجلاً شريراً ، ولم ألعن ذلك الزمن البائس الذي ساعدني على تحمل تجارب تمرسي بالأدب والسنوات الأولى في باريس . كانت قاسية تلك السنوات ، وقصة « الشيء الصغير » لا تعطي عنها أية فكرة .

أما القسم الثاني فانه يخلو من الحقيقة ، ما عدا المقاطع التي

فهرس

الملف

منشورات عويدات ٨٦٩ / ١٩٨٤

زدني

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

١ ـ الأحمر والأسود / ستندال
٢ ـ الزنبقة في الوادي / بلزاك
٣ ـ سيرة حياة / مورياك
٤ ـ الجلد المسحور / بلزاك
٥ ـ غرام سوام / بروست
٦ ـ تيريز راكان / زولا
٧ ـ الجدار / سارتر
٨ ـ التربية العاطفية / فلوبير
٩ ـ مزيفو النقود / اندريه جيد
١٠ ـ الشيء الصغير / دوديه
١١ ـ المذكرات المضادة / مالرو / ج١
١٢ ـ المذكرات المضادة / مالرو / ج٢
١٣ ـ الصبايا / مونترلان

١٤ ـ رأفة بالنساء / مونترلان
١٥ ـ شيطان الخير / مونترلان
١٦ ـ المجذومات / مونترلان
١٧ ـ قوت الأرض / اندريه جيد
١٨ ـ أتالا ، رنيه ، آخر ملوك بني سراج / شاتوبريان
١٩ ـ النسيبة بت / بلزاك
٢٠ ـ الحبل والفئران / مالرو / ج١
٢١ ـ الحبل والفئران / مالرو / ج٢
٢٢ ـ أنا وديغول / مالرو
٢٣ ـ صومعة بارما / ستندال

. . . .

. . . .

٤٢ ـ الآنسة فيفي / موباسان

. . . .

. . . .

٤٧ ـ ثلاث حكايات / فلوبير

Alphonse Daudet

Le Petit Chose

Préface de Jean-Louis Curtis

Texte traduit en arabe

par

Claudia Chamooun ABI NADER

MARIANNE / OUEIDAT

Beyrouth

Alphonse Daudet
Le Petit Chose



روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية